جامعة الزقازيق
كلية الآداب
قسم التاريخ
فرع الوسيط



الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين – الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

رسالة مقدمة لنيل درجة الماچستير في الآداب

إعداد

الباحث/ أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد

إشراف

الأستاذ الدكتور/ قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب– جامعة الزقازيق

١٤٣٢هـ– ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

صدق الله العظيم

سورة البقرة: آية (٣٣)

إهـــــداء

إلـــــى:

شهداء التحرير قواد

التغيير .....

إلى الأمة المصرية ...

أحمد

فهرس المحتويات

المقدمــــة

تتناول تلك الدراسة الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشروالثالث عشر الميلاديين، وتأتي أهمية الموضوع من الحاجة الماسة لدراسة شريحة الفقراء في القاهرة؛ على أساس أنها إحدى القوى الاجتماعية التي تعرضت للتجاهل من قبل المؤرخين، والمعاصرين، لاهتمامهم بتاريخ الحكام والسلاطين؛ وأهملوا تلك الشريحة التي تشكل جزءاً حيوياً من المجتمع المصري بالقاهرة خلال هذين القرنين.

فإن هذا النمط من الدراسات كان – ولم يزل – تكتنفه حالة من الغموض؛ لإعراض وعزوف كثير من المؤرخين المعاصرين عن ذكر تاريخ الرعية والاهتمام بذكر تاريخ الحكام، وفي نفس الوقت فإن كثيراً من الباحثين المحدثين يحجبون عن الخوض في مثل هذه الدراسات آخذين بمبدأ توخي المادة العلمية لأي موضوع يتصل بالطبقة الحاكمة.

وقد يرجع الاهتمام بتلك الدراسة إلى أن نصيب شريحة الفقراء في مصر من الدراسات والبحوث كان محدوداً؛ ولم تهتم الدراسة السوسيولوجية (الاجتماعية) بهذه الشريحة إلا منذ وقت قصير حينما أتيحت الفرصة لــ آدم صبرة من خلال عمله (الفقر والإحسان في مصرخلال عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠– ١٥١٧م) فظهرت من خلال صفحات كتابه مدى الجهد المبذول، ولكن يعيبه التركيز الزائد على فقراء الصوفية الذي يتمثل في فلسفة عبادة الله وافتقاره لفقراء الشعب المصري.

ولا يتجاهل الباحث وجود العديد من الدراسات الأخرى التي تهتم بعامة مصر والقاهرة بعصور مصر الإسلامية في الفترة الأخيرة، لذا فإن دراسة الفقر بشكل خاص لم تحظ بالاهتمام الملم بشئونهم في مختلف مجالات الحياة بما يعطي لوحة فنية متكاملة لا سيما وجود بعض الرتوش بها؛ بالإضافة لذلك فإن وضع الفقراء تحت المنظار به شيء من الصعوبة، لأنهم جزء من العامة وبالتالي ليس كل ما ينطبق على العامة ينطبق على الفقراء من خلال المادة العلمية.

لذا يعتبر موضوع (الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) هو إطلالة ورؤية عامة على فقراء القاهرة بشكل خاص فهم أبسط شريحة من الطبقات العامة، ولذا فقد قام الباحث بإفراد دراسة خاصة تتناول حياتهم

في شكل هياكل أساسية من خلال كشف النقاب عنهم بالحديث عن أنماط حياتهم ومجتمعهم، وبوادر مساعدة الغير لهم، وقد نهجت في هذه الدراسة نهجاً موضوعياً لم التزم فيه بالتسلسل الزمني للأحداث (Chronology) المتعارف عليه في كتب الحوليات وإن كنت قد التزمت بهذا التسلسل في التمثيل لأسباب ونتائج الحديث عن الفقراء في إطار الفكرة الواحدة المراد البحث فيها، بل التزمت بالأسلوب الوصفي التحليلي في تفسير جوانب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهم وتحديد دورهم في السياق التاريخي المناسب.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع تقسيم الدراسة إلى أربعة فصول وخاتمة وأن يسبق الفصول تمهيد يتناول تعريف الفقر لغوياً واصطلاحياً أما الفصول الأربعة وهى:

أولا:الفصل الأول و فيه تحدثت عن "**العوامل المسببة للفقر**" بشكل يوضح دور نهر النيل والعوامل الطبيعية والبشرية في انتشار الفقر في بعض الأوقات، في حين خصص الفصل الثاني "**للوضع الاجتماعي للفقراء**" من حيث أماكن تجمعاتهم، وأسلوب حياتهم، ومكانتهم بالمجتمع المصري، بالإضافة لهجراتهم هرباً من تتابع الظروف القاسية عليهم. وتناول الفصل الثالث "**الوضع الاقتصادي للفقراء**" وقصد الباحث به عرضا لمختلف شرائح حرفهم ومهنهم وإظهار حالهم أثناء الأزمات؛ مع دور الوقف والصدقات في حياتهم، ويظهر الفصل الأخير "**الوضع السياسي للفقراء**" إظهار تفاعلاتهم مع السلطة الحاكمة سواء بالإيجاب أو بالسلب بهدف الوصول لشعورهم الداخلي تجاه السلطة الحاكمة، مع عدم إغفال أهمية رجالها وصناع القرار بها في مساعدتهم أثناء الأزمات، ثم أنهيت هذا البحث بخاتمة أوضحت فيها أهم نتائج البحث.

ولقد حاولت بذلك الخروج من البحث في صورة بسيطة لفقراء القاهرة معبراً عن كيانهم وشعورهم ومجتمعهم وتفاعلاتهم مع الغير بهدف إظهار أهميتهم الحيوية بالمجتمع المصري فهم شريحة يخطئ من يغفل أهميتها أو يستهين بها. وذلك برسم لوحة متكاملة الأبعاد واضحة المعالم ومتناسقة الألوان لكثير من الموضوعات ذات الأثر الهام عن وضع الفقراء في العصور الوسطى بشكل موضوعي شاملاً بعيداً عن التفصيلات الثانوية الصغيرة التي ربما لا تخدم الموضوع بشكل عام.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أتقدم بخالص شكري وعميق تقديري لأستاذي وأستاذ جيلي العالم الجليل **الأستاذ الدكتور/ قاسم عبده قاسم** أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة الزقازيق، الذي أشرف على هذا البحث منذ أن كان مجرد فكرة إلى لحظة إخراجه على هذه الصورة، ولم يضن عليّ برعايته ونصائحه وإرشاداته العلمية التي لا ينضب لها معين.

كذلك أتقدم بالشكر الوفير، والتقدير الكثير إلى **الدكتور/ عبد الحافظ عبد الخالق البنا،** أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد بكلية الآداب جامعة الزقازيق على ما بذله من جهد، وما قدمه لي من مساعدة ورعاية أفادت البحث والباحث.

وأخيراً أشكر **الأستاذ الدكتور/ يسري أحمد عبد الله زيدان** أستاذ التاريخ الإسلامي ووكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة، على تفضل سيادته بقبول المشاركة في مناقشة هذه الرسالة.

والله الموفق والمستعان ،،

تمهيد

المفهوم اللغوي:-

لقد أوردت بعض المصادر العربية و معاجم اللغة مفهوم الفقر "بما يعنى العَوْز و الحاجة[١] وافتقر أى صار فقيرا[٢]. وقد اختلف علماء الدين واللغة فى توضيح مقدار الفقر وإزالة ما يحوطه من غموض فأشار بعضهم إلى أن: الفقر بمعنى "قفقف الرجل إذا أفتقر فقرا مدقعا أى ملصقا بالتراب[٣]. بينما أشار ابن منظور إلى أن الفقير الذى لا شئ له، واتفق معه ابن الأعرابى ، وساوى الفقراء بالمساكين فى أنهما لا شئ لهما[٤]. وفى القاموس المحيط لوحظ الفرق بين التعريفين، فالفقير من لا يجد القوت، أما المسكين من لا شئ له، و بشكل أوضح الفقير المحتاج ، والمسكين من أذله الفقر[٥].

و نختم تلك المناظرة بقول الإمام الشافعى: إن الفقراء الضعاف الذين لا حرفة لهم، وأهل الحرف الذين لا تقع حرفتهم من حاجتهم موقعاً، فالفقير الذى لم يبق عليه بقية[٦]؛ فالفقر الذى هو موضوع دراستنا هو حينما يفتقر المرء إلى المال الذى يحتاجه، مثل الجائع الذى يفتقر إلى الخبز ، والفاقد للكساء، وأشار ابن الجوزى أن صاحب هذه الحالة يسمى مضطراً، وتكون رغبتة فى المال قوية ،وقد تكون ضعيفة[٧]. وقد أشار أحد الباحثيين إلى أن الفكر الإسلامى بخصوص الفقر كان منقسماً إلى معسكرين: أحدهما كان يؤكد على أهمية ترك الدنيا، وهو ما يستدعى رفض الثروة، وأما المعسكر الثانى فهو يؤكد على أهمية المال فى الحياة الاجتماعية للفرد[٨]. وهذا ما يجب الإشارة له فى عناصر البحث.

---

(١)المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية)،(تصدير إبراهيم مدكور ،مراجعة عبد الوهاب السيد عوض الله ، محمد عبد العزيز القلماوى ،ح٢، باب الفاء، ط٣،مطابع الأوفست ،القاهرة،١٩٨٥م)، ص٧٢٣.

(٢)المعجم الوجيز،(تصدير إبراهيم مدكور،شوقى ضيف،القاهرة،١٩٩٠م)، ص٤٧٧.

(٣)الزبيدى محمد مرتضى،تاج العروس من جواهر القاموس،(المجلد الرابع،فصل الفاء من باب القاف،ط١، دار الحياة، بيروت- لبنان، ١٣٠٦هـ)، ص٤٨؛ ابن منظور، لسان العرب، (ح١٢، تراثنا، بولاق- الدار المصرية، القاهرة، ب.ت)، ص١٨٤.

(٤)ابن منظور،تهذيب لسان العرب،(ح٢،ط١،دار الكتب العلمية،بيروت- لبنان١٩٩٣م)، ص٣٢٨؛ إسماعيل بن حماد الجوهرى،الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،(ح٢،تحقيق أحمد عبد الغفور عطار،نشره السيد حسن شربتلى،الكتاب العربى،القاهرة،ب.ت)،ص٧٨٢

(٥)الفيروزأبادى ،القاموس المحيط،(ح١،تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلى،دار إحياء التراث العربى،مؤسسة التاريخ العربى ،بيروت- لبنان،١٩٩٧م)، ص٦٣٧.

(٦)نفسه، ص٦٣٧، ابن منظور، لسان العرب، (ج٥، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م)، ص٦٠؛ أبو القاسم عبد الكريم القشيرى، الرسالة القشيرية، (ترجمة عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف ، ح٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ب.ت)، ص٥٣٦ ، ٥٣٧.

(٧)أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى،(مختصر منهاج القاصرين،ب.ت)،ص٣٣١.

(٨) آدم صبرة، الفقر والإحسان عصر سلاطين المماليك، (ترجمة قاسم عبده قاسم، المشروع القومي للترجمة، ع ٥٠٩، ط أولى، المجلس للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م)، ص ٤٩.

المفهوم الإصطلاحي:-

يدل لفظ فقير على أبسط جوانب الحياة المختلفة، فالفقير الذى نقصده هنا هو ما أشار له نفر من الفقهاء بقوله: "**ومنهم من لا يملك شيئا وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه من يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه**" بمعنى إذا احتاج سأل(1)؛ وإذا كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً، فالفقير يهمه ضروريات الحياة وهى "**المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه**"(2)، ولكن يمكن استثناء من تلك الضروريات المال والجاه، ليطلق عليهم فقراء المجتمع المصرى.

فالفقير دائماً وأبداً لا يسأل معاونة الغني؛ إنما يرجوه أن لا يظلمه ولا يلتمس منه إلا الرحمة؛ بل يريد العدالة ويسأله أن لا يميته في ميدان الحياة، أي يريد أبسط سبل الحياة؛ فالفقراء لا يملكون السلطة للوقوف أمام الحكام ولكنهم أوجدوا لوناً عبروا به عن آرائهم في حكامهم من خلال الأدب الشعبي، كالأمثال والقصص الشعبية، وغيرها مما تجعلهم تحت طائلة القانون(3)؛ وربما كان ذيوع شهرتهم مرتبط بظهورهم على مسرح الأحداث، ودائماً كان مقترناً بالفتن الكبرى، وخصوصاً الأزمات الاقتصادية فكل هؤلاء من الطبقات المعدومة اقتصادياً وهي تشكل كتلاً جماهيرية كبيرة لا يستهان بها من الفقراء والعاطلين عن العمل آنذاك(4). ومع ذلك قال عنهم المؤرخ العلامة المقريزي يجمعهم الطبل ويفرقهم العصا(5)، فقد يصل البعض بالفقراء لتقديم التنازلات من أجل الحفاظ على بقائهم وخصوصاً أثناء الأزمات الاقتصادية.

في حين وجد البعض منهم الاندراج تحت اسم التصوف حماية له من ظروف الحياة المتقلبة(6). **وتعرف إحدى الباحثات** الطبقة الدنيا والتي تشمل الفقراء بأنها تشمل جميع المصريين،

(1)أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، (حققه عبد الحليم محمود، طه عبد القادر سرور، المثنى، بغداد، ١٩٦٠م)، ص ٧٤؛ ابن الجوزي، مختصر منهاج القاصدين، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

(2)فتح الله أبو بكر بناني، عقد الدر واللآل في بيان فضل الفقير والفقراء، وفضيلة السؤال، (ط أولى، الثقافة الدينية، بورسعيد، القاهرة، ٢٠٠٤م)، ص ٥٢؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٣٤١.

(3)محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي، (ط الثانية، دار الشرق، القاهرة، ١٩٨٨م)، ص ١٨٦؛ إبراهيم أحمد شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، (الدراسات الشعبية، ع٨٧- ٨٨، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م)، ص ١٣، ١٤.

(4) محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعياريين، (ط الثانية، ذاكرة الكتاب، ع٣٧، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م)، ص ١٧٣، ١٧٤.

(5) أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، (تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ج٣، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣م)، ص ٢٦٧.

(6) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، (ج٤، الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص ٢٧٢.

ويتدرج تحت هذا المسمى مختلف الشرائح من أهل الحرف، الباعة، السوقة، حتى تصل إلى أدنى شريحة من شرائح الطبقة الدنيا ممن لا عمل لهم من العاطلين[1].

فالفقر مرض اجتماعي ينتشر بمقدار اختلاف الظروف الاقتصادية وغير مرتبط بزمان أو مكان فلولا الفقراء لما وجد الحكام والأغنياء؛ فبهم يعيشون، وبدونهم يحلون مكانهم فهي علاقة تعايشية فلابد من وجود من يحزن، يجوع، يذل، يقهر (الفقراء)؛ لكي يفرح، يشبع، يعز، يقهر الآخر (الأغنياء)، وبمعنى أدق لابد لأحدهم أن يموت وهو حي ليعيش الآخر.

ويمكن تعريف الفقراء في نهاية الأمر بأنهم أدنى شرائح الطبقة العامة من العاملين من ذوي الدخل المنخفض والعاطلين، المعدمين بل، المهمشين وهم من يعيشون بأدنى سبل الحياة، ولا يملكون ما يكفي لإعالة أنفسهم وعائلاتهم سواء في الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي دون أن ينالوا أية حقوق تذكر؛ فهم مكبلين بوضع فرض عليهم رضوا أم لم يرضوا، لذا فيجب التماس العذر لبعض أفعالهم.

(١) محاسن محمد الوقاد، الطبقات الدنيا في القاهر في عصر المماليك، (رسالة ماجستير غير منشورة، الآداب- عين شمس١٩٩١م)، ص٢؛ الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، تاريخ المصريين، ع ١٥٢، الهيئة، القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٢٤.

الفصل الأول

العوامل المسببة للفقر

- الفسطاط والقاهرة.
- المقصود بالموارد الاقتصادية وأنواعها (شرعية- غير شرعية)
- تقلص الأرض الزراعية ومدى أهمية الزراعة.
- أهم المجاعات والأوبئة ومدى تأثيرها على الزراعة وقصور وسائل العلاج.
- انكماش التجارة عن طريق الاحتكار والمصادرة والتسعير الإجباري.
- زيادة الضرائب مما أدى لهجر الفلاحين لأراضيهم والصناع لحرفهم.
- انعدام الأمن.
- تعدد النفقات للدولة (أظهر الفساد الإداري).
- نتائج لعرض الموارد والمصروفات.
- سؤال عن الفقر؟

العوامل المسببة للفقر

يعتبر الاقتصاد هو العامل الأساسي المؤثر في حركة الحراك الاجتماعي داخل المجتمع ، فلا يمكن لأي باحث يهتم بالتاريخ الاجتماعي لمجتمع معين، أو عصر معين دون التعرض للحياة الاقتصادية في هذا المجتمع ، تلك الحياة التي تعمل على تشكيل طبقات المجتمع، فالمجتمع الذي يتمتع فيه الفرد بمستوى معيشي مرتفع يؤثر في سلوكه ، وطريقة تفكيره ، مما ينعكس بدوره على المجتمع، لذلك كان لزاماً علينا في بداية الدراسة هذه:-

أن نتعرض إلي الحياة الاقتصادية لهذه الفترة – خلال القرنين: (السادس، والسابع الهجريين، الثاني عشر، الثالث عشر الميلاديين) – بشكل موجز.

فقد شهدت الفسطاط التي ذابت بالقاهرة فيما بعد نهضة تجارية، فقيل فيها إنها أغنى مدينة في العالم[١]؛ وقال الجاحظ: "**إن أهلها يستغنون عن كل بلد**"[٢] ، فهي "**أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة، لقرب النيل من الفسطاط** " لذا تعتبر الفسطاط أم القاهرة بمعنى أنهم جزآن لا يمكن فصلهما عن بعض فهما كيان واحد[٣]؛ وهذا ما أكده ابن سعيد بقوله: "**القاهرة أجد، وأعمر، وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان لها، وسكن الأجناد فيها**"[٤].

فتفوقت القاهرة على الفسطاط من حيث المنشآت، وانتشر بها عدد من الحرف، والصناعات، وانتقل إليها أصحاب الحرف، والصناعات[٥]؛ فصلاح الدين(٥٧٠-٥٩٠هـ/١١٧٤-١١٩٣) هو الذي مهد للقاهرة لكي تكون أكبر مدينة في الشرق ورسم طريق مستقبلها[٦]. فلقد تحولت مصر القديمة (العتيقة) أو الفسطاط مع النمو العمراني للقاهرة إلى حي صغير داخل العاصمة الكبرى[٧]؛ حيث اعتبرت عواصم مصر السابقة: الفسطاط، العسكر، والقطائع، بمثابة المدينة العامة التي تتسع

---

(١) مؤلف مجهول ، حدود العالم من المشرق الي المغرب ، (ترجمة يوسف الهادي ، ط أولى ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٩م)،ص١٣١.
(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،(ج٢، ط الموسوعات ، القاهرة ، ١٣٢١هـ)، ص١٩٥.
(٣)ابن سعيد ، النجوم الزهراء في حلي حضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة ،(تحقيق حسين نصار ، دار الكتب ، القاهرة ،١٩٧٠م) ، ص٢٧؛ أحمد عوف، مدينة الفسطاط وعبقرية المكان ، (س العلم والحياة ، ع ١٤٤ ، الهيئة ، القاهرة ، ٢٠٠٣م) ،ص٢٣ .
(٤) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب ،(تحقيق شوقي ضيف ، سيدة الكاشف ، ج اول ، س ذخائر ، ع ٨٩ ، الهيئة ، القاهرة ، ٢٠٠٣م) ، ص١١
(٥) بنيامين التطيلي، رحلة، (ترجمة عزرا حداد، دراسة عبد الله الشيخ، المجمع الثقافى، دارالعلوم، أبو ظبى، الإمارات، ٢٠٠٢م)، ص٣٥١؛ المقريزي ، الخطط ، ج٣، ص٣١ ؛ ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(٦) شحاته عيسي ابراهيم ، القاهرة تاريخها ونشأتها ، (الهيئة ، القاهرة ، ٢٠٠١م) ، ص١٢١.
(٧) ابن الوزان، وصف أفريقيا (ترجمة عبد الرحمن حميدة، الأسرة،الهيئة،القاهرة، ٢٠٠٥م) ،ص٥٦٦؛خالد عزب ، الفسطاط ، (ط أولى ، مدن تراثية ، ع١ ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ،١٩٩٨م) ، ص١٩٦ .

للنشاطات التجارية[1]. وقد اجتمع نفر من المؤرخين، والمعاصرين على أن الفسطاط والقاهرة كانتا تتمتعان بنشاط اقتصادي مزدهر، ولكن ليس هذا دليلاً على حال المدينتين أثناء الأزمات، وانعدام الأمن، وما تؤديه من نتائج، وتأثيرها على المجتمع القاهري.

ونظراً لأن الموارد الاقتصادية هي العامل الفعال لاقتصاد أي دولة فقد قسمت هذه الفقرة إلى نوعين: **١- شرعية** **٢- غير شرعية**

المقصود بالموارد الشرعية في نظر الفقهاء:- الخراج وهي ضريبة حدثنا عنها المقريزي[2] بقوله "**ما يؤخذ ... من الأرض التي تزرع حبوباً، ...، وما يؤخد من الفلاحين هدية مثل الغنم،...**" وقد بلغ الخراج في عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م (٤,٦,٥٣٠٢٩ ديناراً)[3] وبلغ خراج مصر في عهد الظاهر بيبرس(٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) اثني عشر مليوناً من الجنيهات وهو أقصى مقدار للخراج جاء منذ ابن أبي السرح[4] [5].

ولما كان هناك تفاوت بين السنة القمرية المعتمد عليها في استخراج الخراج، والسنة الشمسية التي تضبط الزروع وغيرها "**إذ تنقص السنون القمرية عن الشمسية سنة تقريباً كل ثلاث وثلاثين سنة**" فإن النظام الخراجي كان يقضي تقديم السنة القمرية سنة كلما انقضت ثلاث وثلاثون منها[6] وقد كان للحاكم الربع من الخراج خالصاً لنفسه، والربع لجنده ومن يقوى به على حربه، وجباية خراجه، ودفع عدوه، والربع للأرض وما تحتاجه من جسور، وحفر خلج، والربع الأخير يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها[7].

(١) عمرو عبد العزيز منير ، العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين ، (رسالة ماجستير ، غير منشورة ، آداب الزقازيق ، ٢٠٠٤م) ، ص ١٣٢.

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج١،ص١٢٠؛ ابن جماعة الحموي، مستند الأجناد في آلآت الجهاد ومختصر في فضل الجهاد، (تحقيق أسامة ناصر النقشبندي، منشورات وزارة الثقافة، دار الحرية، بغداد، العراق، ١٩٨٣م) ، ص ١٢٠.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٦١.

(٤)عبد الله بن سعد بن أبي السرح: استعمله عثمان رضي الله عنه على مصر وقد جبى خراجها الذي بلغ أربعة عشر مليون دينار، انظر المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٢٧؛ الشربيني، هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، (طبعة بولاق- مصر، القاهرة، ١٢٧٤هـ)، ص ١٢٨ .

(٥) علي إبراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطي من الفتح العربي إلي الفتح العثماني ،(النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧م)، ص٣٨٢ ؛ الشربيني، المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (ج١٣ ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩١٣م) ، ص ٥٤ ؛ ابن المأمون ، نصوص من أخبار مصر ، (تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ، مارس ، ١٩٨٣م) ، ص٦.

(٧) ابن زولاق ، فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، (تحقيق علي محمد عمر ، ط الثانية ، الخانجي ، القاهرة ، ٢٠٠٠م) ، ص ٨٦ .

وعموماً إذا انتهت زيادة النيل إلى ستة عشر ذراعاً ففيه تمام خراج السلطان، ولكن أتم الزيادة النافعة للبلاد هي سبعة عشر ذراعاً؛ أما إذا كانت ثماني عشرة كانت ضررا بالناس(١)، وتعتبر الزكاة في الشرع حصة من المال ونحوه، يوجب الشرع بذلها للفقراء ونحوهم(٢). وفي إشارة للسبكي قال "**وليعلم صاحب الزرع أن الزكاة واجبة على الأقوات....**"(٣). ويبدو أن السبكي يقصد بذلك الخراج حسب الشريعة الإسلامية دون تعسف من الحكام.

ويقول المقريزي(٤): إن أول من جبى الزكاة بمصر في عهد الدولة الأيوبية كان صلاح الدين الأيوبي في ١٣ ربيع الآخر عام (٥٦٧هـ /١١٧١م)، وكانت تفرق على الفقراء وغيرهم وفق قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابن السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٥) .

وقد وجدت العديد من الموارد الأخرى كالمواريث، والعشر(٦)، والخمس(٧) بالشرع، وغيرها بالإضافة للجزية وهي الجوالي وكانت تستخرج في غرة السنة ويتحصل منها مال كثير فقد بلغت في عام (٥٨٧هـ/١١٩١م) ٣٠,٠٠٠ دينار وقلت عام (٨١٦هـ/١٤١٣م) إلى ١١,٤٠٠ دينار(٨) ويرجع انخفاض الجزية لهذا الحد ربما لاعتناق الكثير من أهل الذمة للإسلام رغبةً أو رهبةً، والأخيرة أكثر وذلك ربما لما ينالونه من تعنت الحكام أثناء صراعهم مع المسلمين، وخصوصاً أثناء الفتن الطائفية، بالإضافة لقلة نفوذ أهل الذمة بخلاف القرنين السادس والسابع الهجريين، فكان التظاهر بالإسلام أو إخفاء دينهم هو أفضل طريقة للحفاظ على حياتهم وبالتالي سقطت الجزية عنهم.

---

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، (تحقيق مصطفي السقا ، كامل المهندس ، دار الكتب – مركز تحقيق التراث، القاهرة ، مارس ،١٩٦٩م) ، ص١٦٠ ، البغدادي ، الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ،(ط الثانية ، الألف كتاب الثاني ، ع ٣١٤ ، الهيئة ، القاهرة ، ١٩٩٨م)، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) المعجم الوجيز ، المرجع السابق ، مادة الزكاة ، ص٢٩٠.

(٣) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ،(تحقيق محمد علي النجار ، أبو زيد شلبي ، محمد أبو العيون ، ط الثالثة ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٦م)، ص١٢٧ .

(٤) المقريزي ، الخطط ،جـ١ ، ص ١٧٤ .

(٥) سورة التوبة ، الاية (٦٠).

(٦) العشر : كان يؤخذ من الثغور عشر قيمة بضائع التجار الواصلين في البحر إلي الديار المصرية ، انظر القلقشندي ، صبح الأعشى، جـ٣،ص٤٦٣.

(٧) الخمس: هو أن يقدر ما مع الإنسان من المال فيؤخذ خمسه، انظر عز الدين ابن شداد، كتاب تاريخ الملك الظاهر، (تحقيق أحمد حطيط، ذخائر، ع ١٩٠، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة)، ص ٣٠١ .

(٨) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٧٣، ١٧٥؛ محمد بن محمد بن خليل الأسدي ، التيسر والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار ، (تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧م)، ص٧٨ .

أما الموارد الغير شرعية ويقصد بها المكوس التي لا يوجد بها سند شرعي يعتمد عليه الحكام في فرضها(١)؛ فالمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية، وهو انتقاص الثمن في البياعة، ومن أمثلة ذلك ما كانت تؤخذ على المراعي أو الكلأ المطلق المباح، فيأخذ الأمير ممن يرعى دوابه مالاً عن كل رأس، وجرى ذلك على المصايد، فيكتب في الديوان خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك وأما صيد بحر النيل فيما صيد منه يحمل لدار السمك بالقاهرة فيباع ويؤخد منه مكس السلطان(٢). وكان الحكام يأخذون من تجار الروم الواردين على الثغور الخمس أحياناً، والعشر أحياناً أخرى، وكانت النسبة تتراوح بين ١٠٪ و ٢٠٪ وتصل إلى ٣٥٪ من قيمة البضائع الواردة والصادرة(٣)؛ فقد كان الحاصل من خمس الإسكندرية عام (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) ٢٨,٠٠٠,٦٣ ديناراً(٤).

وعندما استقل صلاح الدين بأرض مصر أسقط عن أهلها المكوس والضرائب وقرئ منشور بذلك في صفر عام ٥٦٧هـ/ أكتوبر ١١٧١م(٥). وبتولي الملك العزيزعثمان(٥٨٩-٥٩٤هـ/ ١١٩٣-١١٩٧م) على مصر أعاد المكوس التي أبطلها صلاح الدين بل وزاد في شناعتها(٦)؛ وفي عهد المعز أيبك (٦٤٨-٦٥٤هـ/١٢٥٠-١٢٥٦م) أحدث وزيره الأسعد شرف الدين هبة الله على التجار، وأصحاب العقار أموالاً ورتب مكوسا وضمانات سماها الحقوق السلطانية(٧). ويبدو أن تلك المكوس لم تكن ابتكاراً من الحكام بل كان بعضها موروثاً عن العصور السالفة. فقد أحدث المظفر قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٨-١٢٥٩م) مكوسا كثيرة لأجل قتال التتار(٨)، بل وأراد أخذ دينار من كل فرد من الرعية(٩). ولكن نهاه الشيخ العز بن عبد السلام(١٠) عن ذلك إلا بانتهاء أموال بيت المال وما يبقى من ذهب وفضة وغيره ، وما عند الأمراء من ذلك وبذلك يحق لقطز أخذ دينار من كل واحد.(١١)

(١) الأسدي، التيسير والاعتبار،ص٧٩ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، (ط٢، النهضة، القاهرة ، ١٩٧٦م) ، ص٣١٣؛ مصر في دولة المماليك البحرية، (النهضة ، القاهرة ، يناير ١٩٥٩م) ، ص٢١٧.
(٢)المقريزي، الخطط، جـ٣ ، ص١٩٧؛ ج١، ص ١٧٣، ١٧٤ .
(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٣، ص٤٦٤.
(٤) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٧٦.
(٥) السيوطي ، حسن المحاضرة ، جـ٢،ص٢٨ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ،(ج١، قدمها عبادة كحيلة ، الذخائر ، الهيئة ، القاهرة ، ٢٠٠٧م) ،ص٢٣٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، (تحقيق جمال الدين الشيال، الجزء الثاني، الطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م)، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .
(٦) ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، (جـ١ ، ط أولى ، الأميرية ، القاهرة ،١٣١١هـ) ، ص٧٣ .
(٧) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، (تحقيق محمد مصطفي زيادة ، جـ١ ق٢، دار الكتب، القاهرة ، ١٩٤٣م) ، ص ٣٨٤ .
(٨) ابن إياس ،المصدر السابق، نفس الجزء، ص٩٤ ؛ عبد الله الشرقاوي ، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، (تحقيق رحاب عبد الحميد ، صفحات من تاريخ مصر ،ع٣٣ ، مدبولي ، القاهرة، ١٩٩٦م) ، ص٩٧.
(٩) المقريزي ، المصدر السابق، ج١ ق ٣، ص ٨٩٨ .
(١٠) العز بن عبد السلام: هو من اكابر علماء الشافعية وتلقب بسلطان العلماء وكان لا يعقد مجلساً إلا بوجوده وله كلمة مسموعة عند الحكام ، انظر ابن إياس ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٩٤ .
(١١) نفسه، ص٩٥،٩٦؛ عبد الله الشرقاوي، المصدر السابق، ص٩٨؛ المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٨٩٨.

وقد أراد بيبرس أن يفعل ما فعله قطز فأرسل عبد الله بن يحيي النووي رسالة يوبخه فيها وأشار له أنه "**لا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء ....**"(١). وفي عام ٧٠٠هـــ/١٣٠٠م ورد الخبر بقدوم غازان لبلاد الشام ومن أجل ذلك أخذ من الناس مائة ألف دينار، وطلب من الجالسين بالحوانيت مبلغ أربعين ديناراً من كل عقار، مما أدى إلى ضرر الناس(٢).

ولم تستمر تلك الفترة علي وتيرة واحدة من الحكام فكما أسقط صلاح الدين الأيوبي العديد من المكوس(٣)؛ أسقط بيبرس عند اعتلائه سلطنة مصر جميع ما أحدثه المظفر قطز من مكوس عند خروجه لمحاربة التتار(٤)؛ وربما فعل ذلك تقرباً للشعب المصري، ودليل ذلك أنه لم يتوان في إصدار نفس المكوس التي فعلها قطز ولكن نهاه الشيخ عبد الله النووي عنها كما ذكر من قبل.

بينما تفرد المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـــ/١٢٧٩-١٢٩٠م) بإبطال العديد من المكوس مثل ما كان يجبى من أهل مصر عندما يبشرون بفتح حصن، أو نصر عسكري، أو عند حد وفاء النيل من حلوى وشواء برسم السماط وجعل مصروفه من بيت المال. وقد وجد مورد آخر كالمتجر وكان يقصد به استغلال الحاكم أموال في الاشتغال بالتجارة للكسب(٥)، وأما الخراج كان يقصد به أشجار السنط في قوص، وأخميم، وغيرها ويدفع أهالي تلك الجهات رسوماً مقابل انتفاعهم بأخشابها(٦). فلا أحد يستطيع أن ينكر تعدد الموارد الشرعية، وغير شرعية، وما تجبيه على خزانة الدولة من أموال، ولكن السؤال هو:- هل كانت تلك الموارد وما تفرضه الدولة من ضرائب، ورسوم تكفي الدولة أثناء الأزمات بأشكالها، وتعدد فروعها؟! وهل كان لنهر النيل دور أثناء الأزمات؟

ونظراً لأن أغلب موارد مصر متوقفة على اقتصادها الزراعي، فإن نهر النيل هو المتحكم في الزراعة في مصر منذ أقدم العصور، فقد كانت حالة مصر الاقتصادية متوقفة على تذبذب منسوب النيل.

لذا تعتبر الضوابط الجغرافية لها آثارها العميقة في حياتنا: الموقع العام، المناخ الجاف، قلة المطر، وذبذبته، أخطار الأنهار حين تفي وحين تفيض، نوع التربة، فقد جاءت حضارتنا ثمرة تفاعل

---

(١) السيوطي ،حسن المحاضرة، ج ٢ ، ص٧٦ .
(٢) المقريزي ، السلوك ، ج١ ق٣، ص ٩٠٦،٩٠٧ .
(٣) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، (تحقيق محمد حلمي، محمد مصطفي زيادة، جـ١ق٢، تراثنا ،ع٢٣٢ ، القاهرة ، ١٩٦٢م) ، ص٥٢٢.
(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص١١٤؛ عز الدين ابن شداد، كتاب الملك الظاهر، ص ٣٠٠.
(٥) ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٨٥؛ ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٢، ج٥، ص٣٩٥
(٦) النابلسي ، تاريخ الفيوم وبلاده ، (دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ١٩٧٤م) ، ص٤٨ .

مستمر بين هذه الضوابط وبين جهودنا في تطوير حياتنا[١]. فالقطر المصري كثير الجفاف، ولا ينزل المطر إلا قليلاً ولا تتساقط فيه ثلوج، ومناخه شديد الحر[٢]، مما جعل أهلها منذ القدم مرتبطين في حياتهم ارتباطاً تاماً بهذا النهر[٣]، فهو أفضل أنهار الأرض عذوبة[٤]، وقد أيد بلوتي هذا الرأي بأن نهر النيل "**أعذب مياه الدنيا**" لدرجة أن الناس تسميه بحراً[٥]، فلولا زيادة نهر النيل تدريجياً في الصيف حتى يكتمل ري الأراضي لفسد إقليم مصر[٦]. فقد أشار أحد الرحالة أن كل أقاليم مصر هى عبارة عن سهل خصيب بالغلال والخضر وتملك مراعي ممتازة للمواشي، وكمية لا حصر لها من الدجاج، والأوز[٧]، بما يوحي بأهمية مورد مصر الاقتصادي المتوقف علي الزراعة لذا فإن نهر النيل لعب دوراً كبيراً في حياة مصر الاقتصادية في كل العصور وحتى الآن!!

ويجب أن نشير لشيء مهم ألا وهو: أن ضبط نهر النيل يحقق حياة اقتصادية مستقرة ويتحدد ذلك بمقدار قدرة نجاح ضبط نهر النيل سواء في فترات الهدوء والازدهار للحاكم، أو فترات الاضطراب، والمنازعات الداخلية مما قد تنعكس آثاره على المجتمع القاهري بصفة عامة، والفقراء بصفة خاصة؛ والاستفادة من مياه النيل تتلخص في ضبط مياهه بمجهود شاق من الحاكم والمحكوم؛ فنهر النيل بصفة عامة هو عصب الحياة الاقتصادية إذا ما أجيد ضبطه.

وعلى هذه الأسس تحددت الحرف التقليدية للسكان ففي وادي النيل ترتفع الكثافة في الأرض الزراعية حيث ممارسة حرفة الزراعة اعتماداً على الري من ماء النيل[٨]. لذا فقد قسمت الأرض الزراعية في مصر إلى أقسام حسب جودتها، وما يتبع ذلك من قيمة محصولها[٩]. ولأهمية نهر النيل والزراعة للمصريين كان الاهتمام ببناء الجسور لضبط مياهه، فقد قال النويري في هذا: "**وكانت الأنهار بقناطر وجسور**" فإذا بلغت زيادة الفيضان ستة عشر ذراعاً كان خراج السلطان وإذا زاد

(١) عبد العزيز كامل، المجتمع العربي، (الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م)، ص٣١١،٣١٢.

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ١، ص٢٥٢؛ ابن الوزان، وصف افريقيا، ص٥٦٨؛ بنيامين التطيلي، رحلة، ص٣٥١.

(٣) هرودت، هرودت يتحدث عن مصر، (ترجمة محمد صقر خفاجة، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦م)، ص٧٤.

(٤) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (ج١، الطبعة الثانية، طبعة مصر، ١٣٥٥هـ)، ص ٢١؛ مهذب رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (تهذيب أحمد العوامري، محمد أحمد جاد، جـ أول، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٣م)، ص٢٩.

(5) Piloti, E.: L'Egypte au commencement du Quinziemé Siècle d'après le trait d'emmannel piloti crète, ed. By P.H. Dopp., Le Caire, 1950. P. 5 ; Dopp, Caire vu par les voyageuyres occident aux du moyen ages, B. S. G. E., 1951. P. 3.

(٦) المقريزي، الخطط، جـ١، ص١٠١.

(٧) ابن الوزان، المصدر السابق، ص٥٦٣.

(٨) عبد العزيز كامل، المرجع السابق، ص٣٠٦،٣٠٧

(٩) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٦٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٥٠،٤٥٢.

ذراعاً كان الخصب والصلاح أما إذا بلغ ثماني عشر ذراعاً أضر بالضياع، وأعقبه الوباء، وإذا نقص ذراعين كان الضرر شديداً واستسقى للناس[(١)]. وقد أدرك حكام مصر هذه الحقيقة واهتموا بضبط مياه النهر- باعتبارها ثروة قومية – اهتماماً تفاوت بين سلطان وآخر، فاهتمامهم بأمر مياه النيل كان لزيادة غلة إقطاعاتهم التي استأثروا بغالب نتاجها، كما احتكروا الأقوات، والغلال بينما عاش غالبية الشعب والفلاحين في القرى، والعامة في المدن حياة دون المستوى الآدمي[(٢)].

ولذا فقد وجد نوعان من الجسور[(٣)]، فالجسور السلطانية عامة جامعة للبلاد ويعم نفعها على الأرض الزراعية، وتقوم بعملها السلطة الحاكمة، أما البلدية فهي خاصة ببلد دون غيرها أو قرية بعينها، ولها ضرائب مقررة فيلتزم أهل القرى بالإشراف عليها سواء بالبناء أو الصيانة[(٤)]. ولقد أوضح لنا ابن شاهين أهمية الجسور بقوله: "**وأما ما تحتاج إليه البلاد عند فيض النيل حفظ الجسور ... وعدم الغفلة عنها إلى أن تستوفي البلاد وحدها**"[(٥)]. فقد كانت تلك الجسور تحفظ البلاد من الغرق وتتحكم في المقدار المناسب للأرض.

وقد اعتبرت المنشآت الخاصة بضبط النهر، والتحكم في مياهه من مآثر الحاكم الذي أنشأها، إلا أن ذلك لا ينسحب على كل الحكام؛ فقد تعرضت هذه المرافق للإهمال في الفترات التي يكون فيها الحاكم ضعيفاً، وفي أوقات الفتن، والمنازعات الداخلية، وعموما كانت الأرض تزرع مرة واحدة باسم ري الحياض[(٦)]. ولكن بعض الأراضي توفر لها نظام الري الدائم، وكان الهدف زيادة الإنتاج الزراعي لإشباع حاجات الاستهلاك المحلي. وفي زراعة الري لا غنى عن تدخل الحكومة وسيطاً بين الفلاح والنهر، ليضيف الري سيداً آخر هو الحاكم[(٧)]؛ وبذلك الشكل تكون الطريقة المعتادة للري في تلك الآونة هي طريقة ري الحياض، وتحولت الأراضي الزراعية للري الدائم ببناء السد العالي.

(١)النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ،(السفر الأول ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٦م) ، ص ٣٥٥ ؛ ابن بطوطة، رحلة، ج١،ص٢٢؛ مهذب الرحلة ، جـ١ ، ص٣٠ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ط. الثالثة، مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م) ، ص ٢٠٦ .

(٢)ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،ج١،ص٣٣٢؛ قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، (ط أولى ، المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨م) ، ص٢٢،٢٣ .

(٣) الجسر: هو عبارة عن القنطرة و نحوها ومما يعبر عليه،وهو سد ترابي مبني على حافة النهر ، أو الترعة يحفظ الماء من أن يفيض علي ضفتيه ويغرق البلاد المحيطة ، وتستمر هذه الجسور في حجز مياه الفيضان كي يستفاد منها في عمليات الري ، انظر المقريزي، الخطط، ج٢،ص١٦٥؛ قاسم عبد قاسم ، المرجع السابق، ص٢٣ .

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى،جـ٣ ، ص٤٤٨،٤٤٩ ؛ المقريزي ، المصدر السابق ، جـ١، ص١٦٢ .

(٥) ابن شاهين ، زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك ، (صححه بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس، فرنسا ،١٨٩٤م) ، ص١٢٩ .

(٦)قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق، ص ٢٣ ؛ طاهر أبو فاشا ، عرض وتحليل هز القحوف في شرح قصيدة ابي شادوف ،(الهيئة ، القاهرة ، ١٩٦٢م) ، ص٣٥ .

(٧) قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق، ص٢٣، ١٢٣.

وقد أشار ابن مماتي بمواعيد زراعة وحصد بعض المحاصيل والخضر والفاكهة مما يعطينا انطباعاً عن اختلاف مناخ مصر الذي ساعد على تعدد المحاصيل[١]. وصفوة القول أن الزراعة الرئيسية في مصر: هي الشتوية التي تعقب الفيضان ولا تحتاج إلى مياه أخرى[٢]، حيث ارتبطت حياة الفلاح بالأرض، وعلى هذا الأساس عاشت مصر كلها[٣]. ومن أجل العناية بالزراعة كان حكام مصر لا يدخرون جهداً في العناية بها، فأنشأوا الجسور، وشقوا الترع لتوفير مياه الري للأراضي التي يتعذر وصول الماء إليها، حتى أن صلاح الدين عهد إلى الأمير قراقوش الأسدي بذلك[٤]، فنجد في عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م أمر السلطان قلاوون بحفر الخليج المعروف بالطيرية (الطبرية)[٥] وخرج بنفسه لإنجاز هذا العمل وتم حفر الخليج في مدة عشرة أيام[٦]. وهذا بخلاف العديد من القناطر التي ذكرها المقريزي، وبخلاف الجسور الأخرى التي كانت تخدم أهداف الحكام لتنمية الزراعة مثل الجسر الأعظم، وجسر بأرض الطبالة عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، وغير ذلك من الجسور الأخرى[٧].

ورغم ما كانت تتمتع به مصر في فترات كثيرة من ازدهار الحياة الاقتصادية، إلا أن القاهرة وأسواقها لم تكن على حال ثابت من الهدوء والسكينة، بل كثيراً ما كانت عوامل الانهيار والاضمحلال تطل برأسها من وقت لآخر معلنة عن وجودها وسط الرخاء والازدهار، مما أدت إلى زعزعة الحال في الأسواق، وإثارة القلق في النفوس، ومما يترتب عليه تعطيل الحركة وإغلاق الحوانيت بين حين وآخر. ومثال ذلك ما كان يحدث عند النقص في فيضان النيل، وغالباً ما كان يتبع تلك المجاعات والقحط، والأوبئة والأمراض التي تحصد أرواح الشعب المصري[٨]. بالإضافة لعوامل أخرى، ساعدت على ذلك الانهيار الاقتصادي الذي سيأتي ذكره فيما بعد، ليكون من العوامل الهامة التي ساعدت على الفقر.

---

(١) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، (تحقيق عزيز سوريال عطيه ، مدبولي ، القاهرة ،١٩٩١م) ، ص٢٥٨- ٢٧٢؛ وعن الزراعة الشتوية والصيفية وأهم المحاصيل والفواكه انظر المقريزي ، الخطط، جـ١ ، ص١٦٣-١٦٦؛ النويري ، نهاية الأرب ، السفر الاول ، ص٣٥٦؛ القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٢ .

(٢) محمد محمود علي أبو زيد ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الريف المصري من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، (رسالة دكتوراة، غير منشورة ، كلية البنات – عين شمس ، ١٩٨٥م)، ص١٨٩ .

(٣) الشربينى،هزالقحوف،ص٦؛ السيد الباز العريني، مصر في عصر الأيوبيين ، (الكيلاني ، القاهرة ، ١٩٦٠م) ص١٨٩ .

(٤) ابن مماتي ، المصدر السابق، ص٢٠٥ وما بعدها .

(٥) الطيرية: كانت ترعة الطيرية تخرج من النيل قرب قرية مسماة بهذا الاسم، وهي الآن ترعة الحاجر. لمزيد من التفاصيل انظر المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، هامش (٢)، ص ٧١٢.

(٦) نفسه، ص٧١٢ .

(٧)المقريزي ، الخطط ، جـ٣، ص٢٣٧-٢٤٦، ٢٦٨-٢٧٧ .

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، (ط أولى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢م) ، ص٨٨.

فقد كان النظام السياسي في تلك الفترة يقوم على أساس إقطاعي يعتمد بدوره على الأرض كمصدر الثروة وحين تضطرب إنتاجية الأرض، تضطرب دعامة هامة من دعامات دخل الطبقة الحاكمة، ومن ناحية أخرى اعتمدت جماهير المصريين على إنتاجية الأراضي الزراعية؛ ومن هنا يجدر بنا الإشارة إلى حقيقة مؤداها أن معظم المجاعات والأوبئة التي ألمت بمصر في ذلك الحين إنما كانت مرتبطة بنهر النيل وفيضانه السنوي الذي تعتمد عليه الزراعة في البلاد؛ ليتجسد شبح المجاعات بوجهه المرعب الذي يتوارى خلفه شبح الوباء(١). والواقع أن القلق الذي عاش فيه أجدادنا لم يعد له وجود اليوم بفضل التحكم في مياه هذا النهر العظيم، وخلاصة القول: إن تذبذب منسوب ماء النيل بين الزيادة، والنقصان كان له عامل السلب على المجتمع المصري بصفة عامة، لما يصحبه من قحط، ومجاعة، بالتالي إمكانية ظهور الوباء، ورغم محاولة الدولة معالجة تلك الأزمات إلا أن تلك الكوارث كان من الصعب التحكم فيها بشكل كامل، لا سيما وجود السدود التي حدت من هذه الكوارث لحد ما، لذا فتلك الأزمات بشكل أو بآخر أثرت في كيان الاقتصاد المصري بالسلب، بل لا نبالغ إن قلنا أنها أثرت في كيان الشعب المصري، **ولذا فان تذبذب منسوب مياه النيل كان سبباً من أسباب إلحاق الفقر بالمصريين.**

ومن أمثلة ذلك: حدوث غلاء في عهد الخليفة الفائز (٥٤٩-٥٥٥ هـ/١١٥٤-١١٦٠م) أثر على الاقتصاد، نتيجة قصور ماء النيل عن الوفاء، ولم تمض مدة قصيرة إلا وكانت البلاد تحيا حياة طبيعية، بفضل تصرف الوزير الصالح طلائع بن رزيك(٥٤٩-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦١م)(٢). وفي عام ٥٩٠هـ/١١٩٣م عهد العزيز عثمان نقص ماء النيل فرفعت الأسعار وشرقت البلاد(٣)، ورغم ذلك كان "**عادلاً منصفاً لطيفاً كثير الخير رفيقاً بالرعية**" ولعل أشد المجاعات التي ألمت بمصرفي خلال تلك الفترة عهد الملك العادل (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م)، فى عام٥٩٦هـ/ ١١٩٩م وسببها انخفاض النيل والتي استمرت ثلاث سنوات(٤). فقد توقف النيل بمصر في عام ٥٩٦هـ/١١٩٩م ولم يكمل ثلاثة عشر ذراعاً واستمر ذلك حتى عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م(٥)، ويعتبر أدق وصف لتلك المجاعة ما ذكره

(١) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك ، (ط الثانية ، المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م) ، ص١٤٤.
(٢) المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، (تحقيق ياسر سيد صالحين ، الآداب ، القاهرة ،١٩٩٩م) ، ص٢٣ .
(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ١ق١ ،ص١١٩ .
(٤)ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (ط أولى ،جـ٦، دار الكتب، القاهرة ،١٩٣٨م) ،ص١٢٩؛ المقريزي،إغاثة الأمة ،ص٢٤-٢٦؛ السيوطي، كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة، (تحقيق محمد الششتاوي، ط أولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م)، ص ٢١٨ .
(٥) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٤ ، الفجالة ، القاهرة ،١٩٦٩م) ، ص٤٥٥ ؛ النيل وجزيرة الروضة، ص ٢١٨؛ أبو شامة المقدسي ، تراجم القرنين السادس والسابع والمعروف بالذيل على الروضتين، (صححه محمد زاهد، السيد عزت العطار، ط ٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م) ص ١٧ هامش (١) .

الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي تصادف وجوده بمصر آنذاك؛ وأبرز لنا معاناة الشعب المصري بمختلف طبقاته جراء تلك الأزمة التي دفعت الناس لأكل الموتي والجيف فيقول "**ودخلت سنة سبع (٥٩٧هـ) مفترسة أسباب الحياة، وقد يئس الناس من زيادة النيل ...، ودخل القاهرة ومصر خلق عظيم واشتد بهم الجوع ...، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات**"[١] فلقد كان البغدادي شاهداً على تلك المجاعة، وبغض النظر إن كان وصفه لها فيه شيء من المبالغة؛ فهو يصور لنا منظراً كفيلاً بزعزعة اقتصاد أية دولة والإطاحة بحاكمها بصرف النظر عما يقدمه من مساعدات للمتضررين.

ولم يشأ الله أن تقضي تلك الأزمة على تاريخ العادل، ففي عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م : "**زاد النيل ... ورخصت الأسعار**"[٢]، وفي عام ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م في عهد الكامل بن العادل نقص النيل وعام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ظهر الغلاء بالديار المصرية وحدث نفس الوضع عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م في عهد الظاهر بيبرس إثر توقف زيادة النيل فكان الغلاء بديار مصر مسرعاً، ومن شدته بالناس "**أكلوا ورق اللفت والكرنب**"[٣] ورغم ذلك كان عصره يتسم بالهدوء النسبي لتبلغ مدة حكمه سبع عشرة سنة وشهرين دون حدوث فتن تهدد عرشه، فقد كان قادراً على إدارة الأزمات[٤].

وفي عام٦٩٤هـ/١٢٩٤م بلغ النيل ستة عشر ذراعاً وسبعة عشر إصبعاً ثم هبط ولم يصعد مرة أخرى فارتفعت الأسعار حتي بلغت تسعين درهماً للأردب، ومائة وخمسين درهماً فضة للقمح[٥]. فكان إذا تم الماء ست عشرة ذراعاً وفى خراج مصر. وفي عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م شح النيل ووصل إلى اثني عشر ذراعاً ثم هبط فشرقت الأرض ووقع الغلاء[٦]، حتى أكلت الجيف ومات الخلق جوعاً، ولكن سرعان ما انحط السعر[٧]. وفي عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م لم تبلغ زيادة النيل حتى

(١) البغدادي، رحلة، ص١٣٢ ؛ أبو شامة، تراجم القرنين السادس والسابع، ص ١٩ .
(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ١ق١ ،ص١٦٢ ؛ السيوطي، النيل وجزيرة الروضة، ص ٢١٩ .
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،جـ٧ ،ص٢١٣، ٢١٤؛ المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٥٠٩، ٥١٠؛ أبو شامة، المصدر السابق، ص ١٥٩؛ بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركية ، (تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ٥٢.
(٤)المقريزي ، الخطط ، جـ٣ ،ص٣٧٨ ؛ محمد حمزة إسماعيل الحداد ، السلطان المنصور قلاوون ،(ط الثانية، صفحات من تاريخ مصر ،ع٢٢، مدبولي ، القاهرة ،١٩٩٨م) ،ص٢٨ .
(٥) المقريزي ، السلوك ،جـ١ق٣ ، ص٨٠٩، ٨١٠ ؛ السيوطي ، المصدر السابق، ص ٢٢٠ .
(٦)ابن الكندي ، فضائل مصر المحروسة، (تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الأسرة ، الهيئة ، القاهرة ، ١٩٩٧م)، ص٤١؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ،جـ١ ، ص١٣٣ .
(٧) ابن حبيب ، تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه ، (تحقيق محمد محمد أمين، راجعه ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، جـ١، حوادث (٦٧٨-٧٠٨هـ/١٢٧٩-١٣٠٨م)، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٦م) ، ص١٨٤ .

أول شهر يناير إلا خمسة عشر ذراعاً وثمانية عشر إصبعاً، ثم هبط فشرقت الأراضي مما أدى لزيادة الأسعار ليصل سعر أردب القمح مائة وسبعون درهماً[(١)]، وحدث نفس الأمر في عام ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م ولكن خفف من حدة الأزمة سقوط المطر[(٢)].

وهكذا لعب الفيضان السنوي دوراً مهماً وحيوياً في حياة المصريين، فإذا كانت المياه كافية لري الأرض الزراعية خرجت تلك السنة على خير، أما إذا هبطت مياه النيل عن حد الوفاء، انتشرت حالة من الفوضى والفزع، وماجت بمشاعر الخوف والترقب[(٣)]. وكما كان لنهر النيل وتذبذب منسوب مياهه سبب في المجاعات التي تصحبها الأوبئة، فقد كانت هناك أوبئة لم يكن لنهر النيل يد فيها، لذا سنحاول عرض أهم الأوبئة خلال تلك الفترة **(موضوع الدراسة)** :

فقد كان جهل المصريين بتلك الأوبئة واعتبارها مرضاً عارضاً وعدم الاهتمام بالنظافة، وإلقاء الناس القاذورات والحيوانات الميتة في الشوارع والنيل، بالإضافة لانتشار المستنقعات الناتجة عن انحسار النيل فيؤدي هذا للضرر على الصحة العامة[(٤)]. في حين يرجع ابن خلدون انتشار الوباء لفساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة[(٥)]. ليؤكد السيوطي ذلك بقوله "**ومصر هواها راكد وحرها متزايد**"[(٦)] ففي عام ٥٨١هـ/١١٨٥م وقع وباءً بأرض مصر وفشا الموت المفاجئ، وفي صفر وربيع الأول في عام ٥٩٢هـ/١١٩٥م انتشر الوباء مرة أخرى وكثرت الطرحى من الأموات بالطرقات، وأكثرهم يموت جوعا[(٧)]. وفيما بين عامي (٦٣٢-٦٣٤هـ/ ١٢٣٤-١٢٣٦م) نجم عن زيادة السكان انتشار الوباء حيث "**مات في شهر نيف وثلاثون ألف إنسان**"، فعجز الناس عن مقاومة المرض، لندرة ما يقتاتون به وأضر ذلك بالزراعة[(٨)] وقد أدرك المقريزي نتائج اكتظاظ المدن الكبرى بالسكان بقوله "**أهل هذه المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع**

(١) المقريزي ، السلوك، ج ١ ق ٣، ص٨٢٩.
(٢) القلعاوي، صفوة الزمان فيمن ولي مصر من أمير وسلطان، (مخطوط بدار الكتب، رقم ٥١ ميكروفيلم ٣٦٨٠٨، تاريخ)، ص٧٠.
(٣) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص١٤٤ .
(٤)ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،ج١،ص٢٥٣،٢٥٢؛سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٣٣؛ عثمان علي محمد عطا ، الأزمات الاقتصادية في مصر العصر المملوكي وأثرها السياسي و الاقتصادي والاجتماعي ،(تاريخ المصريين ، ع٢١٣ ، الهيئة ، القاهرة ،٢٠٠٢م) ، ص٧٤ .
(٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون ،(اختيار رضوان إبراهيم ، ط أولى، دار إحياء الكتاب، القاهرة ، ١٩٦٠م)،ص١٢٢.
(٦) السيوطي ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٢٠٠ .
(٧)المقريزي ، المصدر السابق ، جـ١ ق١ ، ص٩١ ،١٣٠-١٣٢.
(٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ،ص٢٧٨ ؛ عباس حلمي اسماعيل ، السياسة الداخلية في الدولة الأيوبية، (رسالة دكتوراة، غير منشورة ، آداب القاهرة ، ١٩٥٥م) ، ص٧٤، ٧٥ .

وقوعاً في الأمراض من جميع أهل هذه الأرض"[١]. وتكرر وقوع وباء بالديار المصرية وهلك منه خلق كثير عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م[٢].

وكما أثر الوباء وأفنى الكثير من البشر، أفنى الكثير من الحيوانات بهلاك أعداد كثيرة ، ومن ثم ترتفع أسعار اللحوم، وتتعطل السواقي على العمل، مما أضر بالزراعة، لعجز الفلاحين حرث الأرض بدون أبقار، ومن ثم ترتفع أسعار المحاصيل الزراعية، لتأخذ الأزمة وضعها في المجتمع المصري بشكل عام. وقد حدث ذلك في عهد العزيز عثمان عام ٥٩٠هـ/١١٩٣م "**أن وقعت الآفة في البقر والجمال والحمير وهلك الكثير**"[٣] وتكرر الأمر في عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، وعام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م بموت الأبقار[٤]. فكما كانت المجاعات ذات ضرر على المصريين عامة والفقراء خاصة كانت الأوبئة ذات ضرر، ولكن كلاهما نسبي وليس دائماً. ويتوقف استمرار المجاعات والأوبئة بحسب وضع مياه النيل وفيضانه، وبحسب عوامل أخرى بالنسبة للأوبئة مثل: النظافة، وطبيعة المناخ المصري.

وفي حقيقة الأمر إن وصف المؤرخين المعاصرين للمجاعات، والأوبئة بشكلها القاتم يجعلنا نتخيل وضع الناس بعد تلك الأزمات، وما يجرى عليهم من نتائج، وآثار سيئة قد تؤدي بهم لبراثن الفقر، وفي ضوء كل هذا كانت الأوبئة، والمجاعات تحدث بسبب الفيضان، وما يتبع ذلك من إهمال الزراعة، لإهمال العناية بالترع، والجسور، وبالتالي يظهر شبح المجاعة، وما يصاحبه من موتى لتنتشر الأمراض، في حين كانت السلطة الحاكمة تستأثر بكل متع الحياة، ومظاهرها، وقل منهم من شعر بتلك الأزمات، ومحاولة معالجتها، لاسيما على سبيل المثال: صلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، ومحمد بن قلاوون، وهذا ما يأتي ذكره فيما بعد ولذا لا نبالغ إذا قلنا إن حياة المصريين مرتبطة بنهر النيل.

وعموماً لقد أدت تلك الأزمات الاقتصادية إلى قلة الأموال في الخزائن مما دفع الحكام إلى احتكار التجارة، ورفع أسعارها مما أدى إلى انحسار نشاط التجار ونتج عن ذلك تدهور التجارة المصرية[٥]. والواقع أن معظم تجارة مصر الداخلية كانت تتجه نحو الفسطاط و القاهرة، ولكن الدور

(١) المقريزي ، الخطط ، جـ٢ ، ص١٤٥ .
(٢) العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ،(تحقيق محمد محمد أمين ، جـ٢، القاهرة ، ١٩٨٨م)، ص١٢٠.
(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ١ق١ ، ص١١٩ .
(٤) نفسه، جـ١ق٣ ، ص٧٣٣،٩٠٦.
(٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ، جـ١،ص٣٣٢ ؛ عثمان علي محمد عطا ، الأزمات الاقتصادية ، ص٢٢٢ .

التجاري الفعال الذي كان يقوم به أرباب الحرف في الفسطاط توارى في بداية العصر الأيوبي بعد حرقها، وانتقال معظم سكانها إلى القاهرة(١)، ثم عاودوا نشاطهم مرة أخرى عندما أنشأ الصالح نجم الدين أيوب(٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٣٩-١٢٤٩م) قلعة الجزيرة في مواجهة الفسطاط فانتقل إليها كثير من الأمراء(٢)، ليصبح لنهر النيل دور مهم في تدهور التجارة المصرية بطريق غير مباشر.

وتحدث تلك المشكلة بتوقف النيل في أيام زيادته، فيظهر التجار بقبضتهم على الغلال، رغبة في ارتفاع الأسعار، فيحدث بهذا الغلاء على حد قول المقريزي "**في كتمان الزيادة العامة أعظم فائدة وأجل عائدة**"(٣)، ففرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ويدعو الاحتكار لتصاعد الأسعار بغير قحط(٤). فالاحتكار هو "**جمع الطعام ونحو ما يؤكل، واحتباسه، وانتظار وقت الغلاء به**" مما يؤدي لضرر الضعفاء والفقراء(٥). وقد أجمع علماء المسلمين على تحريمه أو على الأقل كراهيته(٦). وأول من أحدث مالاً سوى مال الخراج بمصر هو أحمد بن مربر لما ولي خراج مصر عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م فقد أحاط بالنطرون، وحجر عليه بعد ما كان مباحاً لجميع الناس، حيث كانت الدولة تحتكر أنواعاً من الصناعات، وجزءاً من التجارة الداخلية، وتبيح حق الاحتكار لبعض التجار، فكان هؤلاء يرفعون الأسعار، فتعلو صيحات الشعب من الغلاء(٧). فقد احتكر صلاح الدين حراج (غابات) أشجار السنط واعتبرها كأنها من المعادن ليس لأحد فيها ملك فهي لبيت المال وشدد الحراسة عليها(٨). ورغم احتكار السلطة الحاكمة خلال تلك الفترة لبعض الموارد، إلا أننا لا ننكر أهمية ذلك لخدمة الأسطول: مثل احتكار الأخشاب بعهد صلاح الدين لتدعيم سبل الجهاد ضد الصليبيين؛ ولكن أهم ما يثير غضب الشعب هو احتكار المواد الغذائية، والتي تظهر وقت الغلاء (السوق السوداء) لصالح التجار بمساندة بعض أفراد السلطة الحاكمة.

---

(١) ابن سعيد، النجوم الزاهرة، ص ٢٥؛ شلبي إبراهيم الجعيدي ، طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م)،(تاريخ المصريين ، ع٢١٢ ، الهيئة ، القاهرة ،٢٠٠٣م) ، ص٥٢ .
(٢) ابن سعيد ، المصدر السابق، ص٢٧ ؛ المغرب في حلي المغرب ، ص١١ .
(٣) المقريزي ، الخطط ، جـ١ ، ص٩٨ .
(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٢٢١،٢٢٠.
(٥) المقريزي ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص١٨٥ ؛ الأسدي ، التيسير والاعتبار ،ص١٣٨ .
(٦) الشيرزي ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،(نشره السيد الباز العريني ، محمد مصطفي زيادة ، القاهرة ، ١٩٤٦م)،ص١٢، ١٣؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص١٦٧ .
(٧)المقريزي ، المصدر السابق، جـ١ ، ص١٦٧؛ عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ،(ط أولى ، دار الفكر العربي ، فبراير ١٩٤٧م) ،ص٦٤، ٦٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء،ص٢٣٥،٢٣٦.
(٨) أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والفاطمي ،(مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ،ب.ت) ،ص٧٦، ٧٧ .

فقد كان احتكار الصالح طلائع بن رزيك أثناء وزارته الغلال سبباً في ارتفاع أسعارها، مع قصور مياه النيل[١]. وتكرر الأمر في عام ٥٩٦هـ/١١٩٩م بتوقف النيل "**فلما وقع الرخاء ... أصيب كثير ممن أقتنى المال من الغلال**". فسياسة الاحتكار التي مارستها السلطة الحاكمة – سواء حكام أو تجار– قد استغلت بشكل أو بآخر حاجة الشعب للمواد الغذائية أثناء الأزمات عن طريق تحديد السعر بما لا يتناسب مع قدرة الطبقات الشعبية[٢]. فقد قال ابن خلدون "**احتكار الزرع لتحسين الغلاء مشئوم ... لأن الناس بسبب حاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون من الأموال**" وقد أدت تلك السياسة لخسارة أصحاب الحرف، وصغار الباعة فتكسد الأسواق وتبطل معايش الرعايا[٣]، فالاحتكار منهي عنه لما فيه من تضييق الأقوات على الناس لذا تكره التجارة في الأقوات[٤]. ولكن يبدو أن سياسة الاحتكار هي مورد اعتاد عليه الحكام منذ عام ٢٥٠هـ/٨٦٤ م في عهد أحمد بن المدبر والي مصر، ورغم تحريم علماء المسلمين لتلك السياسة إلا أن هذا لم يلفت نظر السلطة الحاكمة طالما أن هذا سيؤدي لتعويض مورد هام من موارد الدولة، وبالتالي سوف لا تفقد خزانة الدولة مالاً كثيراً، وذلك بصرف النظر عن خسارة البعض الآخر من الشعب المصري مثل: صغار الباعة، وأصحاب المعايش، وغيرهم.

وأما بالنسبة **للمصادرة**، فهي عقوبة مقررة واجبة النفاذ هدفها المال بالمطالبة أو الاستيلاء بالقوة لصالح الدولة[٥]، ولم تكن انطلاقاً من دوافع دينية، وإنما كانت تعبيرا عن طبيعة العلاقة بين إدارة السلطة ورعاياهم، سواء كانوا مسلمين أو أهل ذمة[٦]. فقد كانت مصادرة الحكام لرجال الدولة قد جاءت بالسلب على المجتمع المصري لقيامهم بجمع ما دفعوه من أموال – كرشوة – ممن يليهم من العامة تحسباً لظروف المصادرة، فما يعنينا هنا إظهار، وتوضيح نماذج لمصادرة الشعب المصري، مما يؤول به إلى الفقر خلال القرنين: السادس، والسابع الهجريين.

فقد شهدت خلافة الآمر بأحكام الله (٤٩٥- ٥٢٤هـ/ ١١٠٢- ١١٣٠م) مصادرات عديدة بدأها بوزيره المأمون البطائحي (٥١٥-٥١٩هـ/١١٢١- ١١٢٥م) وأخيه المؤتمن وهما بالقصر فصودرت دورهما[٧]، بالإضافة للمصادرات الأقل في شئون الدولة. ففي عام ٥٢١هـ/١١٢٧ م

(١) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٣، ٢٤ .
(٢) نفسه، ص٢٤-٢٦؛ محاسن محمد الوقاد، الطبقات الشعبية ، ص١٢٥ بتصرف.
(٣)ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، ص٢٢٣؛ تاريخ ابن خلدون،ج١،ص٣٣٢.
(٤) ابن الجوزي ،مختصر منهاج القاصرين ، ص٧٤،٧٥.
(٥) البيومي إسماعيل الشربيني ، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك)، (جـ١، ع١٠٠، الهيئة، القاهرة، ١٩٩٧م)، ص٢٣ .
(٦) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص٧٢ .
(٧) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١١٤ .

صادر أبو نجاح الراهب[1] الكتاب، والعمال، والتجار، وأرباب الأموال لذلك "**خرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق**"[2]، حيث أخذ من حمال فقير عشرين ديناراً من جمل باعه لم يكن يملك سواه[3]. وقد تتبع الوزير الصالح طلائع بن رزيك نفس السياسة مع فئات المجتمع المصري[4].

وفي آخر وزارة للفاطميين قام صلاح الدين الذي وزر للعاضد (جماد الآخرة ٥٦٤/ المحرم ٥٦٧هـ- مارس ١١٦٨/ سبتمبر ١١٧١م) بمصادرة جزء من الأرض المزروعة تقدر بحوالي ثلاثين فداناً كانت ملكاً لدير، وقد منحت للرهبان من قبل الخليفة الآمر بشكل مستمر[5]، وفي رمضان ٥٩٤هـ/١١٩٧ م قصر مد النيل وتعذر وجود المال حتى عم المرتزقة الحرمان، فأخذ ما بأيدي الناس بالمصادرات[6]. وفي عام ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م استوزر العادل (٥٩٦- ٦١٥هـ/ ١١٩٩-١٢١٨م) الصفي بن شكر، فصادر كتاب الدولة مما أدى لهرب الكثير منهم فعزله في عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م وأعاده الكامل (٦١٥-٦٣٦هـ/١٢١٨ -١٢٣٨ م) أثناء سلطنته فجمع مالاً عظيماً أمد به السلطان. ولم يكن الصالح أيوب أقل ميلاً إلى المصادرات من والده، فبمجرد توليته، احتاط على أموال، ومجوهرات زوجات أبيه، ثم استدار إلى أملاك الأمراء الذين ساعدوه – في قهر العادل الثاني– وصادرهم[7]. وربما أراد من تلك المصادرة شقين:

أولاً: أن يملأ خزينة الدولة رغبة في استمرار دور الجهاد الذي بدأه صلاح الدين ضد الصليبيين.

ثانياً: رغبة في كسر شوكة الأمراء، وإضعافهم فربما يثوروا عليه كما ثاروا من قبل على أخيه إن لم يف برغباتهم بحكم أنهم أجلسوه علي عرش سلطنة مصر، بالإضافة لخوفه من خيانتهم له مع غيره مثلما فعلوا ذلك من قبل.

ولم يكن بيبرس أقل من سابقيه فقد كان "**كثير المصادرات للرعية لأجل الغزوات**" فقد بلغت عشر حالات للعامة من حيث مصادرة الأملاك في عهده[8]. وعلى سبيل المثال: مصادرته لضياء الدين

---

(١) من شدة مصادرات الراهب للناس لقبه الخليفة الآمر بـ (الأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء سيد الرؤساء) فأثرت اساءته للمسلمين ومصادراته للناس، انظر أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، (ط أولى، المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢م) ، ص ١٧٥.

(٢) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٦٧.

(٣) سلام شافعي محمود سلام ، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي ،(المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م) ، ص٨٧ .

(٤) المقريزي ، المصدر السابق،نفس الجزء، ص١٤٢ .

(٥) نفسه، ص٢٢١ .

(٦) المقريزي ، السلوك ، جـ١ق١، ص١٤٢ .

(٧)المقريزي ، الخطط ، جـ٤ ، ص٢٠٦ ؛ البيومي اسماعيل ، مصادرة الأملاك ، جـ١ ،ص٤٩ .

(٨)إبن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص١١٠ ؛ البيومي إسماعيل ، المرجع السابق، نفس الجزء، ص٣٤٤ .

بن الفقاعي عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م[١]. ويبدو أن عدد المصادرات التي تعرض لها الشعب في عهد الظاهر بيبرس؛ كان هدفها الاستعانة بتلك الأموال في حروبه الخارجية، في حين أنه يمكن القول إن هذه أسباب لأجل تحصيل الأموال، ولكن بنهاية الأمر لابد من التماس العذر له، لما تعرضت له البلاد من أخطار، بالإضافة لكونه حاكماً أحب المصريين وليس لديه الرغبة في استنزاف أموالهم إن وجدت.

ولم يختلف عنه الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٦٩٤هـ /١٢٩٣-١٢٩٤م)، (٦٩٨-٨٠٧هـ/ ١٢٩٨-١٣٠٨م)، (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) ففي جماد الأول عام ٦٧٨هـ/ سبتمبر١٢٧٩م أعاد سنقر الأعسر للوزارة، وأثناء ذلك هزم الناصر بعساكره من غازان فتولي ناصر الدين الشيخي والي القاهرة جباية الأموال من التجار، وأرباب الأموال لأجل النفقة على العساكر، وقرر في وزارته على كل إردب غلة خروبه إذا طلع إلى الطحان، فتحصل مبلغ عظيم من المصادرات[٢]. وفي عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م عمل الشجاعي شاد الدواوين على مصادرة عامة مصر والشام من أجل تدبير مال لبناء مدينة طرابلس الجديدة[٣]. وفي آخر أيام الناصر محمد صادر الدواوين، والولاة، ورمى البضائع على التجار[٤]، وقد تؤدي مصادرات رجال الدولة إلى عدم الانتماء للأرض التي يعيشون من خيرها – مصر – فعملوا على جمع الثروات، وقبلوا الرشاوي، وأسرفوا في النفقات، لإحساسهم بعدم الأمان من قبل رأس السلطة الحاكمة، أما العامة فلم تكن لهم القدرة على التصرف إزاء تلك المصادرات، فكما كانت الاحتكارات والمصادرات من ضمن الموارد "غير المباشرة" كانت أيضاً من العوامل الهامة لتدهور التجارة.

وقد لجأت الحكومة أحياناً إلى **تسعير** السلع للخروج من الأزمات والتغلب عليها، وذلك التسعير الجبري الذي نهت عنه الحسبة، ولكن طبق نظام التسعير بالرغم أن المنافسة الحرة شرط من شروط قيام السوق بالمعنى الحقيقي، لأن التنافس المستمر لأصحاب الصنف الواحد والحرفة الواحدة يؤدي إلى خفض الأسعار وتثبيتها[٥] وذلك مثلما حدث في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله ، عندما حدث الغلاء أمر المأمون البطائحي – أن يدبر الحال، "**فختم على مخازن الغلات، وأحضر أربابها وخيرهم**

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ،(جـ١٣ ، ط السادسة، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ،٢٠٠١م) ، ص٢٥٣ .
(٢) المقريزي ، الخطط ، جـ٣ ، ص١٣٧ .
(٣) ابن كثير ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣١٣، ٣١٤ .
(٤) المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٠٠، ١٠١.
(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ،(تحقيق عبد العزيز الخويطر ، ط أولى ، رياض ، ١٩٧٦م)، ص١٨٨؛ صبحي لبيب ، تاريخ تجارة الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي ،(مجلة غرفة الاسكندرية التجارية ، ع١٧٣ ، ع٢ ، للسنة ١٥ ، ١٩٥١م) ،ص١٦ .

في أن تبقى غلاتهم تحت الختم إلى أن يصل المغل الجديد أو أن يفرج عنها وتباع بثلاثين ديناراً كل مائة أردب ... واضطر أصحاب الغلة المخزونة إلى بيعها خشية من السوس"(١) فلقد كان تسعير الغلال إحدى الوسائل التي تلجأ إليها الحكومة إبان أوقات المجاعات، ولكن النتيجة غالباً ما تكون عكس المرجو من هذا الإجراء، إذ تتفاقم الأمور، ويختفي الخبز، وتشتد بالناس المجاعة فتضطر الحكومة ثانية إلى إبطال التسعير كما حدث في عهدي الظاهر بيبرس، والناصر محمد بن قلاوون(٢).

ومن العوامل المؤثرة في حدوث الأزمات نظام **طرح البضائع** أو الرمايات (البيع الإجباري) بمعنى فرض الدولة (سلطان – أمير) سلعاً أو بضائع بالسعر الذي تراه، وبالكمية التي تريدها بغض النظر عن حاجة الأسواق ولم يكن للتاجر حق الرفض، أو المساومة على الأسعار(٣)؛ ليصبح ذلك سبباً لمتاعب التجار، وعامل لانكماش حركة الأسواق الداخلية، ولمحاولة التجار لتعويض الخسارة مما يؤدي لارتفاع الأسعار وكساد حركة الأسواق(٤).

ونستطيع أن نستنتج أن السلطة الحاكمة قصدت بنظام التسعير، وطرح البضائع محاولة الخروج من الأزمات الاقتصادية، مع الحفاظ على وضع التجار، وخوفاً من ظهور اضطرابات الأمن من قبل حالات التذمر من الناس جراء كل أزمة. ولكن لم يؤت ذلك ثماره، فقد كان المتضرر الأول هم صغار التجار، والبسطاء من المصريين، كالسوقة، والباعة، والحرفيين، بينما لم تؤثر تلك السياسة في أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة من التجار بشكل ملحوظ، في حين أن الضرائب والرسوم التي فرضت عليهم كانت كفيلة بزيادة محاولات الغش في الموازين، وارتفاع الأسعار، وبالتالي كل ذلك يتجه في نهاية الأمر بشتى صوره صوب الفقراء من المجتمع المصري.

وبالطبع أدى هذا النظام إلى تدهور أوضاع الرأسمالية الصغيرة، وربما القضاء عليها تماماً، أما أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، فقد قل غناهم بسبب الاحتكار، وتحول كثير منهم للعمل وكلاء للسلطان، ويتضح من ذلك حجم الخسائر التي تعرض لها النشاط التجاري، و خراب الأسواق العامرة

(١) المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص٢٢، ٢٣.
(٢) قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص٧٤،٧٥ ؛ أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك ، (عين شمس ، القاهرة ،١٩٧٨م) ،ص٣٨، ٣٩ .
(٣) المقريزي ، المصدر السابق، ص٣٢؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ،جـ١، ص٢٤٢؛ الحسين مصطفي ، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في مصر الإسلامية ، (رسالة دكتوراة، غير منشورة،آثار- القاهرة ، ١٩٨٧م)، ص١٨٣.
(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء،ص٢٤٢؛ قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص٧٢.

بسبب ما فرض عليها من مغارم ومصادرات، ورفع الأسعار للمواد الخام وعمليات طرح البضائع(١). وقد أدى ذلك إلى خسارة أصحاب الحرف، وصغار الباعة، وفي هذه الحال لن يجدوا مفراً من ترك الأسواق، فتكسد ويبطل معاش الرعايا(٢) وفي طي تلك الهزات الاقتصادية العنيفة: كالمجاعات التي اكتسحت منهم الآلاف أدى ذلك لالتجاء البعض منهم للعمل في ألوان الكسب غير المشروع فمثلاً: الحرافيش كانوا فرقة شعبية من الرجالة في الجيش الأيوبي، أما في عهد المماليك فقدوا هذا الدور وتحولوا إلى التسول وأصبحت كلمة الحرافيش ذات مدلول عام، أطلق على كل الفقراء، سواء كانوا من الحرافيش- في المدلول الخاص- أو السوقة وأصحاب الحرف الدنيئة(٣).

بالإضافة إلى ذلك، إفساح المجال أمام الصناعات الأجنبية لغزو السوق المحلية، وتحقيق رواج كبير، بسبب دقة صنعها، ورخص أثمانها(٤). وعموماً لقد أدت الآثار السابقة لتحول العديد من العامة إلى متسولين اشتركوا في الفتن والنهب بغية الفوز بشيء ما، كذلك تقلص عدد الأثرياء، وازدادت رقعة المعدمين، ومما ساعد على تدهور أحوال العامة هكذا: مصادرة الحكومة لمحاصيلهم أو شرائها بأبخس الأسعار(٥)، وبالتالي القضاء على الرواج الذي كانت تتمتع به بعض الصناعات، وتدهور أعداد أصحاب الحرف والصناعات. كما أن التدهور الاقتصادي العام قد اضطر الناس إلى الاكتفاء على الضروريات. مما أدى بالتالي إلى ضمور وذبول كثير من الصناعات، التي ترتبط بالرواج الاقتصادي والرفاهية، التي يحيا المجتمع في ظلها(٦).

ونتيجة لكل ما ذكر من أسباب، ونتائج وما كانت تؤول إليه المجاعات والأوبئة من ارتفاع أسعار المواد الغذائية، والعوامل الأخرى كالمصادرات، والاحتكارات في تلك الفترة كل هذا أدى إلى انضمام الكثير من الأغنياء والميسورين، وهي الطبقة المتوسطة الدخل إلى طبقة الفقراء؛ لأنهم قد فنيت أموالهم نتيجة لارتفاع أسعار المواد الغذائية؛ فكانوا يبيعون ما يملكون ليسدوا احتياجاتهم دون دخل يفي

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٢٣٤-٢٣٦؛ البيومي إسماعيل ، مصادرة الأملاك ، جـ٢ ،ص٩٧-٩٩.
(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦؛ أنيس المقدسي، الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير ،(مجلة مجمع اللغة العربية " البحوث و المحاضرات "، مؤتمر ١٩٦١-١٩٦٢، الهيئة ، القاهرة ، ١٩٦٢م) ، ص ١٦٩ ، ١٧٠.
(٣) محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الأيوبي ، (جـ١ ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٩٧ م) ، ص٥٦؛ علاء طه رزق ، عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ، (ط أولى ، عين ، القاهرة ، ٢٠٠٣م) ، ص٥١ .
(٤) البيومي إسماعيل ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٠٩ .
(٥) الأسدي، التيسير والاعتبار، ص ١٤٢؛ عبد الرحمن فهمي ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، (س المكتبة الثقافية ، ع ١٠٣، القاهرة ، ١٩٦٤ م) ، ص٨٤.
(٦) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص١٧٧ .

بالغرض؛ ومن ثم فقدوا ما يستطيعون بيعه مع توالي الأزمات، وقد أدى ذلك في نهاية الأمر لتخلخل البناء الاجتماعي بين طبقات المجتمع المصري، لتزايد عدد الفقراء ما بين الحين والآخر.

وبعد هذا العرض السريع للصناعة والتجارة وظروف انكماشها، كان يجب التعرض لظروف تقلص الأرض الزراعية وبالتالي هجر الفلاحين لأراضيهم التي هي أساس الصناعة وبالتالي التجارة ومن ثم تزداد الحالة فقراً. وذلك من خلال عرض سريع لبعض أسباب هجر الفلاحين لأراضيهم:

لقد تعرض الريف المصري خلال القرنين السادس والسابع الهجريين لمجموعة من المجاعات، والأوبئة [١]، مما يؤدي لتأخر الزرع، وندرة الأقوات ويعم القحط[٢]. فمن شدة مجاعة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م "**كان الرجل بالريف من أسفل مصر وأعلاها يموت وبيده المحراث**"، وبذلك لم تجد الجسور من يقوم بها، ولا القرى من يعمل لصالحها[٣].

بالإضافة لذلك كان لهبوب الرياح دور كبير في فساد الزرع، كالأرز، والقمح، وزيادة الأسعار مثلما حدث، في عام ٦٩٥ هـ/ ١١٩٨م، مع هبوب رياح سوداء من بلاد برقة. وتكررت تلك الرياح في أواخر ذي الحجة عام ٦٦٧هـ/ أغسطس١٢٦٨م فأصابت صعقة أهلكتها[٤]، وتكرر الأمر في عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م[٥]. وفي عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م عندما سقط البرد علي إقليم الغربية فافسد الزرع الذي اقترب موعد حصاده[٦]. وفي عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م أتلف البرد الغلال في الوجه البحري[٧] وقد وجدت آفات أتلفت كثيراً من المحاصيل الزراعية، فالفئران غطت الأرض وأتت على ما زرعه الفلاحون عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١م وكان قصب السكر أكثر المحاصيل تضرراً، فقل محصوله وعجزت مصر عن تصدير سكرها إلى الشام والعراق والحجاز، بينما قضت الديدان على المساحات الضئيلة التي زرعت عامي ٥٩٥- ٥٩٦هـ/ ١١٩٨- ١١٩٩م. وبذلك يقول البغدادي "**كثير مما زرع أكلته الدودة وكثير مما سلم منها ضوى وعطب**"[٨]. ونتيجة لتلك الأزمات التي تعرضت لها القاهرة، والأقاليم مما أدى لتدهور الوضع الاقتصادي في الصناعة والتجارة فلم يجد

(١) ورد ذكر تلك المجاعات والأوبئة من قبل.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص٣٦؛ مجدي عبد الرشيد بحر، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، (تاريخ المصريين، ع١٧٠، الهيئة، القاهرة، ١٩٩٩م)، ص٢١١.
(٣) المقريزي، المصدر السابق، ص٢٤، ٢٥؛ البغدادي، رحلة، ص١٣٨- ١٤٨؛ المقريزي، السلوك، جـ١ ق١، ص١٥٨.
(٤)المقريزي، إغاثة الأمة، ص٢٨-٣١ ؛علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة و مدنها وبلادها القديمة والشهيرة، (جـ٧، ط بولاق، ١٣٠٥هـ، الهيئة، القاهرة، ١٩٨٧ م)، ص٤٨؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٧٦، ١٧٧.
(٥) السيوطي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٦١ ؛ العيني، عقد الجمان، جـ٢، ص٢٥٧.
(٦) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، (تحقيق زبيدة محمد عطا، جـ٩، القاهرة، ب. ت)، ص٢٤٣.
(٧) ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، (تحقيق أولرخ هارمان، جـ٨، القاهرة، ١٩٧١م)، ص٢٣٩.
(٨)النويري، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٣٦٩، ٣٧٠ ؛ المقريزي، السلوك، جـ١ ق١، ص٦٦، ١٩٠ ؛ إغاثة الأمة، ص٢٤، ٢٥ ؛ البغدادي، المصدر السابق، ص١٤٢.

هؤلاء المهاجرون صناعات، أو أعمال يؤدونها وبالتالي أصبحوا عبئاً زائداً على القاهرة[١] فقد كان هبوب الرياح وانتشار الآفات: كالدود كفيلة بأن تقضي على المحاصيل الزراعية لنرجع لنفس النتائج، والتي تصب في نهاية الأمر بضرر الشعب المصري، وخصوصاً الفقراء؛ فتسبب تلك الأسباب أضراراً كثيرة للمحصولات مما يؤدي لقلتها، وارتفاع أسعارها، ولكن لم تكن تلك الأسباب ونتائجها دائمة بل مؤقتة فتزول النتائج بزوال الأسباب (الأزمات)؛ بينما وجدت بعض العوامل الدائمة التي وقعت على كاهل الفلاح.

فقد كان للعربان[٢] دور كبير في خفض الإنتاج الزراعي، وذلك لسطوتهم على القرى، والفلاحين فكانوا يذبحون الفلاحين ذبح المواشي ويستولون على الغلات، والحيوانات، بالإضافة لحقهم في الزواج ممن يشاء من بنات الفلاحين، وإذا اعترض قتل[٣]. فأدى ذلك لتحويل الأرض الزراعية لصحراء جرداء وذلك بسبب هروب الفلاحين من تلك القرى رعباً منهم[٤]. ففي عام ٧٠١هـ/ ١٣٠١م قال فيهم المقريزي: "**تعدى شرهم في قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعايش بسيوط، ... فرائض جبوها**"[٥].

ومن العوامل الأخرى التي أدت إلى هجر الفلاحين لأراضيهم، ما منوا به من كثرة المغارم، والضرائب، كالحمايات المحدثة على الضياع، والبلاد، والقرى، وما يتجدد على الفلاحين من أنواع المغارم في كل وقت وحين، فاختلت أحوالهم: "**فقلت مجابي البلاد، ومتحصلها لقلة ما يزرع بها**"؛ **ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم**"[٦]. فالزراعة "**من أعظم الأسباب وأكثرها أجراً إذ أن خيرها يعود للزراع والمسلمين**"[٧]. وبالإضافة إلى تلك الظروف، التزم الفلاح بتقديم الهدايا، والقيام بواجب الضيافة للأمراء المقطعين وأتباعهم، مثل: الغنم والدجاج، وغير ذلك. بالإضافة لرسوم الجراريف للإنفاق على إصلاح الجسور، والقنوات، ورسم الخفارة، وغيرها[٨]، وما يدفع للتقاوي

---

(١) محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص١٦٤ .
(٢) العرب هم جماعات كثيرة وشعوب وقبائل لكنهم على كثرة أموالهم واتساع نطاق جماعاتهم، ليسوا عند السلطان في الذروة، وهم أهل زرع، انظر العمري، التعريف بالمصطلح الشريف ، (تحقيق سمير الدروي، ط أولى، منشورات جامعة مؤتة، الكرك- الأردن، ١٩٩٢م) ، ص ١٠٠ .
(٣) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص٥٤ ،٥٥ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص٥٢- ٥٤؛ شلبي الجعيدي ، طبقة العامة في مصر ، ص٩١.
(٤) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ ، ص٧٧٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق، ص٥٠ ،٥١ .
(٥) المقريزي ، المصدر السابق، جـ١ ق٣ ، ص٩٢٠ .
(٦) الأسدي ، التيسير والاعتبار ، ص١٣٥ ؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص٣٩؛ الشربينى،هز القحوف،ص١٤٣.
(٧) ابن الحاج ، المدخل الي الشرع الشريف ، (ط أولى ، جـ٤ ، ط الأزهر ، القاهرة ، ١٩٢٩م) ، ص٣.
(٨)المقريزي ، الخطط ، جـ١ ، ص١٦٦؛ القلقشندى،صبح الأعشى،ج١٣،ص١١٥-١١٧؛ عادل سليمان زيتون ، ملامح من تاريخ الفلاح ، (المجلد الثاني، دار البعث، سوريا ، ب. ت) ، ص٥١٧ .

السلطانية، وأخذ عشر ما تبقى للفلاح من الغلال[١]. بالإضافة إلى الجسور البلدية وتوزع نفقات إقامتها على الأفراد المنتفعين بها من الفلاحين "**فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها**" وضريبة السدود والحواجز المائية لإنعاش مشاريع الري حتى أصبحت الديون تتراكم على الفلاح من كل جهة[٢]. وفي حقيقة الأمر إننا لا نقصد رصد هذه الضرائب، إنما الغرض هو إيضاح أحد وجوه المظالم التي أدت لهجرة الفلاحين لأراضيهم، وما يترتب على ذلك من آثار سلبية كإهمال الزراعة، وبالتالي تقلص مساحات الأراضي الزراعية مما يؤثر على الاقتصاد بشكل عام للدولة؛ وبالتالي أول من يشعر بذلك التأثر هم العامة، وبالأخص الفقراء منهم.

ومن ضمن العوامل التي تؤثر في خراب واضمحلال القرى، انقطاع مياه الري عن الوصول للقرى، وغرق المساكن لارتفاع الفيضان، أو قطع جسور النيل، وتسلط الرمال على أرض القرى المجاورة للصحاري نتيجة الرياح والأوبئة التي تفتك بسكان القرية وظلم المقطعين والملتزمين وجورهم على محاصيل القرية الزراعية بالإضافة للضرائب الهائلة وتكليف الأهالي بأعمال السخرة في حفر الترع وإقامة الجسور أو هدم المدن والقرى أو إحراقها لدوافع حربية كما أحرق شاور الفسطاط عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م[٣]، مما أدى لانخفاض عدد القرى إلى ٢١٦٣ قرية عام ٧١٥هـ/ ١٣١٠م، بينما في عهد ابن الرفاعة[٤] بلغت عشرة آلاف قرية مما يدل على الآثار السلبية نتيجة الهجرة، والظلم والأزمات[٥]. بالإضافة إلى إهمال وسائل الري من جسور وترع[٦]، وغيرها، وارتفاع الأراضي الزراعية عن منسوب مياه النهر بدرجة كبيرة، جعل المساحة التي تروى من مياه الفيضان، تقل تدريجياً، وذلك نتيجة لفساد الجهاز الإداري لكثرة الفتن والاضطرابات السياسية ومن ناحية أخرى، فإن توزيع إقطاعات الأمراء في أنحاء مختلفة من البلاد، ثم تغييرها المستمر مع تغير وظائف الأمراء جعلهم يحرصون على أن يجنوا منها أكبر قدر ممكن من الأرباح دون أن يبذلوا

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٣، ص١١٦،١١٧؛ عادل سليمان، ملامح من تاريخ الفلاح، ص٥١٦ ،٥١٧؛ ابراهيم علي طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ،(النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠م) ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .
(٢)المقريزي ، الخطط ، جـ١ ، ص١٦٢ ، ١٦٣ ؛ بولياك (أ .ن . بولياك)، الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، (نقله عاطف كرم، ط ٢، دار المكشوف، بيروت – لبنان ، ١٩٤٨م)، ص١٨٤ – ١٨٧ .
(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٠؛ المقريزي، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣؛ محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م ، (المجلد الأول، القسم الأول، ط. الثالثة، البلاد المندرسة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م) ، ص ١٢- ١٤ .
(٤) ابن الرفاعة: هو عبد الملك بن رفاعة عامل الخراج في مصر في مهد خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي وأخيه سليمان وهو أول من راك (مسح) الأراضي عام ٩٧هـ/ ٧١٥م، انظر علي إبراهيم حسن، (دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصربوجه خاص، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٤م)، ص ٣٤١ .
(٥) شرف الدين يحيي بن الجيعان ، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، (تحقيق مورتز ، القاهرة ، ١٩٧٤م) ص٣.
(٦) تم ذكرها سابقا في ص ١٠، ١١ بنفس الفصل

جهداً يذكر لتحسين إنتاجيتها أو رعايتها، وهو ما أدى في النهاية إلى الكثير من حوادث انقطاع الجسور، وعطش الأراضي وبوار مساحات كبيرة منها[١].

فأرض مصر تنتج أهم ما يستهلكه المواطنون، فإذا ساءت حالها بسبب من الأسباب أو تعرضت مصر لهزات اقتصادية كبيرة، هددت موارد الحكومة، ورجالها المعتمدين على الزراعة، حينئذ تبحث الدولة عن موارد أخرى للوفاء بمتطلباتها خاصة بعد أن أصبح النظام الإقطاعي عاجزاً عن أداء المهمة التاريخية والاقتصادية، وبالتالي عملت الدولة على زيادة الأعباء الملقاة على موارد الثروة القومية السائلة وأهمها التجارة، وذلك في محاولة من الدولة لموازنة ضعف إنتاجها الزراعي وفشل الإقطاع[٢]. بالإضافة لذلك، عاش الفلاح مربوطاً لتلك الأرض التي أقيم فيها ومن ولد له كذلك[٣]، فقد ارتبط الفلاح بالنيل بشكل جذري فإذا جف النيل أصبح الفلاح غير قادر على العمل فقد عاش في فقر وحرمان يفنى حياته في خدمة الأرض دون الاستمتاع بخيراتها لتعسف الحكام[٤] فقد قال ابن خلدون عن الفلاحة "**معاش المستضعفين وتختص أهلها بالذلة**"[٥].

لنخرج من أسباب الهجرة برؤية هامة جداً: أن الفلاح المصري بطبيعته كان من الصعب عليه ترك أرضه وهجرها، بما يدل أن هجرته من الريف للمدن يوحي بمدى قسوة الظروف الطبيعية والبشرية التي تعرض لها دون عناية من السلطة الحاكمة، لا سيما عصور الحكام الأقوياء أمثال صلاح الدين، وبيبرس، وقلاوون؛ لتكون هجرته أملاً في وجود حياة أفضل بالمدن وبالأخص العاصمة المزدهرة اقتصادياً كما يسمع، ويتمنى.

فقد كان الفلاح مرادفاً للشخص المغلوب على أمره، كما وصفته المصادر المعاصرة بالجهل وخشونة الطبع، فقد كان فقره يزداد عندما يعجز عن الزراعة، فتنهار قوائم الحياة في البلاد وذلك لكثرة المغارم التي كبلته من كل جانب[٦]. وخلاصة الأمر، أن مما لا شك فيه انهيار العديد من الحرف على إثر تلك الأزمات التي سبق ذكرها، ففي أثناء مجاعة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م أشار البغدادي أن "**بمصر تسعمائة منسج للحصر فلم يبق منهم إلا خمسة عشر منسجاً وقس على هذا ... من باعة، وخبازين، وعطارين، وأساكفة، وخياطين، وغير ذلك**"[٧] في حين ظل الحكام يستوردون

(١) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص١٧٦ ، ١٧٧ ؛ النيل ، ص١٨ ، ١٩ .
(٢) البيومي إسماعيل ، مصادرة الأملاك ، جـ١ ، ص ٢٩٤ .
(٣) المقريزي ، الخطط ، جـ١ ، ص١٣٨ ؛ الشربينى،هزالقحوف، ص٦
(٤)البغدادي ، رحلة ،ص٢٥؛ عبد الرحمن الرافعي ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر في العصور الوسطي من الفتح العربي حتي الغزو العثماني ، (ط أولى ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠م) ، ص٥٤٠ .
(٥) ابن خلدون، المقدمة ،ص٤٤١ ؛ تاريخ ابن خلدون،ج١،ص٣٢٩.
(٦) الشربيني، المصدر السابق، ص ١١٦، ١١٨، ١٢٦- ١٢٩، ١٤١، ١٤٣.
(٧) البغدادي، المصدر السابق، ص ١٤٣ .

احتياجاتهم من الخارج مقابل العملات الذهبية، مما أدى لاستنزاف رصيد البلاد من الذهب، والفضة فلجأت الحكومة لتعويض ذلك باحتكار بعض السلع، فافتقر السوق واندثرت العديد من المهن، وفسحت المجال للذعر والشطار لممارسة هوايتهم في السلب[١].

وهنا ينبغي أن ننبه إلى أن الأسباب كانت أيضاً نتائج لأسباب وعوامل أخرى، مما يجعل الأسباب والنتائج تتشابك في بعضها البعض بحيث يتعذر الفصل بينهما. إلا أن التدهور الاقتصادي بات واضحاً تمام الوضوح في قصور الإنتاج الزراعي عن الوفاء بحاجة البلاد من ناحية، وفي كثرة إختفاء الخبز والقمح بشكل كاد أن يكون سنوياً من ناحية أخرى. كما تجلى هذا التدهور الاقتصادي في انخفاض الإنتاج الصناعي بشكل ملحوظ. وتقلص النشاط التجاري الداخلي وانكمشت الأسواق تبعاً لذلك، فضلاً عن انهيار النظام النقدي[٢]. ويسبب ذلك كثيراً من الفتن والاضطرابات، ويفقد الحكام سيطرتهم على مقاليد الأمور حتى تصير الدولة عبئاً يتهرب الجميع من تبعاته[٣].

فقد كان عدم مراعاة الحكام لحاجة الناس في أثناء الأزمات والكوارث الطبيعية، يشعر فئات الشعب وخصوصاً المحتاجين منهم بالقهر، وخيبة الأمل، مما دفع الناس للتعبير عن سخطهم وغضبهم بشتى السبل كمظاهرات الشوارع التي كانت تقع في حالة ندرة الموارد الغذائية أو المجاعة وإن كان ذلك الاحتجاج لم يتضمن موقفاً فكرياً بل كان مجرد صياح للجوعى[٤]، مثلما حدث في مجاعة ٦٩٤- ٦٩٥هـ/ ١٢٩٤- ١٢٩٥م وفي عهد السلطان العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤- ١٢٩٦م) ووقوع الغلاء، حيث ربط الناس بين هذا الغلاء، وتوليته الحكم، فكرهه الشعب بسبب ذلك[٥]. وقس على ذلك، ما يسمى بالمقاومة البيضاء أو الناعمة: وهي المقاومة اللسانية، أو القولية والتي تمثلت في الشعر المصري أو قيام العامة بالخروج للاستسقاء، وقراءة القرآن، والأحاديث، إذا بخل النيل بمائه[٦]. بالإضافة لذلك وجد ما يسمى بالمقاومة الفعلية والتي سيأتي ذكرها بالفصل الرابع.

---

(١) البيومي إسماعيل ، مصادرة الأملاك، ج١، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٢) قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص١٧٦ .

(٣) نفسه، ص١٧٧ بتصرف.

(٤)لبيبة ابراهيم مصطفي ، الفتن والقلاقل الداخلية في دولة سلاطين المماليك ، (رسالة دكتوراة ، غير منشورة ، آداب القاهرة ، ٢٠٠٠م) ، ص١٠٩ ؛ نيللي حنا ، ثقافة الطبقة الوسطي في مصر العثمانية ، (تحقيق رءوف عباس ، الأسرة، القاهرة ، ٢٠٠٤م) ، ص ٢٢١.

(٥) المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص٢٣-٣٠ ؛ السلوك ، جـ١ ف ٣، ص ٨٠٨-٨١٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص١٣٣ ؛ عثمان محمد عطا ، الأزمات الاقتصادية ، ص٢٠٧ .

(٦)حسين نصار ، الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ، (ط٢، التراث ، ع ٧٠ ، الهيئة ، القاهرة ، ٢٠٠٢م) ، ص٨٩ ؛ محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، (أعلام العرب ، ع٢٨ ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٦٤م) ، ص٢٠.

وبجانب العوامل سابقة الذكر التي ساعدت على الفقر، وجد عامل آخر ألا وهو **انعدام الأمن**، فيصف لنا السبكي ما يفعله رجال السلطة بقوله: "**إنك ترتكب ما نهى الله عنه وتترك ما أمر به، ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا، ليقال هذا جامع فلان** ...."[١] ومثال لذلك ما حدث عام ٥١٦هـ/١١٢٢م، حيث استخدم ذخيرة الملك جعفر[٢] في ولاية القاهرة والحسبة بسجل أنشأه ابن الصيرفي وجرى من عسفه وظلمه ما هو مشهور فقد بنى مسجداً ما بين الباب الجديد إلى الجبل الذي هو به معروف وسمي "**مسجد لا بالله**" بحكم أنه كان يقبض الناس من الطريق ويقولون له: لا بالله فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة ولم يعمل فيه منذ أنشأه إلا صانع مكره أو فاعل مقيد[٣]. وقد كان ذلك في عهد الآمر فقد كان "**فاسقاً ظالماً ... ذا كبر وجبروت**"[٤].

ويظهر انعدام الأمن في الاحتفال بيوم عاشوراء[٥] "**حيث يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق**"[٦]، فقد كان وبالاً على الشعب المصري، وكان الجنود المغاربة يوجهون السباب إلى من يتجرأ على فتح حانوته، وممارسة العمل مع الناس، فمنعوا التجار وأصحاب الحوانيت عن ممارسة نشاطهم، مما أدى للاشتباكات بين الجنود، وأصحاب الحوانيت[٧]. يظهر لنا من خلال شدة الاشتباكات وتعطيل السوق التجاري في هذا اليوم، أنه بالنسبة للفاطميين هو أمر لا جدال فيه . في حين أن الناس لا تهتم بهذا اليوم؛ بالإضافة لذلك رغبة الفاطميين محاولة إقناعهم بالمذهب الشيعي عن طريق إقامة العديد من الاحتفالات الخاصة بهم على مدار السنة دون النظر إلى ما يسببه ذلك من ضرر لفئات المجتمع المصري.

وفي منتصف القرن السادس الهجري عندما تولى شاور الوزارة (٢٢ من المحرم ٥٥٨/ رمضان ٥٥٨هـ) برغبة العاضد (٥٥٥- ٥٦٧هـ/ ١١٦٠- ١١٧٢م) بعد قتله للوزير رزيك بن طلائع عام ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م أساء السيرة في الرعية[٨]، وقد أعاد نفس الأمر عندما عاد من حصار الإسكندرية، فقد أكثر من سفك الدماء بغير حق وكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان بدار الوزارة، ثم تسحب القتلى خارج الدار[٩]. وربما وصل شاور لهذه القوة استناداً لسلطته أو بدء

---

(١) السبكي ، معيد النعم ، ص٢٠ .
(٢) ذخيرة الملك جعفر: ابتدع في عذاب الجناة وخرج عن حكم الدين الإسلامي فابتلي بالأمراض الخارجة عن المعتاد ومات بعد ما عجل الله له وتجنب الناس الصلاة عليه لشدة ظلمه، انظر المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢٦٨.
(٣) نفسه، ص٢٦٧ ؛ ابن المأمون ، أخبار مصر ، ص٤٧.
(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص١٧٠ .
(٥) هو يوم عزاء وحزن علي الحسين بن علي لأنه قتل فيه ، انظر المقريزي ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٣٨٥.
(٦) نفسه، ص٣٨٥ .
(٧) جمال الدين الشبال ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، (ط أولى، الثقافية الدينية ، بورسعيد ، ٢٠٠٠م) ، ص٨٥ ،٨٦؛ عبد المنعم سلطان ، المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، (المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥م) ، ص١٥٥ .
(٨) ابن تغري بردي ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٤٦ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ، جـ٥ ، ص ٢٤٦ .
(٩) عمارة اليمني ، النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ، (نشرة هرتويغ درنبرغ ، ط مرسو ، مدينة شالون ، ١٨٩٧م) ، ص٨٧ .

غروب شمس الفاطميين، ومن ناحية أخرى ضعف الخليفة العاضد، وشعور العاضد نفسه بأن شاور يفعل ما يبقيه على عرش الخلافة بما يعني أن الخلافة في ذلك الوقت كانت اسمية.

وقد ظهر انعدام الأمن في الخطاب الذي أرسله الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله إلى صلاح الدين الأيوبي، وذلك بأن يمحي الظلمات التي وقعت على كأهل الشعب المصري من قبل الفاطميين وسموها حقوقاً كالمكوس مثلا، وقس على ذلك غيرها من المظالم والرسوم(١). ومع ذلك كان رجال الأمن في عهده يعترضون طريق الحجاج والمسافرين بأخميم وقوص وذلك "**من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وإدخال الأيدي إلى أوساط التجار**" بحثاً عما احتضنوه من دراهم أو دنانير غير ما يتعرض له الحجاج من مواقف الخزي الأخرى(٢). في حين علم حجاج الركب المصري بتربص الأعراب لهم، فغيروا طريقهم وذلك في عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م. وفي عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م، اعتدى الأعراب على ركب الحجاج المصري، وقطعوا الطريق، وسلبوا المتاع، والأموال(٣).

في حين أتم أسد الدين قراقوش بناء القلعة في عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م وقد استخدم أسرى الحرب وعدداً غير محدد من الفلاحين الذين سخروا لهذا الغرض للحصول على أيدي عاملة مجانية. وفي شوال عام ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م، "**كثر القتل بالقاهرة بأيدي السكارى ... حتى خطفت الأمتعة والمآكل من الأسواق ... وفي ذي القعدة كثر وثوب السكارى بمن يلقونه ليلاً وضربهم إياه بالسكاكين فلا تخلو ليلة من قتيل أو قتيلين ... ولا تمكن والى القاهرة من منعهم**"(٤) وعندما وقع الغلاء في عهد العزيز عثمان بسبب توقف النيل فندرت الغلال، واضطربت أحوال مصر من قلة العدل وكثرة المعاصي والفسوق، لإباحته من المنكرات وحمل أواني الخمر جهراً من غير إنكار، وحميت بيوت المزارة، وأماكن الحشيش بل وأخذت الضرائب عليها(٥)، وقد أخذ في عهده من رجل فقير يبيع الملح في قفة على رأسه زكاة عما في القفة(٦)، وعندما استكثر الصالح من شراء المماليك

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٢٤-٢٦.
(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، (ضبطه محمد زينهم محمد عزب، ذخائر العرب، ع ٧٧، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠م) ، ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٣)الجزيري الانصاري ، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة ، (المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ) ، ص٢٦١ ، ٢٦٣ .
(٤)المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق ١ ، ص١٣٧ ، ١٣٨ ؛ اولج فولكف ، القاهرة (مدينة ألف ليلة وليلة) ، (ترجمة أحمد صليحة ، الهيئة ، ١٩٨٦م) ، ص٨٣ .
(٥) المقريزي ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١١٩ ؛ إبن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٦) المقريزي ، الخطط ، جـ١ ، ص١٧٥ .

عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، وصاروا يشوشون على الناس، وينهبون بضائعهم، وبعلم الصالح ذلك "**بني لهم قلعة في الروضة ... لا يخالطون الناس بالمدينة**"[١].

وفي عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠ كثر ضرر رجال السلطة بمصر على الناس فقتلوا ونهبوا الأموال وسبوا الحريم، وزاد فسادهم بالعباد[٢]. وفي عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م كثر الظلم وعظم الجور والمصادرات حتى أخذوا مال الأوقاف والأيتام على نية القرض، ومن أرباب الصنائع كالأطباء[٣]. وفي عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م استفحل أمر الفارس أقطاي، وكانت أصحابه تأخذ أموال الناس ونساءهم وأولادهم "**فلا يقدر أحد على منعهم وكانوا يدخلون الحمامات ويأخذون النساء منها غصباً وكثر ضررهم**" بالإضافة لذلك كان المعز أيبك يحصل الأموال بشتى الطرق[٤] بتعيينه القاضي الأسعد شرف الدين بن صاعد الفائزي وزيراً، فكان يتحصل أموالاً من كل فئات المجتمع، وعدة أنواع من المظالم. وعلى حد قول السبكي: فليس لرجال السلطة من "**كبس بيوت الناس بمجرد القيل والقال ... من إخراج القوم من بيوتهم وإرعابهم وإزعاجهم وهيتكتهم**"[٥] ونلاحظ أنه في حالة انعدام الأمن والثوارث نجد أحياناً تدخل السلطة الحاكمة بشكل مباشر، ذلك ربما خوفاً من تطور الأمر، وتهديد عرش الحاكم، ومن جهة أخرى حتى يكون ذلك رسالة للأطراف المناوئة للسلطة برغبة إظهار قوة وبطش السلطة الحاكمة.

ففي عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، طاف بيبرس بالقاهرة متنكراً ليعرف أحوال رعيته، ورأى بعض المقدمين قد عروا امرأة سروالها بيدهم، ولم يستطع أحد فعل شيء، ففي **الصباح** "**قطع أيدي جماعة من نواب الولاة، والمقدمين، والخفراء، وأصحاب الرباع بالقاهرة**" فعمل على الإطلاع على أحوال أمرائه وأعيان دولته فيعلم كل صغيرة وكبيرة وجعل العيون له على من يشك في أفعاله ليتقي شره البلاد والعباد[٦]. وفي عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م ظهر بالقاهرة ومصر رجلان من رجال الأمير جمال الدين أقوش، وأفسدا فساداً كثيراً وشغفا بشرب الخمر وصارا يكتبان الأوراق للأعيان بطلب شيء من إحسانهم، ويوصلونها إليهم، وإلا أتوه ليلاً، ولا يستطيع أحد إيقاف شناعتهم، واستمر الحال حتى قبض عليهم، وطلع بهما الوالي إلى السلطان الذي أمر بتسميرهما عند باب زويلة[٧].

(١) المقريزي، السلوك، جـ ١ ق ٢ ، ص٣٣٩ ؛ إبن إياس ، بدائع الزهور، ج١، ص ٨٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزهراء، جـ٦ ، ص٣٤١ ؛ السيوطي، النيل وجزيرة الروضة، ص ٨٥ .
(٢) المقريزي ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٨٠ ؛ الخطط ، جـ٣ ، ص٣٨٦ .
(٣) ابن تغري بردي ، المصدر السابق، جـ٧ ، ص٢٣ .
(٤) المقريزي ، السلوك،ج١ق٢، ص٣٨٩ ، ٣٩٠ ؛ بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٣٤ .
(٥) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٠٤؛ السبكي ، معيد النعم ، ص٤٣، ٤٤ .
(٦) المقريزي ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٥١٤ ؛ عز الدين ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣١١، ٣١٤ .
(٧) المقريزي ، المصدر السابق، جـ١ ق ٣ ، ص٦٧٢ ، ٦٧٣ .

وعلى أية حال فإن كثيراً من حكام القرنين السادس والسابع الهجريين كانوا حريصين على نشر الأمن في البلاد، ورغم ذلك كثيراً ما قامت الاضطرابات في البلاد، وانتشر في الطرقات والأسواق غوغاء قاموا بنهب الحوانيت وخطف العمائم، بل يهجمون على النساء في بيوتهن، وفي الحمامات فيخطفوهن، وفي هذه الأحوال لم يغلق التجار حوانيتهم ويسرعون إلى منازلهم، وربما استمر الحال أسبوعاً يقاسى الناس طواله أنواع الجوع والفوضى والفزع(١).

ونظراً لتعدد نفقات رجال السلطة الحاكمة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين- الثاني والثالث عشر الميلاديين: ظهر ما يسمى بالفساد الإداري للصرف على تلك الجهات الأخرى (المصروفات)؛ مما كان له أكبر الأثر على العامة والفقراء خلال هذين القرنيين.

فيرى المقريزي أن انهيار الدولة وضعفها يرجع لأسباب من ضمنها أصل الفساد الذي وصفه بالرشوة، وذلك عن طريق "**ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة: كالوزارة، والقضاء، ونيابة الأقاليم، وولاية الحسبة وسائر الأعمال بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل فتخطي لأجل ذلك كل جاهل، ومفسد، وظالم، وبالغ**" ومن يدفع الرشاوي لأجل منصب تتكاثر عليه الديون ولاسترداد ما دفعه يكون زيادة الضرائب على أعوانه، وحواشيه مما يجعلهم يمدوا أيديهم إلى أموال الرعايا(٢).

وخلال القرنين السادس و السابع الهجريين وجدت حالات تثبت بما لا يقبل الشك أن الرشوة كانت متفشية بين أفراد السلطة الحاكمة، والجهاز الإداري، فيشير المقريزي في ولاية طلائع بن رزيك للوزارة (١٩ ربيع الأول ٥٤٩-١٩رمضان ٥٥٦هـ) عهدالخليفة العاضد بالله، أنه رغم اتصافه بالكرم، والحفاظ علي الصلوات إلا أنه مع ذلك "**باع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة وجعل مدة كل مستول ستة أشهر**" فتضرر الناس لكثرة تردد الولاية بالبلاد(٣).

وقد عزل السلطان الكامل بن العادل الأيوبي من الوزارة ابن شكر عندما ظلم، وأحدث حوادث كثيرة، وحصل مالاً جماً. ومن المعروف أن سياسة البذل التي دأب عليها العادل الصغير بنصيحة أمه أفلست الخزانة ففرض الضرائب، كما استغلت أم العادل نفوذها في ملء مناصب الدولة لمن يدفع رشوة أكبر فضاعت الحقوق واختل ميزان العدل(٤). كما اتهمت المصادر بدر الدين السنجارى الذي وزر لسيف الدين قطز بالظلم وتناوله الرشوة(٥).

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص٨٩ .
(٢) المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص٣٨،٣٩
(٣) المقريزي ، الخطط ، جـ٤ ، ص٨٢ .
(٤)عبد الرحمن الرافعي ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر في العصور الوسطي ، ص٤٠٩ ؛ عباس حلمي ، السياسة الداخلية في الدولة الأيوبية بعد العادل ، ص٧٣-٨٧ .
(٥) المقريزي ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص٣٨٦ .

ويبدو أن زمن العادل كتبغا كان من أسوأ الظروف التي يمكن أن تمر على حاكم ففي ذلك العهد أكثر الوزير فخر الدين عمر بن عبد العزيز بن الخليلي من المظالم، وجاءت حاشية السلطان ومماليكه على الناس، وطمعوا في أخذ الأموال والبراطيل(١) والحمايات(٢). ويعتبر من ضمن أسباب موت السلطان حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ / ١٢٩٦-١٢٩٨م) هي انتشار الوساطات علي أيامه؛ مما أثار حقد الأمراء عليه فقتلوه، وقد كان نواب السلطة لهم نصيب في ذلك العهد لقدرتهم علي قضاء حوائج الناس مقابل الهدايا والتحف التي كانت تنهال على بعضهم(٣)، ومثال ذلك: الأمير سلار نائب السلطة عهد الناصر محمد. فقد كان حتى عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م أميراً فقيراً، وتوفي عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م ومع ذلك في ست سنوات فقط كان يتمتع بالثراء الفاحش.(٤)

فقد جمع العديد من الكنوز ومن ضمنها "**ياقوت أحمر، وفصوص زمرد، وفصوص الماس**" وغير ذلك من صناديق الذهب العيني، والفضة، والخيول، والجمال، والضياع(٥)، وعندما واجهه الناصر بأفعاله لم ينكر، فأمر بسجنه، وعندما اشتد الجوع عليه بعث له ثلاثة أطباق ذهب، وفضة، ولؤلؤ، فاشتد غم سلار ومات(٦) ؛ فقد جمع تلك الأموال عندما توجه الناصر إلى الكرك لوجود مفاتيح بيت المال بيد سلار ليرجع كل شيء لأصله بعد موته(٧). وقد طرح ابن إياس سؤالاً ألا وهو: كيف جمع تلك الأموال في مده نيابته في إحدى عشرة سنة؟ وأجاب إما انه ظفر بكنز من كنوز القدماء، أو أخذ هذه الأموال ، والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه الناصر إلي الكرك ، وقد كانت مفاتيح المال بيد سلار ، ولا يمكن منها الملك الناصر بشيء(٨)، فقد أجاب ابن إياس على هذا السؤال بقوله : إن الولاة، والأمراء وصلوا إلى مراكزهم عن طريق الرشوة، ونظرا لأن سلار نائب السلطنة، وذا نفوذ

(١) البراطيل : هي الأموال التي تؤخذ من ولاه البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها وأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك في ولاه النواحي فقط، ثم بطل وعمل في أيام العزيز بن صلاح الدين الأيوبي؛ المقريزي، الخطط، جـ١، ص١٧٩.
(٢) المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص٣١ ، ٣٢ .
(٣)المقريزي، الخطط ، جـ٣ ، ص ٣٨٩ ؛ بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١٥٣، ١٥٤؛ أحمد مختار العبادي، في التاريخ الأيوبي و المملوكي ، (مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ، ١٩٩٢م)، ص٢٥٠ ؛ أحمدعبد الرازق ، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ،(الهيئة ، القاهرة ، ١٩٧٩ م) ، ص٤٣،٤٤.
(٤) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ٢١٤ ؛ محمد عبد الغني الاشقر ، سلار الأمير التتر المسلم نائب السلطنة المملوكية في مصر (٦٦٠-٧١٠هـ/ ١٢٦٠- ١٣١٠م)، (ط أولى ، صفحات في تاريخ مصر ،ع٤٢، القاهرة، ٢٠٠٠م) ، ص ٥٣.
(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ،جـ١،ص ١٥٥، ١٥٦.
(٦) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ٢١٤؛ محمد عبد الغني الأشقر ، المرجع السابق، ص٦٦ .
(7) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ٢١٤؛ ابن إياس ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٥٦.
(٨) ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٥٦.

وسلطه فقد استطاع جمع تلك الأموال خلال مدة قصيرة في عصر انتشر فيه الفساد الإداري المتمثل في الرشوة، فليس هناك أدني شك في أن جزءا من ثروته كان عن طريق الرشوة بتولية الولايات للغير .

وقد شاعت تلك السياسة في الوظائف الدينية بمختلف أشكالها ، فقد اتجه العادل الصغير إلى كيرلس الثالث بطرك الأقباط ليأخذ منه بعض المال، فأعطاه مبلغا كبيرا ليضمن بقاءه في البطركية[١]. وقد أشار أحد الفقهاء لخطورة تولية المناصب بالرشوة ، ويقصد القضاء حيث صار يطلبها من ليس فيه أهلية لها ، وصارت التولية لمن لا يستحقها لعدم معرفته بالأحكام ، ولذا ضاعت أمور المسلمين لدخول الأموال في توليتها لمن لا يستحق. فقد ولي القاضي بدر الدين الكردى المتوفى عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م قضاء القضاة بالديار المصرية مراراً ، وأخذ الرشا من قضاة الأطراف والشهود، والمتحاكمين[٢]. وعندما استقل الملك المعز أيبك بمملكة مصر في عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م استوزر رجلا في نظار الدواوين يعرف بشرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى[٣] وكان قبطيا وأسلم في عهد الملك الكامل " **فقرر في وزارته أموالا على التجار ، وذوي اليسار ، وأرباب العقار ، ورتب مكوسا ، وضمانات سموها حقوقا ومعاملات** "[٤].

ومن ذلك تولية المدارس فقد أنشأ علاء الدين أقبغا استادار[٥] الناصر محمد المدرسة الأقبغاوية و جمع الفقهاء ، و القضاة ، وكان الشريف شرف الدين بن علي شهاب الدين محتسب القاهرة يأمل في أن يكون مدرسها فعمل بسطا لها بلغ ستة آلاف درهم فضة ورشاه بها ، ولكن الأمير عرف ذلك فلم يول أحدا[٦]. وقد كانت الحسبة من الوظائف التي لا تقل أهمية عن القضاء فقد تغاضى بعض أصحاب الحسبة عن الباعة الذين يغشون الناس ، وذلك نظير ضرائب مقررة يجمعها المحتسب ؛ لكي يؤدي منها ما استدانه من المال الذي دفعه كرشوة عند ولايته ، ويؤخر البقية لمهاداة

(١) عباس حلمي ، السياسة الداخلية بعد العادل ، ص٨٤-٨٧ .
(٢)ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢،ص١٥٧-١٥٩ ؛ أحمد عبد الرزاق، البذل والبرطلة، ص ٢٥.
(٣) من شدة المظالم التي حدثت منه ومن المماليك البحرية ، فخرج المعز بهم في المحرم عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م ونزل بالصالحية واقام بها نحو سنتين وقد أحدث الوزير الأسعد مظالم لم تعهد بمصر من قبله وقد قيل عن المعز أنه كان ظلوما غشوما سفاكا للدماء أفني عوالم كثيرة بغير ذنب ، وربما ذلك لوزيرة الأسعد هبة الله الذي أحدث مكوسا سماها الحقوق السلطانية ؛ المقريزي ، الخطط ،جـ٣،ص٣٨٦ .
(٤) نفسه، جـ١،ص١٧٠ .
(٥) استادار: هو لقب مركب من لفظين فارسيتين، إحداهما "استدر" ومعناها: "الأخذ"، والثانية "دار" ومعناها "المماليك". والمعنى "المتولى للأخذ"، سمى ذلك لأنه يتولى بقبض المال. انظر الأسدى، التيسير والاعتبار، ص ١٨٢.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، جـ٤، ص٢٢٥،٢٢٤ .

أتباع السلطان لضمان بقائه[١] ؛مما أدى لزيادة وطأة الظلم على الناس وبذلك صار المحتسب يأخذ أجرا محددا على نسبة المبيعات[٢].

وقد كان تحديد المبالغ المطلوبة لتلك الوظائف يخضع لسياسة العرض والطلب ويميل الحاكم لمن يبذل أكثر لحاجته المستمرة للمال[٣] ، ولم تكن تلك الظاهرة متوقفة على عصر بعينه مع تعدد أشكالها. فقد كان لموجات المجاعات و الأوبئة و القحط والغلاء بالإضافة لظلم وقهر السلطة الحاكمة على الشعب المصري أحيانا أكبر الأثر على تدهور الحياة الاقتصادية ، مما تسبب هذا في انتشار تلك الظاهرة[٤]. وان كانت الرشوة قد تمكنت من رجال الدين ، ومن قبلهم رجال السلطة الحاكمة فلا عجب أن تنتشر بين صغار الموظفين لأنهم مجبرون على ذلك تعويضا لزيادة الضرائب التي فرضت عليهم وإن كنا لا نلتمس العذر لهم .

وهناك نوع آخر من الفساد وهو تلاعب هيئة السلطة الحاكمة من أهل الذمة لصالح بني جنسهم على حساب أصحاب البلاد ففي خلافة الآمر (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠٢-١١٣٠م) عمل علي زيارة رهبان النصارى وأطلق أيديهم في تجديد كنائسهم وإصلاحها[٥]. وفي عهد الحافظ لدين الله (٥٢٤-٥٤٤ هـ / ١١٣٠-١١٤٩م) تبوأ أهل الذمة مكانة مرموقة ، وتكاثرت أعداد الأرمن بفضل بهرام الأرمنى الذي تولى الوزارة فترة (١١جمادى الآخرة٥٢٩- ١١جماد الاول ٥٣١هـ/ مارس ١١٣٤- يناير ١١٣٦م) ليصل عددهم ثلاثون ألفا واستطالوا على المسلمين ووزع بهرام الولايات والوظائف عليهم وولى أخاه الباسك ولاية قوص في عام ٥٢٩هـ / ١١٣٥م فاستباح أموال الناس ، ولكن أطاح الحافظ ببهرام وعين رضوان بن الولخشي بدلا منه في عام ٥٣١هـ/١١٣٦م[٦]. ويبدو أن استخدام الكثير من أهل الذمة في دواوين الدولة نظرا لما يتمتعون به من خبرة ، ومهارة في الأمور الحسابية ، ومن ثم كان من الصعب الاستغناء عنهم لدرايتهم بشئون الدولة المالية والإدارية خلال القرنين السادس ، و السابع الهجريين ، فاستغلوا نفوذهم لمحاباة ابناء دينهم ، وهذه السيطرة أثرت على خزانة الدولة مع استنزاف أموال الشعب من خلال فرض الضرائب ، وغيرها من الرسوم

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص٢٣٤ .
(٢) سهام مصطفي أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلي نهاية العصر المملوكي ، (الهيئة، القاهرة،١٩٨٦م)، ص٢٤٢.
(٣) أحمد عبد الرازق ، البذل والبرطلة ، ص١٣١ .
(٤) المقريزي ، إغاثة الأمة ،ص١٠-٤٢ ، صفحات متنوعة .
(٥) عبد المنعم سلطان ، المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، ص١٠٦.
(٦) نفسه، ص١٠٦، ١٠٧ ؛ محمد حمدي المناوي ،(الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، المعارف ، القاهرة ، ب.ت) ، ص١٦٧-١٦٩ ؛ سلام شافعي ، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي ، ص٤٩-٥٥ .

بشكل مبالغ فيه كنوع من إظهار الولاء للحاكم من ناحية ، وتكوين الثروات من ناحية أخري ، وظهر ذلك من خلال سيطرتهم على مناصب الدولة.

وقد سلط أبو عثمان النابلسي (ت٦٤١هـ/١٢٣٤- ١٢٤٤م)الضوء على فساد الإدارات المالية فى عهد الكامل- فقد أسند إليه فى عام ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م النظر في دواوين الوجه البحري والقبلي فأشار لخيانة العاملين في الدواوين وكان لتسامح الصالح نجم الدين أيوب معهم أثر بالغ في أفعالهم ، فجمعوا في عهده الثروات بشتي الطرق فقال فيهم النابلسي: "**إن هؤلاء الكتاب النصارى لا يتصور منهم رياسة ولا أمانة فقد أسهموا في فساد الإدارة الحكومية فأفتي بأخذ أموالهم**"[١].

ومن خلال العرض السابق للموارد و المصروفات خلال القرنين السادس و السابع الهجريين الثاني و الثالث عشر الميلاديين – حيث عاصرت تلك الفتره ثلاث دول كبرى لكل منها سياستها وكان نتيجه ذلك :-

أ- رغم عدم وجود إحصاء دقيق لأبواب المصروفات إلا أن الدولة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م) من المؤكد أن حكومتها كانت مسرفة تبدد أموال الدولة في مظاهر الترف وبناء القصور ، و الاحتفالات الكثيرة ، و المقرر من الكسوات و غير ذلك لرجال الدولة[٢]. ولا شك أن تلك الدعاية التي كانت سياستها إظهار البذخ ، وإشباع الجياع من أجل نشر مذهبهم (الشيعي) قد أدت لتبديد أموال الشعب المصري، وكذلك خلو خزانة الدولة أحيانا أخرى، فقد أيقن حكام تلك الفترة أن التحكم في الشعب المصري يبدأ من القاع، وأن نقطة الضعف هى الإكثار من الولائم لإطعام الجياع؛ وخصوصا الفقراء، وربما يرجع عذر الفقراء في الانسياق وراء تلك السياسة إلى تردي الحالة الاقتصادية لهم ، وإقناعهم أن إشباعهم اليوم أفضل من رخائهم بالغد.

ب- وقوع حماية الأمة الإسلامية من الهجمات الصليبية على عاتق الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ /١١٧١-١٢٥٠م)، وترك القضاء عليهم ومهاجمة التتار للدولة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) مما يستلزم الأمر إنفاق أموال طائلة[٣]. فتعتبر الحروب الصليبية من أهم العوامل التي أدت للفقر ، وذلك لاستقطاب أموال الدولة لصالح الحرب على حساب المشاريع

(١) سلام شافعى، أهل الذمة في مصر، ص٤٤-٤٧.
(٢) ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،ج٤،ص٨٥؛ج٥،ص٢٨٤،٢٨٥؛ عطية مصطفي مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، (ط الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ب.ت)، ص١٩٤؛ راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، (ط أولى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨م) ، ص٣٦٧ .
(٣) راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ص٣٦٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، (الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م)، ص١٥٣، ١٥٤ .

الاقتصادية الأخرى ، وما يصاحبها من دمار ، وخراب نتيجة لما يدور من معارك ، وقد تجد تلك الحروب مرعاها أثناء انهيار الأمم مثلما حدث بأفول الخلافة الفاطمية ، فقد قدر لمصر على يد صلاح الدين الأيوبي (٥٧٠-٥٩٠هـ / ١١٧٤-١١٩٣م) مؤسس الدولة الأيوبية – أن تحمل لواء الدفاع عن الأمة الإسلامية ضد الصليبيين ، لتصبح مصر علي مدى قرون عدة محط أنظار الاستعمار سواء كان الغزو عسكريا أم اقتصاديا أم ثقافيا ؛ ومن هنا كان الاستنزاف الدائم لموارد مصر الاقتصادية.

ج- إنفاق أمراء المماليك على عدد كبير من المباني كالمساجد و الجوامع ، وإن كنا نختلق الحجج بشأن المواكب ، والولائم ، والاحتفالات على أساس أنها تظهر هيبة الدولة وناموسها ، وبحجة أنها تشعر الشعب المصري بنوع من هيبة الدولة ، فإننا مع ذلك لا نستطيع اختلاق الحجج في مظاهر الابنية ، والقصور ، وتعددها ، وما يتواجد بداخلها من الثراء الزائد عن الحد في الوقت الذي كانت فيه العديد من العوامل الطبيعية ، و البشرية توقع بالكثير من فئات الشعب المصري في براثن الفقر ، مع عدم الإغفال لوجود العديد من الحكام الذين عملوا بعناية لإعانة المتضررين ومساعدتهم بالإضافة لذلك كان الإكثار من بناء المنشآت الدينية من قبيل التقرب إلى الشعب وإظهار بمظهر التدين على الرغم من أن سلوكياتهم كانت تختلف وتناقض هذا التمسح بالدين، أي كان مجرد خدعة للشعب لإكساب ولائه ورضائه، وربما كانت تلك المنشآت الدينية نوع من محاولة تكفير الذنوب عما بدر من أفعالهم وظلمهم للشعب على مدار حكمهم، وربما استثني من هؤلاء الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) وقلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩- ١٢٩٠م) والناصر محمد (٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٣- ١٢٩٤م)، (٦٩٨- ٧٠٧هـ/ ١٢٩٨- ١٣٠٨م) فقد كان بينهم وبين الشعب المصري نوع من الاحترام و التقدير.

د- استرضاء الأمراء والقواد بالأموال التي كانت تدفعها خزانة الدولة: كاسترضاء صلاح الدين للسلطان محمود نور الدين بالهدايا والمنح، وإقطاعه لأصحابه البلاد، وأبعد أهل مصر وأضعفهم[1]. ومن خلال الضرائب والرسوم العديدة التي فرضت على الشعب المصري بمختلف طبقاته – دون التطرق لها – يتضح لنا أن الرعية كانوا إحدى موارد الدولة ، بل لا نبالغ إن قلنا عصب اقتصادها في أوقات ما تكون الخزانة خاوية ، لتصبح مصر أهم مورد أقتصادي في عهد

(١) ابن شداد، سيرة الناصر صلاح الدين، (ط أولى، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٠م) ، ص ٢٨، ٢١٠، ٢١٢؛ الخطط، ج٢، ص ١٧٥، ج ٣، ص ٣٧٩ .

صلاح الدين الأيوبي خاصة والدولة الأيوبية عامة للصرف على مشروع استرداد الأراضي العربية المحتلة من الاحتلال الصليبي.

هـ- وقد أشار مؤرخنا المقريزي أن من أسباب الغلاء : " **احتكار الدولة الأقوات ومنع الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان** "[1] وفي نهاية الأمر يتضح أن نظام الاحتكار والمصادرة وطرح البضائع قد أثر على خزانة الدولة لوقف النشاط التجاري بشكل ما بينما أثرت المصادرات وطرح البضائع على الشعب المصري بشكل عام مستهلكين أو تجارا ليتضح أن المستفيد من جراء هذا هو السلطة الحاكمة إن جاز القول.

و- وبصفة عامة لقد وجدت عوامل طبيعية متمثلة في تذبذب فيضان النيل ، وما يصاحبه من غلاء، ومجاعة، ووباء، وكذلك الرياح، والفئران التي سرعان ما أثرت على الزراعة، وسببت خسائر فادحة رغم أنها لم تكن بشكل دوري، وبشكل أو بأخر هو ضرر للمجتمع المصري، وبالطبع هي عوامل يصعب التحكم فيها ولكن يمكن تخفيف آثارها: كوجود تعويضات للمتضررين حفاظا على وضعهم الاجتماعي، وحمايتهم من براثن الفقر ووجود مصدات للرياح بالإضافة لبناء السدود؛ وكما وجدت عوامل طبيعية وجدت عوامل أكثر صعوبة وضررا، لأنها بفعل يد بشرية فإن كانت العوامل الطبيعية تحدث بين فترات ما زادت أو قلت وتكون مفاجئة، فإن العوامل البشرية تكاد تكون بشكل دائم ويمكن التنبؤ بها كما يمكن منع وقوعها، وأول المتأثرين بتلك العوامل هم الطبقة الوسطي ، والدنيا من الشعب المصري فمع مرور الوقت يزداد حالهم سوءا، ويندمجون في شريحة الفقراء التي هي أقل شرائح، المجتمع بل يزداد عددهم ويزداد الفرق بين طبقات المجتمع بصفه عامة ، ونظرا لتعدد تلك العوامل حاولنا بقدر الإمكان التركيز على العوامل المؤثرة بشكل مباشر ألا وهي: (إهدار موارد، ورشوة، واحتكار، ومصادرة، وطرح بضائع، وغيرها) .

وفي ظل ما سبق هناك سؤالان يطرحان أنفسهما : وهما هل الفقر حالة مجتمعية أم فردية ؟، إلي جانب هل هو حالة دائمة أم مؤقتة ؟

وبالنسبة للإجابة علي السؤال الأول :-

فقد كان الفقر في تلك الفترة عالميا أو على الأقل شائعا لدى عدد من المجتمعات التي عرفت التقسيم الطبقي ، وعلى أية حال فقد كان الفقر في القاهرة في تلك الفترة مختلفا في عدة وجوه عنه

---

(١) المقريزي ، السلوك، جـ٢ق١،ص٧٤ .

في المجتمعات المعاصرة الأخرى[١] إذا أخذنا في الاعتبار أن الفقر : يعني العوز و الحاجة[٢] فالفقير هو الإنسان المحتاج ، أو من ليس لديه ما يكفيه كما سبق الإشارة[٣] .

ولأن مصر كانت معتمدة في اقتصادها على فيضان نهر النيل، يتضح لنا أن المجتمع فى القاهرة برغم اختلاف طبقاته ما بين الغنية والفقيرة على حد سواء كانوا يعيشون في بعض الأزمات أوقاتا يتشارك فيها المجتمع بجميع طبقاته، وبذلك يصبح في تلك الأوقات الفقر حالة مجتمعية ، وليست فردية ، وقد سبق الإشارة لمثل هذه الأوقات ، وهذا ما يلقي بظلاله على الجزء الثانى : **هل هذه الحالة من الفقر كانت دائمة أم مؤقتة ؟**

فيتضح لنا أنها لم تكن دائمة بل كانت مؤقتة ، فهي تزول بزوال أسبابها حينما يعود فيضان النيل مرة أخرى إلى معدله الطبيعي ، وحينئذ يعود المجتمع في القاهرة إلى حالته الطبيعية وهي الحالة التي تضع أي مجتمع طبقي يحتوي على طبقات غنية ومتوسطة وأخرى فقيرة في وضعها الطبيعي .

فالفقر حالة فردية وليست مجتمعية ولكنها اذا ما أصبحت مجتمعية تكون غير دائمة ، وحينما تعود إلى وضعها الطبيعي وهو الفردية تكون في تلك الحالة دائمة فالفقر كالمرض الوراثي في كثير من الأحيان فإن أصاب فردا لا يستطيع الشفاء منه سواء هو أو عائلته إلا بصعوبة بالغة ، والأصعب إن تحالف الفقر والمرض وظلم السلطة علي إنسان – كل ما يتمناه أن يعيش بأبسط سبل الحياة مع أحقيته بشعوره بالآدمية – أصبح إنسانا معزولا وربما يلجأ لفعل أي شئ للخروج مما هو فيه كالسرقة والثورة، أو غير ذلك من الأساليب التي يمكن أن تحقق ذاته وتعبر عنه بالمجتمع الذي أخضعه للإذلال ، وهذا ما سيأتي ذكره في الفصول القادمة بأمر الله .

---

(١) آدم صبرة ، الفقر والاحسان ، ص٢٧٩ .
(٢) بطرس البستاني ،القطر المحيط ، (جـ٢ ، مكتبة لبنان ، بيروت – لبنان ،نسخة اصلية بطريقة الفوتو أوفست نقلا عن طبعة ١٨٦٩م) ،ص١٦١٣.
(٣) المنجد في اللغة والادب والعلوم، (ط ١٩ ، مطبعة الكاثوليكية، بيروت – لبنان ،١٩٦٦م)، ص٥٩٠ .

الفصل الثاني

الوضع الاجتماعي للفقراء

أولاً: أماكن تجمعات الفقراء:

(بعض الأحياء - المناطق الواقعة بين الفسطاط والقاهرة - شوارع القاهرة - القرافة - الميادين العامة - الأسواق - القياسر والخانات - الأماكن الصوفية).

ثانياً: أسلوب حياة الفقراء (الثقافة المادية للفقراء)

(الطعام والماء - الملابس - السكن - الأجور)

ثالثاً: مكانة الفقراء في البناء الطبقي لمجتمع القاهرة

(نبذة عن صفات المجتمع المصري - تقسيم المجتمع المصري - وضع الفقراء بالمجتمع المصري)

رابعاً: المهاجرون من الداخل ومن الريف

(نبذة عن القاهرة - المهاجرون من الداخل - المهاجرون من الريف)

الوضع الاجتماعي للفقراء

أولاً: أماكن تجمعات الفقراء:

ليس هناك أدنى شك فى أن الفقراء كانوا متواجدين فى أماكن ما بكثرة؛ وبالتالى تركزت فيها نشاطاتهم: كالأسواق، وغيرها. ولكن مع ذلك يصعب إيجاد أحياء معنية بهم وإنما تواجدوا فيها بشكل ملحوظ؛ فقد ضمت جميع الأحياء كل فئات المجتمع المصري ولكن بنسب متفاوتة؛ ومن هنا سنحاول ذكر أماكن تواجد فيها الفقراء بشكل كبير؛ وهى التى كانت مثار تجمعهم، والحديث عنهم مثل "الأحياء الشعبية، الميادين العامة، القياسر، الشوارع، وهذا بخلاف الرباع والأربطة والمقابر وغيرها".

من المعروف أن المجتمعات الإنسانية تتكون بشكل عام من فئات اجتماعية تمتلك كل واحدة منها بعض الخصائص التى تميزها عن الفئات الأخرى. لذا تلعب الأسس الاقتصادية دوراً فى توزيع السكنى فى المدينة، فقد جرى الأخذ بمسألة التوزيع الطبقي بمواضع السكن كما حدث في القاهرة الكبرى في العصر الفاطمي؛ لتصبح القاهرة مدينة ملكية، والفسطاط موضع لإقامة العامة وفي عهد صلاح الدين أبيح سكن القاهرة لعامة الناس[1]. فتعتبر الأحياء السكنية هي القسم الأهم من أقسام المدينة لأنها تعبر من خلال دورها ومنشآتها عن النشاط السكني للبشر القاطنين بها[2]. فالخطط التي كانت بمدينة فسطاط مصر بمنزلة الحارات، فقيل لتلك في مصر خط، وقيل لها في القاهرة حارة[3] ومن تلك النقطة يجب توضيح أهم الحارات التي يقطن بها الكثير من الفقراء.

فتعتبر أهم الحارات التي عرفت بمصر هي حي الحسينية، فقد ابتدئ عملها في عام ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، وقد كتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق على طبقاتهم، وعهد العادل كتبغا قدمت إلى مصر طائفة مغولية فأنزلهم الحي حيث تفاعلوا مع السكان؛ فأثروا فيهم، وتأثروا بهم "**فالحسينية عامرة بالأسواق والدور وسائر شوارعها كاظة بازدحام الناس من الباعة، والمارة، و ....**"[4].

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٤، ٣٥؛ عدنان محمد فايز الحارثي، عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤- ٥٨٩هـ/ ١١٦٨- ١١١٩م)، (زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٤١١- ٤١٣.
(٢) عدنان الحارثى،المرجع السابق، ص٢٦٥
(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٧٦.
(٤) نفسه، ج٣، ص٣٢- ٣٦؛ نظير حسان سعداوى، صور ومظالم من عصور المماليك، (النهضة، القاهرة، ١٩٦٦م)، ص ٣٦- ٣٨.

حي باب اللوق:-

لقد كانت هذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل بعد عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م أرضاً لينة، لتصير هناك رمال وجزائر، حتى جاء عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م رغب الناس في العمارة بديار مصر؛ ولشغف الناصر بها "**نودي في القاهرة ومصر أن لا يتأخر أحد من الناس عن إنشاء عمارة ... إذ صارت بساتين، ومناظر، .... وأسواقاً، وحمامات، وأزقة، وشوارع**"(١). ويشير جومار إلى أن بولاق مدينة أهم من الجيزة، بسبب تجارتها، أو موقعها، أو اتساعها وهذا الحي يجمع أرباب الملاعيب والحرف، كالمشعوذين، والحواة، وغير ذلك، فيجتمع الناس للفرجة والمفاسد(٢).

حي باب البحر:-

لقد كان لنهر النيل دور فعال في نشأة العمران بهذا الموقع فنظراً لطبيعته الساحرة؛ فقد جذب انتباه الخاصة والعامة، فشيد بها المساجد، وانتشرت الأسواق، والوكالات بالمنطقة خاصة خلال القرن السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي، فوجد الصناع والحرفيون في هذا الموقع متنفساً لهم للخروج من ضيق المدينة إلى حيث الاقتراب من المصادر الخام بميناء بولاق(٣).

حي بين القصرين:-

هو أعمر أحياء القاهرة خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، لتواجد الطبقات الشعبية به حيث صار هذا الموقع "**سوقاً مبتذلاً بعد ما كان ملاذاً مبجلاً، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات...**"(٤) وقد قصدته الفئات الفقيرة للاستماع بما يروى من سير شعبية إلى جانب ممارسة بعض أنواع التسلية(٥). وفي أواخر القرن السابع الهجري وجد بعض الأشخاص ذوي الهيئة المضحكة يلقون النوادر، والحكايات الخاصة ببعض الأشخاص نحو قراقوش وغيرها(٦).

(١) الحموي، رحلة الأظعان النجدية إلى الديار المصرية، (تحقيق محمد عدنان البخيت، ط أولى، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ١٩٩٣م) ، ص ٥١، ٥٢؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٢١٢، ٢١٣.
(٢) جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، (ترجمة أيمن فؤاد سيد، ط أولى، الخانكي، القاهرة، ١٩٨٨م)، ص ٣٤٠- ٣٤٢؛ علي مبارك، الخطط، ج٣، ص ٦٤.
(٣) محمد الجهيني، أحياء القاهرة القديمة وآثارها الإسلامية "حي باب البحر" (ط أولى، نهضة الشرق- دار الوفاء، المنصورة، ٢٠٠٠م)، ص ٣١، ٦٨.
(٤) المقريزي، المصدر السابق،نفس الجزء،ص ٤٤؛ علي مبارك، المرجع السابق، ج٢، ص ٩١.
(٥) أبو حامد المقدسي، الفوائد النفسية الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة، (تحقيق آمال العمري، مشروع المائة كتاب، ع ١٠ ، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية ، القاهرة، ١٩٨٨م)، ص ١٣.
(٦) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (تصحيح سالم الكونكوي، ج أول، الجيل، بيروت، ١٩٩٣م)، ص ٢٧٩.

حي السبع خوخ العتيق:-

هو بين خط اصطبل الطارمة، وخط الزراكشة العتيق ويؤدي إلى الجامع الأزهر وبه مساكن، وسوق تباع فيه الإبر التي يخاط بها فعرف بالأبارين[1].

حارة الباطلية:-

كان المعز أيبك قد قسم العطاء في الناس فجاءت طائفة تسأل العطاء فقيل لهم فرغ ما كان حاضراً فقال رحنا في الباطل ؛ فسموا الباطلية. وفي عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م احترقت بيد النصارى وما زالت خراباً حتى عمر فيها مواضع بعد عام ٧٨٥هـ/١٣٨٣م[2].

وبالنسبة للطبقة الوسطى والدنيا من سكان حارات اليهود فقد وجدت مناطق قصر الشمع حيث وجد أحكار بها أرباع سكنها مسلمون، ويهود، ومسيحيون من الطبقات الدنيا والشريحة السفلى من الطبقة الوسطى، ووجدت حارات في زويلة غلبت عليها الطبقة الدنيا. وهناك زقاق المعاريج سكنه العاملون بصناعة السكر، وزقاق الترمس سكنها العامة، والحرفيون أما حارة سرور اللول فى نهاية حارة زويلة بها منازل وسكان من كافة الطبقات والأديان؛ فقد كان اليهود و المسيحيون يرغبون فى العيش فى بعض الأحياء دون غيرها[3].

المناطق الواقعة بين الفسطاط والقاهرة:-

لقد أدت رغبة صلاح الدين في عمارة تلك المنطقة لانتشار العمران؛ فظهرت العمائر فيما بين القاهرة، وقلعة الجبل على يسار الخارج من باب زويلة، وما أن شرع في بناء السور من جهة الفسطاط في عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م حتى اندفع الناس خاصة الفقراء للبناء إذ "لم يبق فقير، ولا ضعيف إلا وخط فيه ساحة"[4]. ويمتد الطريق ما بين القاهرة والفسطاط نحو الميلين حتى صار العامر بالسكنى على قسمين: أحدهما يقال له القاهرة، والآخر مصر[5]. فعمرالناس حتى صارت مصر، والقاهرة لا يتخللها خراب وقد أخذت جزيرة الروضة بالتحول لمنطقة سكنية حيث جعلها

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٥٦.
(٢) نفسه، ص ٥٦.
(٣) نفسه، ص ٥؛ زبيدة محمد عطا، اليهود في العالم العربي، (ج١، ط١، عين، القاهرة، ٢٠٠٣م)، ص ١١٩؛ ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، (تعريب أسعد صقر، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٧م)، ص ١٥٧.
(٤) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، جـ١ ق٢، ص ٦٨٦؛ المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٦٣؛ عدنان فايز، عمران القاهرة،ص٣٠٢
(٥) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ١، ص٦ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٤٤.

صلاح الدين سكن لعامة الناس[1]. ليسجل لنا ابن سعيد ذلك بقوله: "**والخراب في الفسطاط، والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان لها .... وقد نضج روح الاعتناء، والنمو في مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية**"[2].

شوارع القاهرة:-

تعتبر شوارع القاهرة بما فيها من أسواق، حوانيت، ومساكن عنصراً هاماً لتجمع الفقراء حيث أماكن أرزاقهم ؛ فيقضون فى تلك الشوارع أغلب فترات يومهم؛ "فلا يكاد ينقطع الزحام بشوارعها العظيمة وهي ضيقة لكثرة الناس والدواب حتى إلى الليل، وبعد العشاء بكثير" كان في كل جزء من شوارعها بيوت، وأسواق، وجوامع، ومدارس تصلح أن تفرد بمدينة واحدة[3]، ودرجة الازدحام بالشوارع قد تؤدي إلى ضيق الصدور[4].

فقد كانت المدينة بمصر خلال القرنين السابع والثامن الهجريين عبارة عن شبكة من الشوارع، تمتد من الشمال إلى الجنوب، تقطعها شبكة أخرى من الشرق إلى الغرب؛ في حين وصف التاجر الروسي باسيل القاهرة ، بأن بها أربعة آلاف شارع ، ودرب كل منها له بابان، وحارسان، وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلاً عن سوق كبير لسد الحاجات اليومية للسكان[5].

فعندما تحولت القاهرة مدينة للعامة أنشئت على جانبي شارعها الأعظم "شارع المعز لدين الله"، وشوارعها الجانبية المتفرعة منه أسواق على هيئة حوانيت متراصة على جانبي الشارع[6]، وشارع خارج باب زويلة حيث أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٦٨- ٤١١هـ/ ٩٩٦- ١٠٢٠م) الباب الجديد على يسرة الخارج من باب زويلة، وقد اتصلت العمائر من الباب الجديد إلى الفضاء الذي هو الآن خارج المشهد النفيسي[7]. وهناك شوارع عديدة اجتمع بها الفقراء بحكم عملهم: مثل شارع سوق العصر، والسيدة زينب، وباب زويلة، وشارع القربية ابتداؤه من شارع باب زويلة وبه حوانيت لبيع القرب والدلاء، وشارع القصاصين، ومن يمين المار به، مساكن صغيرة وبعض دكاكين

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٦٣؛ عدنان فايز ، عمران القاهرة، ص ٣٠٣.
(٢) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ص ١١.
(٣) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص ١٨٨.
(٤) ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ص ٢٤.
(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في دولة المماليك البحرية، ص ١٦٤؛ خالد عزب، الفسطاط، ص ٨٧، ٨٨ .
(٦) المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٨ .
(٧) نفسه، جـ٣، ص١٦٣.

وخرائب لاجتماع الغوغاء[1] [2]. أما شارع تحت الربع فعرف بذلك من أجل ربع الظاهر بيبرس الذي يشمل على مائة وعشرين بيتاً؛ في حين يشير أندريه ريمون لشارع بين القصرين حيث أشار لمشاهدته لازدحام الناس، وعندما سأل فقيل له هذا حال البلد دائماً[3].

وكذلك شارع الحسين وخان الخليلي، وشارع الوراقين والغورية وهما شارع واحد، وبه عدة حوانيت يباع فيها الأشاط والمأكولات. وعلى جانبي الشوارع وجدت الأسواق، وما بها من حوانيت، وأحياناً تزود بسقف بسيط من الخشب أو الحصير[4]. ويصف ابن سعيد شوارع الفسطاط بقوله: "غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن، والقصب، والنخيل طبقة فوق الأخرى، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف"[5]. أما القاهرة فمن أهم معالمها ضيق دروبها، وطرقها، وعدم استقامتها واكتظاظها بالمارة، والسوقة بالإضافة لانتشار الباعة الجائلين حتى ضيقوا الطريق على المارة، هذا فضلاً عن أصحاب الحرف: كالحلاقين، وجمال السقايين التي تحمل القرب[6].

القرافة:-

تعتبر من أكثر المناطق ازدحاماً بساكنيها من الفقراء، وهناك بالطبع عوامل ساعدت على سكنى الفقراء للقرافة منها: وجود عدد كبير من مزارات الأولياء، والصوفية، والصالحين[7]. وذلك فضلاً عن وجود الرباطات التي تأوي العجائز، والأرامل العابدات ، وكذلك وجود المصليات ، والمحاريب التي بالقرافة[8]. وقد كان لأهل كل خطة مساحة من الأرض مخصصة لدفن موتاهم، وقد توصل أحد الرحالة إلى هدف التصميم هو وضع المقبرة بطريقة تجذب أكبر قدر من اهتمام الزوار[9]، وقد كانت المدافن الرئيسية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين تقع في القرافة بظاهر جبل المقطم، وكان بها جوامع، ومساجد يتجمع بها العباد، والطلاب للتعبد، وتعتبر الكيمان

---

(١) الغوغاء: هم شواذ الناس وقال فيهم عبد الله بن عباس: ما اجتمعوا قط إلا ضروا ولا افترقوا إلا نفعوا ونفعهم في الذهاب لأعمالهم، انظر، ابن عبد ربه، العقد الفريد، (ج٢، ط لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤٠م) ، ص ٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٦٣، ١٦٤؛ علي مبارك، الخطط، جـ٣، ص ١٠٥،١٠٧،١١٥،٢٠٢،٢٣٣،٢٩٣،٣٢٩.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص ٢١٨ ؛ عز الدين ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٤٤ .

(٤) علي مبارك، المرجع السابق، ج٢، ص ١٠٦، ١١٠، ٢٢٨؛ أندريه ريمون، (تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٩٣م) ، ص١٤٥.

(٥) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص ٦.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٨٣.

(٧) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣١٩؛ الحموي، رحلة، ص ٦٢؛ محمد حمزة إسماعيل، قرافة القاهرة في عهد سلاطين المماليك، (رسالة ماجستير، غير منشورة، آثار القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ١٨١، ١٨٢.

(٨) من أشهر الرباطات: رباط بنت الخواص، الأشراف، الأندلس، المصليات والمحاريب: مصلى الشريفة، والقرافة والفتح، انظر المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٣٣، ٣٣٤.

(٩) نفسه، ص ٣٢٣؛ الماوردي، (الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، ١٩٧٣م)، ص ١٨٠؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٦١.

التي بالقرافة خارج السور هي المنطقة التي عرفت بالقرافة الكبرى وإن موضع النزهة والمنطقة السكنية هذه لم تتحول إلى مقابر إلا بعد القرن السادس الهجري[١].

وبصفة عامة توجد في القاهرة مدينتان للمقابر، إحداهما في الجنوب، وبالقرب من قبة الإمام الشافعي توجد مقابر القرافة، والأخرى في الشرق من القاهرة، حيث وجدت مقابر باب النصر، وأما مقابر القاصد فجهة الغرب. ودون الحديث عن المدافن يتخلل ذلك الآلاف من المقابر، والمدافن ما يشبه الشوارع التي يمكن السير فيها، ويتردد النساء، والأطفال على المقابر بصحبة الرجال. فالقرافة على مدى تاريخ مصركانت تعج بالعامة، والخاصة، والدليل سكنى أهل الفسطاط، والقاهرة بها، وبناء الناس القباب، والزوايا والمدارس، والبيوت بجانب تلك الترب[٢]. فقال فيها ابن سعيد "**وبها منازل لأعيان الفسطاط، والقاهرة ....، وبها مسجد جامع، وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء ... وهي معظم مجتمعات أهل مصر**" ويقول أيضاً:

"إن القرافة قد حوت ضدين من ... دنيا وأخرى فهم نعم المنزل"[٣]

وقد أكد الرحالة ابن بطوطة ذلك بقوله: "**ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور، ويبنون بها البيوت ...**"[٤].

وقد كان الناس في القديم يدفنون موتاهم فيما بين مسجد الفتح، وسفح المقطم. وقد بنى الملك الكامل محمد بن العادل قبة على قبر الإمام الشافعي بعد دفن ابنه في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١١م بجوار قبر الإمام، وأجرى لها الماء فنقل الناس الأبنية من القرافة الكبرى إلى ما حول قبرالشافعي، وأنشأوا ترب عرفت بالقرافة الصغرى وأخذت عمائرها في الزيادة[٥]. وتسابق الناس في البناء بالقرافتين فبنوا "**الترب، والخوانق، والأسواق ... حتى صارت العمارة من بركة الحبش إلى باب القرافة ومن حد مساكن مصر إلى الجبل**" بالإضافة لتعدد أفعال البر والصدقات[٦]. وقد كان جامع القرافة[٧] بمثابة الملاذ للمساكين، والمحتاجين حيث يطلق عليه جامع الأولياء؛ فقد كان مأوى لهم، وبخاصة في أيام الجمع، وكذلك المساجد التي بالقرافة "**لأجل ما يحمل إليها**" من لحوم وأطعمة وغير ذلك[٨].

(١)المقريزي، الخطط، جـ٤، ص ٣٢٠؛ عدنان فايز، عمران القاهرة، ص ٣٤٨.
(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٠٩؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٢٥، ٢٢٦؛ محمد محمد الكحلاوي، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة، (ط١، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤م)، ص١٠٢، ١٠٩.
(٣) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص ١٠.
(٤) ابن بطوطة، رحلة،ج١،ص٢١؛ مهذب الرحلة،ج١،ص٢٨.
(٥) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٢٠.
(٦) نفسه، ص ٣٢٠؛ علي مبارك، الخطط، ج١، ص ٦٧.
(٧) يعرف بجامع الأولياء وموضعه يعرف في القديم عند فتح مصر بخطة المغافر وعرف بمسجد القبة وأنشأته السيدة المعزية سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م وهي أم العزيز بالله. لمزيد من التفاصيل انظر المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٢٠، ١٢١.
(٨) نفسه، ص ٣١٩.

هذا بالإضافة للمساجد الشهيرة بالقرافة الكبرى كمسجد الإقدام، والأندلس وغيره وأما التي بجبل المقطم (القرافة الصغرى) مثل: مسجد التنور، والفقاعي، وغيره، وكذلك الأحواض، والآبار مثل حوض القرافة وبئر الدرج، والزقاق. وقد حولت المقابر لتكون خارج المدينة الكبرى ليصبح سور صلاح الدين هو الحد الفاصل بينهم؛ فالمقابرالتي توقف استخدامها تقع داخل السور، أم المستحدثة تقع في خارجه[١]، فقد كان أغلب من يسكنون القرافة بمعنى الإقامة الدائمة إنما هم الفقراء، والمحتاجين الذين يعملون للحفاظ على أبنية مشاهد أهل البيت، وبالتالي كان لهم المرتبات الشهرية بالإضافة للصدقات من أطعمة وحلويات، وغيرها، ودون مشقة العمل، وما تتمتع به القرافة من كافة سبل الحياة لتكون مزاراً لمختلف طبقات المجتمع المصري.

الميادين العامة:-

كانت الميادين العامة في القاهرة تجمع حشداً من العاطلين، والأشخاص؛ حيث يقوم بعض المشعوذين بتسليتهم، وهذا بخلاف المحتاجين، والمساكين، والفقراء من العامة[٢]. وقد عدد مؤرخنا المقريزي تلك الميادين، وأشار لها بوضوح مثل: ميدان ابن طولون، وميدان الإخشيد وهو المكان المعروف بالبندقانيين، وميدان القصر، وميدان الملك العزيز عثمان، وميدان الظاهر بيبرس بطرف أرض اللوق، ويعتبر ميدان بركة الفيل أشهر الميادين التي تجمع فيها الفقراء[٣].

وقد تعددت الميادين الأخرى كميدان القبق، ويقال له الأسود، وميدان العيد، والأخضر، وقد بني الظاهر بيبرس مصطبة في ميدانه عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وحث الناس على لعب الرمح فيها لتصير تلك الأماكن لا تسع الناس[٤]. وأما ميدان القمح (ميدان الغلة) "**صار ... اليوم سوقاً تباع فيها فيه ... الحصر، وغير ذلك، وفي بعضه سوق الغزل ... وفيه سوق عامر بالمعايش**"[٥].

ذكر الأسواق:-

والسوق هو ما يكثر فيه الباعة والتجار وأصحاب الحرف والأماكن التي تتجمع فيها المتاجر والحوانيت. فقد انتشرت في جميع أنحاء مصر على مر العصور، وذلك لما تميزت به مصر من وفرة الإنتاج الزراعي، وتنوعه، وهذا بخلاف المجالات الأخرى، وما تجوبه الغابات والأحراش

(١) المقريزي، الخطط جـ٤، ص٣٢١- ٣٣٣؛ ابن جبير، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ: رحلة ابن جبير، (ط٢، دار الهلال، بيروت- لبنان،١٩٨٦م)، ص ٢٢؛ عدنان فايز، عمران القاهرة، ص ٣٦٣، ٣٦٤.
(٢) جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٣٠٨.
(٣)المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٢٠- ٣٢٣.
(٤)نفسه، ص ١٨٠- ١٨٢؛ علي مبارك الخطط، ج٢، ص ٢٤٣.
(٥) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

لتصبح الأسواق تطوراً طبيعياً للنمو السكاني والازدهار العمراني في مصر مع بواكير القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي[١]. وزادت حدتها في القرن السابع الهجري– الثاني عشر الميلادي. فهي بمثابة مؤسسة اقتصادية، واجتماعية، وسياسية تمارس نوعاً من الإنتاج الثقافي والمعروف في مجال العلاقات بين الأفراد، والجماعات بما يسمى "الرأي العام" بالإضافة لذلك كانت مركزا لنشر الأخبار، وإذاعتها بين مختلف الطبقات الشعبية سواء من المتسوقين أو الباعة[٢].

وقد وجدت الأسواق العملاقة التي تجمع الفئات الفقيرة بشكل كبير مثل: سوق القصبة الذي يشتمل على اثني عشر ألف حانوت ما بين أول الحسينية حتى المشهد النفيسى؛ وهي حوانيت عامرة بأنواع المآكل والمشارب، والأمتعة لدرجة أنه يرمى بمصر في كل يوم ألف دينار ذهباً على المزابل لما يستعمل من الشقاف الحمر التي يوضع فيها اللبن، والجبن التي يأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين وهذا بخلاف الباعة الجالسين على الأرض بأطباق الخبز والمعايش ويقال لهم المقاعد[٣]. وقد يريد المقريزي بذلك إظهار ما كانت عليه مصر في ذلك الوقت من رخص الأسعار وقد أكد بلوتي ذلك بقوله "**وتجارة القاهرة مزدهرة، وأسواقها عامرة، وهي مليئة بالسكان**"[٤] وقد امتازت حوانيت الأسواق بصغر حجمها فيكسد التاجر بضاعته في خمسة أقدام مربعة[٥]، مما يتيح تعدد الحوانيت، وبالتالي زيادة الإقبال على الأسواق من كافة الطبقات.

ومن أشهر الأسواق سوق القناديل ويصنع فيها الأوعية، والأمشاط، ومقابض السكاكين وغيرها[٦]. أما سوق القيصات فهو من أكبر الأسواق تجمعاً للطبقات الشعبية لدرجة تدخل الدولة بينهم، وبين أصحاب الدكاكين بسبب ما يحدث بينهم من تنافس وما يسببونه لهم من خسائر مادية[٧]. وسوق الأخفافيين يباع فيه أخفاف النساء ونعالهن، كما وجد سوق السلاح وبه أرباب المقاعد لبيع أنواع المآكل[٨]. وأما سوق حارة برجوان فيوجد به عدة كثيرة من الزياتين، والجبانين، والجزارين، والخضريين ولا يستطيع أحد المرور فيه إلا بمشقة لشدة الازدحام. وسوق الشوايين ويعرف

---

(١) أحمد بن يوسف الدريوشى، أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، (ط أولى، عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٩م)، ص ٢١؛ عبد المنعم سلطان، الأسواق في العصر الفاطمي، (مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م)، ص١٥؛ عمرو عبد العزيز منير، العمران في مصر، ص ١٦٧.
(٢) علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص ١٠٩؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٦٩، ٧٠.
(٣) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٣،١٥٤.
(4) Piloti, E.: Op. Cit.. P.P. 1, 2
(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٨٦.
(٦) ناصرخسرو، سفر نامة، (تحقيق يحيى الخشاب، الهيئة، القاهرة، ١٩٩٣م) ، ص ١١٨.
(٧) المقريزي، المصدر السابق،نفس الجزء، ص ١٥٧.
(٨)الصيرفى، أبناء الهصر بأنباء العصر، (تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ٢٠٠٢م)، ٣٦٢؛ المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٥٧.

بالشرايحيين وهو سكن المتعيشين، وبه سوق الغرابليين وعدة حوانيت تعمل مناخل الدقيق، وبه المجبرين، وحوانيت المتعيشين. وينطبق الأمر نفسه على سويقة أمير الجيوش[(١)]، وبصفة عامة لقد عدد لنا المقريزي أسواق مصر سواء عامرة أو غير عامرة بشكل مفصل مثل سوق بين القصرين، المهامزيين، البندقايين، سويقة الرملة، العياطين، وغيرهم[(٢)]. فقد أردنا بذلك ذكر أهم الأسواق التي كانت محط أنظار عامة الشعب المصري وإقامته بشكل كبير خصوصاً للفقراء كالمتعيشين، والمحتاجين وغيرهم.

وقد أشار ناصرخسرو لحال الأمن في تلك الأسواق بقوله "**بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكوماتهم إلى حد أن البزارين، وتجار الجواهر، والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شيء**"[(٣)]. فإشارته تدل على انتعاش الاقتصاد المصري في تلك الأسواق؛ مما يتيح للمحتاجين والفقراء أن يجدوا مكاناً ومتنفساً آمنا للعيش في تلك الأسواق، وقضاء أغلب أوقاتهم بحثاً عن الرزق.

وبصفة عامة فكما ازدهرت تلك الأسواق التي ملئت بعامة القاهرة وفقرائها خلال تلك الفترة إلا أن هذه الصورة الزاهية الألوان للحياة المصرية لم تلبث أن تلاشت بفعل عوامل التدهور التي عانى منها المجتمع المصري منذ أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجريين- الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[(٤)].

القياسر والخانات:-

مفردها قيسارية وهي كلمة لاتينية بمعنى Casarea لتعني البناء الملكي أو الإمبراطوري مما يدل على أنها كانت من إنشاء الدولة[(٥)]. وقد أكد دوزي ذلك وأضاف وجود العديد من المخازن والحوانيت، والمساكن، والأروقة[(٦)] ولذا فقد اشتملت تلك الأماكن على نشاط واسع النطاق؛ فاستوعبت العديد من المحتاجين والعاملين بأيديهم. فهي نوع من الأسواق المعلقة التي يسكنها عدد من عامة القاهرة الذين يعملون في مختلف المجالات التي تنتشر في هذه الأسواق ومنها على سبيل المثال:

(١) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ١٥٥، ١٦٢، ١٦٤.
(٢) نفسة، ص ١٥٣- ١٧٤.
(٣) ناصر خسرو، رحلة، ص ١٤٢.
(٤) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٤٦.
(5) Goitein: Amediterranean Society of the High Middle Ages New York, 1967 P. 194;
؛عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، (ج١، بيروت- لبنان، ١٩٩٦م)، ص ٢٥٥.
(6) Doyzy: Supplement aux dictionnaires arabes vol. 1, leyden 1881, p. 432.

قيسارية ابن قريش وسكنها البزازون، وقيسارية جهاركس وبأعلاها ربعا و كذلك قيسارية بيبرس، وبها ربع تسكنه صناع الأخفاف، أما قيسارية ابن يحيى وأنشئت في عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م وهي سوق الطيور، وقاعات الحلوى، وقيسارية ابن ميسر يباع فيها القماش بأنواعه، وهذا بخلاف القياسر الأخرى[١]. فقد كان الفقراء يرتادون تلك الأسواق وغيرها من الأماكن كالقياسر والخانات بحثاً عن الرزق والعمل في مهنة يحتاج إليها التجار وتتطلبها التجارة اليومية.

فالخانات هي كلمة فارسية[٢] ومعناها نزل أو سوق وهي مؤسسة لخدمة الأغراض التجارية، وبه عدد من الدور المختلفة ويحوي العديد من الحجرات، ويتوسطه فناء ضخم مغطى كمخزن للبضائع والدواب في حالة إقامة التجار فيها، وكان يتم وقفها لأعمال البر كإقامة الفقراء بدون أجر، واشتملت بعض الخانات على دور تسع الواحدة ٣٥٠ شخصاً[٣]. ومن أشهرها "خان مسرور" و"خان السبيل" بناه قراقوش "**لأبناء السبيل، والمسافرين بغير أجرة**"[٤] ويعتبر خان الخليلي يكاد يكون مدينة مستقلة من سعته وتشعب طرقه[٥]. فقد كانت الخانات تمثل أماكن إقامة للفقراء نظراً لغرضها الإحساني حيث الوقف تحتها.

أما وكالة قوصون فقد أشار لها المقريزي وما بها من بضائع عديدة لدرجة ازدحام الناس، وشده أصوات الحمالين عند حمل البضائع "**ويعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلاثمائة وستين بيتاً ... تحوي أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة ، وصغير، وكبير**"[٦]، وقد قامت تلك المنشآت بمهمة واحدة إلى جانب الأسواق بمعنى المؤسسات التجارية، والصناعية، وبالتالي تحتاج تلك الأماكن العديد من العتالين، والحمالين، وأصحاب المعايش، وغيرهم.

(١)المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٤٠- ١٤٨.
(٢)ياقوت الحموي، معجم البلدان، (تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، ج٢، ط أولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٩٩٠م)، ص ٣٩٠.
(٣)علي السيد علي، العلاقات بين المصريين والصليبيين، (ط أولى، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص ٨٣؛ رضا إسماعيل أحمد محمد، جغرافية القاهرة زمن المماليك، (رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٢٦٤؛ أمينة أحمد الشوربجي، (رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٩- ١١٧١م)، س تاريخ المصريين، ع ٧٢، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م)، ص ٣٦٢.
(٤) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٤٩، ١٥٣.
(٥) بكبريت، رحلة الشتاء والصيف، (تحقيق محمد سعيد طنطاوي، ط أولى، المكتب الإسلامي للطباعة، القاهرة، ١٩٩٣م)، ص ٨٩.
(٦) المقريزي، المصدر السابق،نفس الجزء، ص ١٥٣.

الأماكن الصوفية:-

لقد أدت ظروف العصر، وأخطاره إلى انضمام أعداد كبيرة من العامة إلى الطرق الصوفية، فكانت أكثر الخوانق، والربط تعد مجتمعاً تعاونياً متكاملاً تجد فيه المساكن التي تستوعب كل من يدخلها من الصوفية، وبها اللحم، والخبز كما كانت تضم عدداً من العاملين كالطباخ، والبواب، والفراش، والمغسل، والمبخر والمؤذن(١). ولكن يأتي سؤال يطرح نفسه ألا وهو ما علاقة الفقراء الصوفية بفقراء العامة؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف التصوف: "**هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً، وباطناً**" بمعنى التحلي بالآداب الشرعية ظاهراً فيسرى حكمها من الظاهر للباطن. في حين أن مصر قبل القرن (السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي) لم تكن تعرف التصوف وأماكنه بالمعنى السابق الذكر، ولكن نظرا لكثرة الحروب الداخلية التي أدت لوجود العديد من حالات البطالة الحادة التي دفعت العديد للانضمام لتلك المنشآت العمرانية بتشجيع من رجال الدولة في تلك الفترة(٢). وبمعنى أدق سيتضح فيما بعد أن انضمام المحتاجين وغيرهم للحياة الصوفية ليس رغبة منهم في الزهد في الدنيا بقدر ما هو رغبة الحصول على المأوى، والمأكل، والملبس أكثر من اعتناقهم هذه الطرق.فالتصوف فى مصر كان ظاهرة اجتماعية وليس دينية وتلك حقيقة.

فمن ضمن تلك الأماكن الخوانق(٣)، وهي بيوت تعرف بالتكايا وسكنها دراويش من الأغراب، وهم معتمدون في أرزاقهم على مرتباتهم الشهرية من ديوان الأوقاف(٤)، فقد كانت تلك الأماكن من أجل البسطاء أيضاً وهم الذين لم يجدوا مأوى لهم، وقد أشار ابن خلدون لاهتمام الدولة، وحكامها بتلك المنشآت العمرانية بقوله: "**واقتدى بسنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة، والثروة، فكثرت لذلك المدارس، والخوانق**" أما الزوايا فتطلق على المبنى بصفة عامة ثم خصصت للدلالة على المسجد محدود المساحة(٥). في حين اعتبر ابن بطوطة الزوايا والخوانق في مصر مكان واحد

(١) شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص ١٨٦- ١٨٩.
(٢) محيي الدين بن عربي، شرح معجم اصطلاحات الصوفية، (تحقيق سعيد هارون عاشور، ط أولى، الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م)، ص ٨٧؛ عمرو عبد العزيز منير، العمران في مصر، ص ٢٠٤، ٢٠٥.
(٣) الخنقاة: لفظ فارسي معناها بيت وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك والخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى، انظر المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٧١.
(٤) علي مبارك، الخطط، ج٦، ص ١٥٥.
(٥)ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، س الذخاء، ع ١٠٠، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م)، ص ٢٧٩؛ ليفي بروفنسال، دائرة المعارف الإسلامية، (المجلد العاشر، طبعة الشعب، القاهرة، بدون)، ص ٣٣١.

بقوله: "**وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق**"[(١)] أما الربط هو جمع رباط وهو دار يسكنها أهل طريق الله[(٢)]، وقد اشترط في سكانها انتظار الصلوات، واجتناب الغفلات[(٣)]. وقد اشتركت تلك الأماكن في كونها مأوى وملجأ للفقراء، والمحتاجين، وأصحاب العاهات، وكبار السن، والعميان مثل رباط بيبرس الجاشنكير بمصر الذى خصص لمائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت فضلاً عن المطلقات من النساء؛ فهو "**كالمودع للنساء والأرامل**"[(٤)].

وتعتبر أول خانقاة بمصر هي دار سعيد السعداء (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، وذلك بعد وضع صلاح الدين يده على مصر، وقد رتب لمن بها طعاماً، وخبزاً يومياً[(٥)]. وقد أنشأ علاء الدين البندقداري الخانقاة البندقدارية، ورتب فيها صوفية، وقراء في عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وهذا بالإضافة للعديد من الخانقاوات الأخرى مثل الجمالية، الظاهرية، بشتاك، بكتمر، وغيرها[(٦)] وأكبر دليل على أن منهم من اتخذ تلك الأماكن للمأوى، والمأكل أنه في عهد الظاهر برقوق (٧٨٤- ٧٩١هـ/ ١٣٨٢- ١٣٨٩م)، (٧٩٢- ٨٠١هـ/ ١٣٩٠- ١٣٩٩م) عام ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م عندما قصر ماء النيل غلق مطبخ الخانقاة وأبطل الطعام ولم تحتمل الصوفية ذلك، وتكررت شكواهم للملك الظاهر[(٧)]. ومنذ القرن السابع الهجري- الثالث عشرالميلادي أصبحت مصر من مراكز تأسيس التصوف، ويشار لهم بالمجاذيب وسلكوا طريق التسول والشحاذة مما أثار غضب العلماء[(٨)].

أما بالنسبة للربط التي وجدت بالقاهرة مثل رباط البغدادية تجاه خانقاة بيبرس، وبنى على يد ابنته تذكارباي في عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م ليودع فيه النساء التي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن، وتلاشى أمره في عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م بالإضافة للعديد من الأربطة الأخرى مثل الفخري، ابن أبي المنصور، وغيره[(٩)].

وقد ذكر لنا المقريزي العديد من الزوايا مثل الدمياطي، الشيخ خضر، الجميزة، تقي الدين، وغيرها[(١٠)]. وهذا بخلاف المشاهد والمزارات والتي وجدت بالجوامع المتميزة بالقاهرة؛ حيث اعتاد

---

(١) ابن بطوطة، رحلة،ج١،ص٢٠؛ مهذب الرحلة،ج١،ص٢٧.
(٢)المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢٩٢، ٢٩٣.
(٣)السهرودي، عوارف المعارف، ص ١٠١.
(٤) سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١٧٠؛ العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٣٥٣؛ الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، (ع١، مجلد ١١، أبريل- مايو- يونيو ١٩٨٠م)، ص ١٢٢، ١٢٣.
(٥) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٧٣؛ أندريه ريمون، القاهرة، ص ٩٢.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٨٧،٢٧٩،٢٨٢،٢٨٣،٢٨٤-٢٩٢.
(٧) نفسه، ص ٢٧٥.
(٨) آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٥١، ٥٢.
(٩) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٩٣- ٢٩٧.
(١٠) نفسه، ص ٢٩٧- ٣٠٦.

فقراء العامة على ارتيادها لزيارة أولياء الله وأخذ الصدقات مثل: المشاهد كمشهد رأس الحسين بن علي؛ وقد أكد ابن جبير على ذلك "**من استلام الناس للقبر... وانكبابهم عليه**" وكذلك رؤيته لمشاهد، الأنبياء، وأهل البيت، والصحابة، والتابعين والعلماء كمشهد معاذ بن جبل والإمام الشافعي[١].

أما الجوامع فيعتبر الأزهر أشهرها على الإطلاق وأكثر تجمعاً للمحتاجين وقد تم بناؤه في رمضان ٣٦١هـ/ ٩٧١م، وأول من أقام الأروقة به للغرباء هو الوزير يعقوب بن كلس، فلا يحسون بغربة لتركهم بلادهم لطلب العلم[٢]، وعهد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون عمل فوقه مكتب سبيل لإقراء أيتام المسلمين، ورتب للفقراء المجاورين طعاماً يطبخ يومياً، وبلغ عدد الفقراء في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م (٧٥٠ رجلاً) [٣]، وقد وصفه المؤرخ جومار بأنه أوسع جوامع القاهرة وبه أكثر من ١٥٠٠ طالب وفيما مضى بلغ عددهم أكثر من اثني عشر ألفاً والطلاب الأكثر فقرا يطعمون، ويوفر لهم به سكن[٤]. ومثال ذلك العديد من الجوامع الأخرى مثل جامع طولون، الأفرم، الظاهر، القرافة (الأولياء)، وغيرهم فقد كانت جميع المؤسسات الدينية سابقة الذكر تموج بأعداد غفيرة من جمهور العامة الباحثين عن العلم، وعبادة الله فضلاً عن ذلك من الأغراض المعيشية كالسكن والراحة، والطعام، وتناول الصدقات من أهل البر[٥] مما يوحي أن كثيراً منهم كانوا من الفقراء.

وقد وجدت أماكن تشبه الخوانق، والجوامع خاصة لأهل الذمة مثل الأديرة، فقد كان للنساء أديرة مختصة بهن فمنها دير الراهبات بحارة زويلة من القاهرة وهو دير عامر بالأبكار، وغيرهن من نساء النصارى، وكذلك دير البنات بحارة الروم والمعلقة، ودير بربارة، وغيره كثير الذي تجمع فيه النصارى[٦]. وقد تعددت الكنائس مثل كنيسة شنودة بمصر، وهو راهب يطوي تحت يده ستة آلاف راهب يتقوت هو وإياهم من عمل الخوص، وكنيسة ميخائيل وأما بناحية درنكة كنيسة قديمة وهو مورد لفقراء النصارى[٧] وهذا على سبيل المثال.

ويبقى كلمة أخيرة كتعقيب على الصوفية فقد صادفت دعوة الصوفية استجابة قوية من الشعب المصري نظراً لما منوا به خلال القرنين السادس، والسابع الهجريين- الثاني عشر والثالث عشر

(١) ابن جبير، رحلة، ص ١٨- ٢٢؛ لمزيد من التفاصيل، انظر المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٠٦- ٣١٦.
(٢) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٩؛ سحر السيد إبراهيم، الهجرات وتطور مدينة القاهرة عصر سلاطين المماليك، (رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب، الزقازيق، ٢٠٠١م)، ص ١٩٧.
(٣) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٥٣، ٥٤.
(٤) جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ١٦٨.
(٥)المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٦، ٨٨، ٩١، ١٢٠، ١٤٠؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص ١٢٨.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٢١.
(٧) نفسه، ص ٤٢٤ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ .

الميلاديين، من مجاعات، وأوبئة، وانعدام الأمن، وكثرة الفتن، وحروب، وتعدد الضرائب، والمكوس، وغير ذلك من الأسباب التي جعلت من المصريين فقراء يرغبون في نيل قدر من الحياة ليجدوا ذلك في الخوانق والربط والزوايا بل والجوامع الكبيرة دعوة للصوفية دون أن يهتموا بمبادئ الصوفية: كالزهد في الحياة، والانقطاع في العبادة، فقد هربوا من شبح الجوع، والموت إلى الصوفية ليكون الملاذ لهم لما يغدق على تلك الأماكن من عطايا، وهبات كنوع من تكفير الذنوب، ونوع من الإحسان، والصدقات، وما يناله الفقراء من مأكل وملبس، ومساكن فليس كل من سكن تلك الأماكن هو زاهد لحب الله لتصبح تلك الأماكن مأوى للفقراء.

ثانياً: أسلوب حياة الفقراء (الثقافة المادية للفقراء):

لكل طبقة من طبقات المجتمع المصري مستوى معيشي (اقتصادي) معين وأسلوب حياة يختلف إلى حد ما عن الطبقات الأخرى، بصرف النظر إن كانوا يشتركون في بعض الأشياء فمن خلال الفصل الأول (العوامل المسببة للفقر) يمكن الوقوف على هيئة الفقراء في القاهرة من خلال وجود طبقتين: إحداهما تمثل الثراء، والبذخ، والأخرى متردية في الفقر والعوز ولذا سنحاول كشف النقاب عن مستوى معيشة تلك الشريحة التي عاشت حياة الفقر والفاقة.

فالثقافة المادية للفقراء: تعني الأشياء التي يستفيد منها مجموعة من الناس في مسار حياتهم وتتلخص في المأكل، والملبس، والمسكن، وقد تختلف ثقافة (أرباب المعايش، والصنائع) عن (التجار، ورجال الصفوة من السلطة الحاكمة) مما يتوجب الإشارة لثقافة الفقراء المادية، والقوة الشرائية لهم بمعنى مقدرتهم على شراء تلك الأشياء.

ولأن الأسرة هي أصغر وحدة اجتماعية فقد كانت حاجة الإنسان الأول تنحصر في خمسة لوازم أساسية وهي بالترتيب الغذاء، شرب الماء، الملبس للوقاية، المأوى للاستقرار، والنساء للمؤانسة لذلك كانت النظم الاجتماعية تهدف منذ القدم لتهيئة الموارد الاقتصادية والمحافظة على بقاء النوع(١).

الطعام والماء:-

إن كان الطعام والماء يعتبران من ضروريات الحياة بالنسبة للبشر فإن كليهما صعب المنال بالنسبة للبعض الآخر. فقد اتفق المقريزي وابن تغري بردي في أن "**مآكل أهل القاهرة الدميس**(٢)"(٣). بينما عدد المقريزي أشكال الطعام مثل: "**القلقاس، والجلبان**" وهذا بخلاف أكل السمك بأشكاله، والألبان، وما يعمل منها، وأكل فلاحيهم للخبز المصنوع من جريش الحنطة(٤). ولأن الخبز من أهم عناصر الطعام على المائدة المصرية فقد وجدت أنواع منه للعامة، والخاصة، ولذا فقد فرض المحتسب على الطحانين ضرورة غربلة الغلة، وعدم خلطها بأنواع أقل من القمح كالشعير ويعتبر خبز الخشكار هو أقل أنواع الخبز ثمناً بسبب سواد لونه لأنه يصنع من الدقيق غير المنخول وكان

---

(١) الأسدي، التيسير والاعتبار، ص ٤٢؛ إبراهيم أحمد شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، ص ١٢١.
(٢) الدميس: هو الفول، لمزيد من التفاصيل ، انظر الشربيني، هز القحوف، ص ١٥٣.
(٣) ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ص ٢٨، ٢٩؛ المقريزي، الخطط ، ج٢،ص ١٨٩.
(٤) المقريزي، المصدرالسابق، ج١، ص ٧١؛ الشربيني، المصدر السابق، ص ٦،١١،٤٨.

ينتشر أثناء المجاعات[١]. وتجدر الإشارة إلى أن غذاء الفقراء كان يكفي للحفاظ على معيشتهم دون الإحساس بالشبع بينما يصل هذا الأمر في أوقات الأعياد، والمناسبات العامة، والخاصة، والدينية بالإضافة إلى ذلك أن غذاء الفقراء لم يكن بالقيمة الغذائية العالية التي تجعلهم قادرين على مواجهة الأمراض، وخصوصاً وقت المجاعات والأوبئة فغالباً ما يسقطون أثناء تلك الموجات.

وفي أثناء ارتفاع أسعار الحنطة، كانت الطبقات الشعبية تضطر لصنع الخبز من دقيق الذرة لكنهم كانوا يضيقون بهذا النوع من الخبز[٢]. فقد كان الطعام هو الشغل الشاغل اليومي لكل واحد من هؤلاء العاجزين عن إيجاد قوت يومهم، وقد كانت البيوت الفقيرة أكثر اعتماداً على الخبز طالما أن الأطعمة الأخرى كانت غالية بالقدر الذي لا تستطيع شراءها، وبالتالي فضل الطحانون الزبائن الذين يدفعون نقداً على أولئك الزبائن الأشد فقراً ولأهمية الخبز عند القاهريين فكان معروفاً بالعامية كما هو الآن باسم "العيش" أي الحياة، وكان اعتمادهم على الخبز المباع في الأسواق ولنا أن نتخيل ما يلحق بضرر تلك الأسر إذا اختفى من الأسواق[٣].

وقد بيع الخبز الريفي بالقاهرة وسمي الكماج وهو شديد البياض ويعجن بغير خميرة[٤]، وأشار له المقريزي بقوله "**ويدعي كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف**"[٥] وقد وجد خبز مصنوع من الشعير وهو طعام الفقراء لرخص ثمنه عن المصنوع من دقيق القمح، بينما استخدم أحياناً كوسيلة للتبادل التجاري وثمناً لدخول الحمام. وبالإضافة لذلك، أكل القاهريون أنواع البقول، والخضروات المختلفة مثل الطماطم والخيار، والرجلة، والخس[٦] الذي كان يأتيهم من الريف، فلم يهتم الفقراء في الغذاء إلا بالكم، وليس بالكيف لأن ملأ البطون أهم بكثير من نوعية، وجودة، ونظافة ما يتناولونه من طعام، وبالإضافة لرخص سعره، وبالتالي هذا كان يؤثر على أجسادهم مما يجعلهم عرضة للأمراض لضعف مناعتهم.

(١)ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٧٥ ؛ عبد المنعم سلطان، (المجتمع المصري في العصر الفاطمي (دراسة تاريخية وثائقية)، المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م)، ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٢)محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١٣٣.

(٣)آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٨٦، ١٨٧؛ محمد حسن، الأسرة المصرية في عصر سلاطين المماليك، (رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب الزقازيق، ١٩٨٩م)، ص ٤١.

(٤)حلمي محمد سالم، حرف وصناعات الأطعمة والأشربة في عصر المماليك، (رسالة دكتوراة، غير منشورة، آداب إسكندرية، ١٩٧٠م)، ص ١١٥.

(٥) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٧١.

(٦) الشربيني، هز القحوف، ص ٦، ١١ ؛ عبد المنعم سلطان، المصدر السابق، ص ٢٤٢؛ كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، (ترجمة محمد مسعود، ج٢، ط الثانية، دار الموقف العربي، القاهرة، ١٨٨٢م)، ص ٦.

أما أكل أهل الأزهر فكان أهل الصعيد يأتون بمؤنة نصف سنة من خبز وقمح مقدد بالنار، وسمن، وجبن، ودقيق وكشك، وبصل، وعدس، وأما أهل الوجه البحري فكان مؤنة شهر تقريباً "**وأكثر أكلهم سيما فقراؤهم المدمس، والنابت، والمخلل، والكرات، والفجل**" وقد كان أهل الصعيد أكثر تقشفاً منهم[(١)]، في حين اعتبرت الألبان من المكونات الأساسية لأطعمة الشعب المصري عامة فمنه الحامض وهو يكرعونه، ومنه اللبأ، وهو أول اللبن في النتاج، ويكون دسماً، ومن اللبن يصنعون الجبن والأرز باللبن، والمفروكة، وهو دقيق فطير ساخن وعليه لبن[(٢)]. ويستهلكون أيضاً الكثير من اللبن الزبادي[(٣)]، ومن كثرة استخدام الألبان بمصر كان يرمى في كل يوم ألف دينار ذهباً في المزابل، وذلك لما يستعمله اللبانون، والجبانون من الشقاق الحمر التي يوضع فيها اللبن كطعام للفقراء بحوانيت الطباخين[(٤)].

ويبدو أن اللحم لم يكن من أغذية الفقراء؛ فقد كان ذلك مستحيلاً بالنسبة للعمال اليدويين؛ إلا في المواسم، أو أسبوعياً، وبالأمثال قيل "**الكرشة عند المقلين زفرة**" أي الكرشة عند الفقراء تعوض اللحم[(٥)]. وعموماً يجب أن نعلم أن معظم أنواع الطعام التي وجدت في الريف المصري وجدت في المدن ولكن مع فارق الطهي ففي القرية كانت أسوأ عنها في المدينة لعجزهم المادي للصرف على طعامهم[(٦)]. وقد قدر الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر في تلك الفترة على أن عدد المطاعم والمطابخ في القاهرة وحدها بما يزيد عن اثنى عشر ألف مطعم، وغالبية رواد هذه المطاعم من سواد العامة، والفقراء بالإضافة إلى ذلك وجدت وجبات مطهية ساخنة بأسعار رخيصة[(٧)]، ولقد كانت تلك الأغذية يتطرق إليها الفساد ومن ثم الوقوع في الأمراض فقال فيهم المقريزي "وأهل أسفل الأرض بمصر أكثر استفراغ فضولهم بالبراز والبول لفتور حرارة أرضهم"[(٨)].

أما بالنسبة للفقراء وانضمامهم للصوفية بغرض العيش فهم يعيشون حياة أكثر بذخاً من أسفل السافلين في القاهرة، وفي ذلك يقول ابن الجوزي "**صوفية زماننا صارت همتهم في المأكل ... لهم الغذاء، والعشاء، والحلوى، وكل ذلك ، وقد تركوا كسب الدنيا وأعرضوا عن التعبير ... فلا همة**

(١) الشربيني، هز القحوف، ص ١٦١، ١٦٢؛ علي مبارك، الخطط، ج٤، ص ٦٤، ٦٥.
(٢) الشربيني، المصدر السابق، ص ١١، ١٦٣، ١٧١، ١٧٢.
(٣)ابن الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٦٤.
(٤)المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٣، ١٥٤.
(٥)آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٨٨؛ أحمد تيمور، الأمثال العامية، (ط٤، مركز الأهرام، القاهرة، ١٩٨٦م)، ص ٣٩٥.
(٦) الشربيني، المصدر السابق، ص ١٤٩، ١٥٣-١٦٠،١٦٦،١٦٧،١٥٧.
(٧)قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١١٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٨٧.
(٨)المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٧١.

لأكثرهم إلا الأكل واللعب"[1] فقد أصبحت حياة التصوف حياة يرغب فيها كل من يريد الفرار من مستوى المعيشة المتدني، ورغبة في العيش دون شقاء لما يجده في تلك الحياة من تواكل، وكسل، وبالتالي ينعم بما ينعم به متيسروا الحال.

وأما بالنسبة لأهل الذمة فلم يكن اليهود ليشذوا عن بقية المصريين، فقد أشار أحد الرحالة أن من عادة يهود مصر ألا يطبخوا في منازلهم سوى لإعداد وليمة السبت وبقية الأسبوع يشترون طعامهم من الأسواق، وقد كانت الطبقة الدنيا تستبدل التوابل الأغلى ثمناً بالسمن والزيوت، ومن هنا يمكن أن تستنتج أن غذاء الفقراء كان يكفي للحفاظ على الجسد، والروح شرط توافر الطعام بكميات كافية[2]. وكان من عادات الطعام تناول الناس في منازلهم وهم جلوس على الأرض والبسملة أول الأكل، والحمد في آخره، والأكل بثلاثة أصابع مع تصغير اللقمة، وتطويل المضغة[3].

أما الماء:-

فكان ضرورياً بالنسبة لسكان القاهرة سواء فقراء أم أغنياء، ويمكن الحصول عليه من عدة مصادر كحفر الآبار قرب المنازل[4]. فقد ذكر الرحالة الغربي بالرن الذي زار مصر في عام ١٦٠٦م أن سكان القاهرة اعتمدوا على مياه النيل في الشرب، وكانت تصل إلى منازلهم عن طريق السقائين[5]. وقد اعتمدت الأسر الفقيرة على أنفسهم في نقل الماء من البحر إلى دورهم على البغال، والحمير، وفي الجرار على الروس[6]. فقد كان السقا يحمل الماء على ظهره في إناء من الفخار المسامي، وكان الفقراء يشربون مجاناً أو مقابل قطعة من الخبز ولأجل هذا العمل النبيل سمح للسقائين بأخذ الماء بدون مقابل من الأسبلة[7].

ولكن لم يحافظ سكان المناطق المطلة على النيل على نظافة مياهه فيلقون القاذورات فيه؛ حيث "**يرمون في النيل الذي يشربون منه فضول حيواناتهم ... وربما انقطع جري الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء"**[8] وقد حرص العامة على تجويد المياه في الصيف بوضعها في أواني

(١)ابن الجوزي، تلبيس إبليس، (دراسة السيد الجميلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م)، ص ٢٦٦.
(٢)قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني، (ط أولى، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ٧٠؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٨٩، ١٩٠.
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١١٧.
(٤) آدم صبرة، المرجع السابق، ص ١٨٩.
(5) Palern, Jeam: Le Voayage en Egypte 1581. Le Caire 1970, p. 42.
(٦)المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ١٠١٦.
(٧)أولج فولكف، القاهرة، ص ٥٢.
(٨) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٤٥.

فخارية، وقد اعتقدوا أن ماء طوبة أجود أنواع المياه فخزنوه في أواني، وجرى شربه على مدار السنة اعتقاداً منهم أنه لا يتغير ولعل هذا أدى لانتشار الأمراض بينهم[١]. ورغم ذلك أشار نفر من الرحالة أن ماء النيل كثير العذوبة ملائم للهضم[٢].

الملابس:-

تعتبر الملابس من بين الجوانب المادية للفقراء فملابس العامة، والسوقة ليست منتشرة بالمصادر بالشكل الذي يعطينا صورة متكاملة فهي عبارة عن إشارات قصيرة متناثرة.

فقد أشار جومار إلى أن الأردية التي يرتديها النساء، والرجال لم يتغير شكلها منذ العصور القديمة واسم هذا اللباس "**ثوب، قميص**"، وطول القميص المساوي لفتحة الذراعين الممتدين هو ضعف العرض، والرداء كله مفتوح وينزل قليلاً أسفل مستوى الركبة[٣]، وقد كان رجل الشارع بمصر يلبس سروالاً مربوطاً حول أسفل الساقين، وعلى صدره صديري فوقه قفطان، أو جلباب وكانوا يرتدون الجوخ في غير وقت المطر ربما لرخص ثمنه إذا كان الجوخ لعمل المقاعد، والستائر وثياب السروج، وكان لبسه مقصوراً على سواد العامة[٤].

في حين أن المقيمين بجامع الأزهر للتعلم يلبسون الزعابيط، ويلبس الصعيدي ملاية زرقاء ذات خطوط بيضاء[٥]. وعموماً كان هذا هو لباس البدن (هو لباس ما سوى الرأس والأطراف من الجسم)؛ فمن أشهر الأنواع التي ارتداها العامة كالبشت، وهو ثوب بدون أكمام يصنع من الصوف، وارتداه الفلاحون والنساء العجانون وأرباب الحرف كالعجان. بالإضافة، للجبة[٦]، والفوطة والتبان[٧] والعباءة[٨]، وقد كانت ملابس أرباب الحرف، والصناعات عبارة عن غطاء للرأس يعرف بالقلسوة من حرير، أو كتان، أو لبس العمائم، ويسترون أجسادهم بالسراويل، والقمصان ذات الأكمام الواسعة[٩].

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٩٦؛ ابن الكندي، فضائل مصر المحروسة، (تحقيق علي محمد عمر، الهيئة، القاهرة، ١٩٩٧م)، ص ٥١؛ شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص ١٢١.

(٢) بنيامين، رحلة، ص ٣٥٢.

(٣) جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٦٤.

(٤) المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٢١٦.

(٥) علي مبارك، الخطط، ج٤، ص ٦٥.

(٦) الجبة: هي من الصوف الخشن وتكون كالثوب غير مفتوحة ومتسعة الأكمام ويرتديه أهل الريف والحضر من العامة، انظر أبو فاشا،عرض هز القحوف، ص ٥٦.

(٧) التبان: هي سراويل قصيرة لستر العورة، أما العباءة: هي كساء مشقوق واسع بلا كمين يلبس فوق الثياب ويطلق عليها أيضاً "الملوطة" ويرتديها أفراد الطبقة الدنيا، أما الفوطة: قطعة من النسيج الغليظ يشدها كثير من العوام على أوساطهم لمنع تهدل الثياب بما يعوق الحركة، انظر شلبي جعيدي، المرجع السابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٨) أبو الحسن علي ابن سيدة، المخصص، (ج١٣، بولاق، القاهرة، ١٣٢١هـ)، ص ١٦؛ الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ٢٢ حاشية ٥، ٦؛ شلبي جعيدي، المرجع السابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٩) عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، ص ٢٨٣.

أما النساء فكن يرتدين السروال والغلالة، والقميص، وترتدي فوق ثيابها ملاءة واسعة فضفاضة تخفي كل جسدها بالإضافة للنقاب لحجب الوجه بالخارج، وقد كان ظهورها بدون حجاب بين الناس يعد دليلاً على فقرها الشديد(١)، وأما الملابس الداخلية عندهن تعرف باسم "الأتب" وهو قميص بدون أكمام غير مخيط الجانبين يصل لمنتصف الساق(٢)، وبعض النساء يقصرن القميص، ويضيقنه، فيفصل أعضاءهن ويوسعن أكمام الثوب، ويقصرنه فيظهر عورتها برفع يدها. كما لبست بعض النساء "القباطي" ثياب ضيقة ملتصقة بالجسد وقد ارتدت اليهوديات ثياب تشبه ملابس المسلمات(٣). وأشار أحد الباحثين أن ممتلكات المرأة الفقيرة غاية في البساطة مثل قميص وملحفة لتوفير الدفء، وشكل من أشكال غطاء الرأس، وقد أشار لبعض ممتلكات الدلالات، وتتضمن بعض الأشياء مثل خف، طاقية، منديل، مشدات للصدر، وأثواب بطراز بعلبكي، ومكي(٤).

أما بالنسبة لغسيل ملابسهم فيتولون ذلك بأنفسهم بأماكن معينة على شاطئ النيل عرف باسم "المناشر" وفي المواسم، والمناسبات اضطر الفقراء لتأجير الثياب لدرجة أن الصباغين كانوا يؤجرون ما عندهم من ثياب أحضرها أصحابها لصبغها(٥).

أما لباس الرأس فقد كانت العمامة يلبسها جميع الطبقات فيلبس العامة عمامة صغيرة من القطن، وكثيراً ما كانت طاقية صغيرة دون استعمال أي شيء آخر معها وكذلك لبس القحف وهو شيء طويل يعمل من الصوف، أو الشعر يلبس على الرأس وتستعمله الفقراء(٦). أما العصابة فكانت لأرباب الحرف من الرجال، والنساء على حد سواء مثل العجان لمنع سقوط العرق بالعجين(٧).

أما لباس القدم فهو الحذاء أو النعل، وكانت أحذية الفقراء تصنع من الجلود المحلية، والنساء يرتدين في أرجلهن الخفاف، وفي الدور القباقيب التي انتشرت في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، وأعد خصيصاً للحمامات حتى لا ينزلق المستحم، وهو مصنوع من الخشب

---

(١) عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، ص ٢٨٣؛ محمد حسن، الأسرة المصرية، ص ٣٢، ٣٣.
(2) Doyzy R. P. A.: Dictionnaire detaille des noms des vetements chezles arabes, Amsterdam, 1845, p. 21.
(٣)ابن الحاج، المدخل، ج١، ص ٢٤١- ٢٤٣؛ زبيدة محمد عطا، اليهود في العالم العربي، ص ١١١.
(٤)آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٨٤، ١٨٥.
(٥) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٢٧؛ عبد المنعم سلطان، المرجع السابق، ٢٨٤.
(٦) الشربيني، هز القحوف، ص ١٧٦؛ عبد المنعم سلطان، المرجع السابق، ص ٢٨٣؛ شلبي جعيدي،طبقة العامة فى مصر، ص ١٢٧، ١٢٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ٢١٦.
(٧) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ٢٢.

في حين وجدت فئات من المجتمع كانت تعيش حياتها حافية وقد ارتدت الفقيرات نوعاً آخر من الآحذية الرخيصة يعرف "بالمداس" وهو أي شيء رخيص الثمن "تدوس" بها على الأرض(١).

السكن:-

تركز من قرب نهر النيل وبعيداً عنه تنخفض الكثافة، وبذلك أقام المصريون أغلب قراهم، ومدنهم، وفوق مستوى مياه الفيضان ترى خرائبها اليوم في شكل أكوام(٢)؛ فقد كانت دروب القاهرة ضيقة، ومظلمة كثيرة التراب والأزبال والمباني عليها من قصب، وطين مرتفعة، وقد ضيقت مسلك الهواء، والضوء بينها(٣) فقد كان سكان المدينة يتوزعون من ثلاث شرائح، وفي مركز القاهرة الذي يغص بالسكان كان الفقراء مثلهم مثل صغار التجار كانوا في حاجة للسكنى على مقربة من محل عملهم؛ فقد كان المبنى النموذجي يشاد حول باحة داخلية، وفي الطابق تحت الأرض منه عدد من السلالم يصل إلى طابقين، أو ثلاثة توصل إلى شقق منفصلة بها عدة غرف(٤)، ولكن المهم في هذا وجود أنماط معينة لشكل السكن في مدينة القاهرة خلال تلك الفترة.

فقد أدت الحاجة الملحة لدفع أهل الثراء نحو إنشاء الرباع، والمساكن للفئات الفقيرة، فقد كانت بعض الأربع تحتوي على ٣٦٠ بيتاً سكنة أربعة آلاف نفس، وتؤجر المساكن شهرياً بدون أثاث، وقد بنيت تلك الأربع الشعبية قريباً من بيوت علية القوم، ولكن مع اختلاف حجم تلك البيوت(٥). وقد أشار القلقشندي لنص بحماية الرباع صادر إلى من يتولى حماية الرباع السلطانية بالقاهرة، ومهمته "**كشف أحوال هذه الرباع ... وأن يستخرج ما لها من السكان ... وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال**"(٦).

فالربع هو تخصص قاهري، ويمكن تأجير عشرة أو خمس عشرة شقة تأوى كلٌ منها عشرة أشخاص، وتشغل الدكاكين، أو المخازن الطابق الأرضي، ومن الصعب معرفة أقصى ارتفاع للربع خلال أوقات زيادة السكان(٧)، وهذا ما أكده "أشتور" حيث تتكون الدور من عدة طوابق فاحتلت

(١) عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، ص ٢٨٣، ٢٨٤؛ شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص ١٢٩، ١٣٠؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص ١٠٢.
(٢) عمرو عبد العزيز، العمران في مصر، ص ٩٧- ٩٩.
(٣) ابن سعيد ، النجوم الزاهرة، ص ٢٤.
(٤) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ١٥٩.
(٥) هبة الله محمد فتحي، الأربع والمنازل الشعبية في القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني (دراسة أثرية، رسالة دكتوراة، غير منشورة، آثار القاهرة، ١٩٩٥م) ، ص ١٧.
(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص ٤٤٩، ٤٥٠.
(٧) آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٧٣.

الحوانيت الأدوار السفلى، وباقي الأدوار للسكنى[1] فقد كشفت حفائر كوبياك، وسكانلون عن ستة منازل بنيت بطريقة هزيلة تعود إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين، ويبلغ متوسط مساحة المنزل ٣٥م٢، ويطل على شارع ضيق عرضه متران، والمنزل يتكون من غرفتين، وفوق السكن وجد غرفة أو اثنتان للنوم أو الطهي في شهور الصيف، وكان للمرحاض أنبوب يصل إلى مجاري تحت الأرض[٢] ومثال ذلك الربع الذي أنشأه الظاهر بيبرس بشارع تحت الربع، وبه مائة وعشرون بيتاً، ولكن احترق هذا الربع في عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م، وهكذا نالت تلك المساكن الشعبية في العصور الوسطى الاهتمام بالرغم من أنه مكان بني للفقراء بأخف أجرة التي تصل أقصاها بالمدينة لعشرين ديناراً[٣].

ويشير ناصر خسرو بقوله "**سمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت في القاهرة ومصر وأنه يؤجرها**". ويشير لتجربته حيث أقام بمنزل في مصر مساحته ٢٠ ذراعاً في ١٢ ذراعاً بثمن ١٥ ديناراً في الشهر وكان أربعة طوابق[٤]، وقد أشارت إحدى الباحثات أن مساكن الربوع متدنية، وعشوائية؛ ومع ذلك يصعب التفرقة بينها، و بين أي سكن آخر، ولكن الاختلاف في الدخل، وهذا ما يمثله عناصر الرفاهية والثراء، وقد اهتم الصائغ بالطبيعة البيئية لعامة القاهرة في إنتاج النوافذ الخشبية من حيث تكييف الهواء في فصل الصيف؛ بحيث تؤدي تصميم المشربية إلى كسر حدة الضوء، وحجب الشمس، وإحداث تيار هواء من فتحات النوافذ، فقد كان بناء المنازل بالقاهرة يحقق هذا الغرض، وهو الوقاية من أشعة الشمس المحرقة والاستزادة من الظل، وتلطيف درجة الحرارة[٥]، وقد اعتبرت المشربية وسيلة لحجب النساء من أعين الرجال، ولكن سمحت للمرأة بالتجسس على الآخرين[٦].

وقد أشار جومار لوجود ما يسمى "حوش"؛ وهي عبارة عن أفنية كبيرة يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، ويسكنها عدد كبير من أناس فقراء مكدسين فيها مع ماشيتهم[٧]. فالحوش نمط آخر من الإسكان المتواضع وهو سكن أفقر سكان المدينة من العمال، والصناع اليدويين، وبينهم الوافدون حديثاً

---

(1) E. Ashtor: Lecout de leviant dans l'Egypte medlevale Journal of the Economic and Social History of the orient (JESHO) Vol. 111, Part 1, Leiden 1960, P. 67.

(٢)خالد عزب، الفسطاط، ص ١٦٨؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٧٤.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢١٨؛ هبة الله محمد فتحي، الأربع والمنازل الشعبية في القاهرة، ص ٢٠، ٢٢.

(٤) ناصر خسرو، رحلة سفر نامة، ص ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧.

(٥)هبة الله محمد فتحي، المرجع السابق، ص ٢٠٣؛ كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، (الهيئة العامة، القاهرة، ١٩٨٣م)، ص ٧٢،٧١.

(6) Leane Poole: Social Life in Egypt. London, 1882, P. 10.

(٧) جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٤٥.

من الريف، والمكارية، وخدم المنازل، وتبنى من الطوب اللبن، وتتكون من فناء بالمركز حوله أكواخ بدائية معظمها عند مستوى الأرض وللحوش مدخل واحد، وبئر للمياه، ويستوعب ثلاثين أو أربعين أسرة[١]. مثل حوش الأحمدي شمال باب النصر وبه قبة، ويسكن فيه البزادرة ، والمكارية، وأجرة كل قبة (سكن) درهمان بالشهر ويخصص العديد من تلك الأحواش لاستخدامات الحرفيين الذين يتعاملون مع المواد الحيوانية[٢] ويشير البغدادي إلى أن "جماعات من الفقراء قد آووا إلى الجيزة وتستروا بيوت طين"[٣].

في حين أن الغوازي كن يسكن في الأحياء المخصصة للدعارة، وتتكون مساكنهم من أكواخ قصيرة، أو حظائر، وخيام لأنهم يرحلون من بلد إلى بلد[٤]. ويصف لنا جومار أبشع الأماكن سكناً حيث يلاصق جامع السلطان حسن منازل ضيقة، وصغيرة حتى ليظن أنها مخصصة للكلاب فهي أكواخ مستديرة ارتفاعها أربعة أقدام ومبنية من الطين الممزوج بالطوب، وتعيش عائلة كاملة في هذه الجحور التي يبلغ قطرها ستة أقدام، وبمجرد الدخول إليها تشم رائحة نتنة؛ فقد سكن أهل البلاد منازل صغيرة غير صحية، وجد عملهم الكد لتدبير الثروة لرجال السلطة الحاكمة[٥].

وقد اتخذت الطبقات الشعبية من أسوار القاهرة، وحدودها مأوى لها وأقامت أكواخاً خشبية للإقامة فيها، كما أقامت بعزب الصفيح، التي شيدت مبانيها من الصفيح بينما تزايد عدد الحرافيش بشوارع القاهرة، وغطت أجسامهم الهلاهيل، والأتربة، وتبادلوا الشتائم لحد الاشتباك[٦]. فقد لاحظ بعض الرحالة الأجانب خلال القرنين السابع والثامن الهجريين أن بالقاهرة كثيراً من الطبقات الشعبية يتواجدون في الطرقات نهاراً وليلاً ، وأجسادهم شبه عارية، وبلغ عددهم بين خمسين ومائة ألف وقد كتب فريسكوبالدي الذي زار القاهرة في عام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م أن بالقاهرة ينام أكثر من مائة ألف شخص بالعراء ليلاً بسبب الحاجة إلى المساكن، أما سيمون سيجولي فينقل عن تاجر مسيحي أن أكثر من خمسين ألف نسمة لا يملكون سقفاً يأويهم ليلاً ، فينامون على المصاطب التي تبنى خارج الدكاكين، أو المساكن[٧]. وقد لاحظ جوزفان جيستل الذي زار مصر عامي ٨٨٧-٨٨٨هـ/

---

(١)آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٧٦، ١٧٧؛ أولج فولكف، القاهرة، ص ١٠١.
(٢) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٢٢٥، ٢٢٦؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ١٦٣.
(٣) البغدادي، رحلة، ص ١٣٥.
(٤) صلاح أحمد هريدي، الحرف والصناعات في عهد محمد علي، (المعارف، القاهرة، ١٩٩٥م)، ص ٧٩.
(٥)جومار، المرجع السابق، ص ٣٠٩؛ علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ١١٦.
(٦) محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٨٧، ٨٨، ١٦٧.
(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٣٨؛ آدم صبرة، المرجع السابق، ص ١٧٩، ١٨٠.

١٤٨٢- ١٤٨٣م أن كثيراً من الناس يعيشون في خيام المدينة، وفي حفر الأرض، ولا يستطيعون العيش في المدينة لنقص المساكن، فكثير من الناس يلجأون لبناء مساكن بدائية من تلك المساكن التي تحدثنا عنها[١]. في حين أقام أهل الذمة في منازل وأرباع مشتركة، وكانت غالبيتها في قصر الشمع[٢].

أما عن البناء فقد كانت هذه الدور تبنى "**بالحجر النحت، والطوب الأحمر وهو الآجر**"[٣]. وأكد ابن سعيد ذلك بقوله "**معظم بنيانهم بالطوب ...، والقصب، والنخيل طبقة فوق طبقة**" فالطوب المستخدم هو الطوب النيئ، من طمي النيل المخلوط بالطين، والرمل، والقش لإكسابها صلابة[٤]. وكانت المنازل من الخارج متشابهة بشكل عام، ومن الداخل أشكالها بسيطة بينما البناء الحجري باهظ التكاليف[٥]. وكان ذلك لميسوري الحال لتغلب المواد الإنشائية المحلية دوراً هاماً في تحديد السمات المميزة لتلك المنشآت فأغلب المواد المستخدمة من البيئة[٦].

وقد اهتم الناس بإعداد أماكن النوم في منازلهم، فصنعوا أسّرة من جريد النخل وعليها وسائد محشوة بالقطن، وبالصيف ينامون فوق الأسطح، وفي أحواش المنازل شيدت مصاطب خاصة لذلك للاستمتاع بالهواء واستخدم الخشب لعمل الدواليب الحائطية لكي لا تمثل حيزاً بالغرف[٧]. ويجب أن نشير إلى أن قلة النظافة، ونقص الوعي وغياب المياه النظيفة يؤدي إلى انتشار العديد من الأمراض بالإضافة لتكدس القمامة، والفضلات بالشوارع، والأزقة إلى انتشار الزواحف، والحشرات الأمر الذي يؤدي لنقل الأمراض للسكان.

الأجور:-

لقد كانت هناك فئة أرباب الحرف الصغيرة، وهم يشكلون قوام شريحة الفقراء مثل السقائين، والحمالين، والحلاقين، والبلانين، وغيرهم من أرباب المعايش والحرف دون أن يكون لهم نصيب عادل في الأجور[٨]؛ فهي طبقة السخرة تميز حياتهم؛ ومن الصعب إيجاد معلومات كافية عن الأجر الذي كان

(1) Joos Van Ghistele, Voyage en Egypte, Caire, 1976. P. 18

(٢) زبيدة محمد عطا ، اليهود في العالم العربي، ص ١٢٢.

(٣) البغدادي، رحلة، ص ١١٣.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٤٠؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص ٣، ٦؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٦٨.

(٥) عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، ص ٧٢؛ ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ١٦٠.

(٦) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٤٠؛ محمد أحمد محمد أحمد، مظاهر الحضارة في الوجه القبلي منذ قيام الدولة الأيوبية حتى نهاية العصر المملوكي، (رسالة دكتوراة، غير منشورة، آداب- أسيوط- سوهاج، ١٩٨٣م)، ص ٢٢١؛ هبة الله محمد فتحي، الأربع والمنازل، ص ١٩٩.

(٧)سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ١١٦؛ هبة الله، المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٨) علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص ٤٦.

يتقاضاه العامل، ولكن من البديهي تفاوت أجور العمال. تبعاً لنوع العمل[١]، وبصرف النظر عن مقدار أجور الفقراء فالأمر يتحدد بقدرة هذه الأجور لشراء ما يحتاجونه لإعاشتهم، وخصوصاً وقت ارتفاع الأسعار أثناء تذبذب منسوب فيضان النيل بما يعني أنه يجب النظر إلى الأجور بمقدار الكيف وليس الكم.

فقد كانت أجرة النساج في أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) نصف درهم بما لا يفي بثمن الخبز الذي يأكله النساج مما أثر هذا على مستوى معيشتهم[٢]. ففي بردية ترجع للقرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) نجد أحد العمال يتقاضى ديناراً في الشهر وأحياناً كان له وجبة للغذاء[٣]. في حين أجرة عمل الثوب ثمن دينار، وخياطة غلالة[٤] المرأة أربعة دراهم وربع في حين أجرة العامل الزراعي اليومي لا تزيد عن سدس دانق[٥] [٦].

وقد كان بمقدور الصناع أن يزيدوا من دخلهم وفقاً لحماسهم للعمل، ولمهارتهم فقد بلغ الدخل الشهري لأحد الصناع دينارين في المتوسط بما يفي لحاجة أسرة بكامل أفرادها من الطبقة الفقيرة شهراً من الزمان، وفي أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كان العاملون أسوأ حالاً بسبب ارتفاع الضرائب[٧]. وفي عام ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م كان عامل البناء يأخذ يومياً خمسة دراهم ووجبة غذائية، بينما كان الصبيان يحصلون على ١,٥، ١,٧٥ درهم بدون وجبة، وقد قدر أحد الباحثين أن أسرة من أربعة أفراد تحتاج لخبز أربع أرطال يومياً، وذلك في عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م بمبلغ ستة دراهم يومياً أي أن عمل شهر كامل لا يفي لشراء الخبز لأسرته[٨].

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٢٤١،٢٤٢؛ أمينة الشوربجي، رؤية الرحالة، ص ٤٠٦؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، ص ٧٨.
(٢) صفي علي محمد عبد الله، مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الفاطمي، (رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية البنات- عين شمس، ١٩٨٥م)، ص ٣٠٨.
(٣)عبد المنعم سلطان، المرجع السابق، ص ٧٨، ٧٩.
(٤) الغلالة: هي ثياب النساء المصنوعة من الأقمشة البيضاء الرفيعة، وقد كانت الغلالة الحريرية المصنوعة من الدبيقي تباع بالعصر الفاطمي بسعر يتراوح بين سبع دنانير وعشرين ديناراً، انظر السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٩؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص ٤١٠.
(٥) الدانق: الدرهم الجاهلي يقدر بثمانية دوانق، بينما الشرعي بستة دوانق، والدانق بفتح النون وكسرها، انظر ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢١٨، ٢١٩؛ أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مادة (د ن ق)، (ط أولى، دار السلام، ٢٠٠٧م)، ص ١٨٨.
(٦) صفي علي محمد، المرجع السابق، ص ٣٠٣، ٣٠٤.
(٧) السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، (الهيئة، القاهرة، ١٩٩١م) ، ص ٤٠٢.
(٨) شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص ٨٠، ٨١.

وقد أشار المقريزي لراتب الفقراء من رجال إقامة الشعائر الدينية، "فالمؤذنون"، ولكل رجل منهم ديناران في كل شهر، ويحصل المشرف على هذا الجامع في كل سنة أربعة وعشرون ديناراً وأما أجرة السقاء، والحبال، والقواديس، وما يجرى مجرى ذلك فكان خمسة عشر ديناراً ونصف"[١]، وفي عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م كان عمل الجسر فيما بين الجيزة، والروضة عهد الملك الناصر حسن محمد بن قلاوون (٧٤٨- ٧٥٢هـ/ ١٣٤٧- ١٣٥١م)، (٧٥٥- ٧٦٢هـ/ ١٣٥٤- ١٣٦١م) "**نادى في الحرافيش، والفعلة من أراد العمل يحضر، ويأخذ أجرته درهماً ونصف وثلاثة أرغفة فاجتمع إليه عالم كثير**"[٢]، وقد كانت أجور أهل الذمة واحدة، وليس هناك اختلاف بين أجور العمال رغم اختلاف ديانتهم، ولكن الأجر وفقاً للمهارة[٣]. ولكن رغم سوء مستوى معيشة أرباب الحرف بالقياس إلى طبقات المجتمع الأخرى إلا أن في معظم الأحوال كان المورد المالي لأصحاب الحرف يكفي لضروريات عيشتهم فقط، ولذا اعتبر أهل الحرف في عداد العامة أو الطبقة الدنيا من المجتمع المصري. ولهذا كله كانت الصناعة وأربابها موضع عطف وتقدير عدد من الكتاب والمفكرين المسلمين[٤].

ومن كل ما سبق، يتبين لنا حقيقة مؤداها وهى أنه كلما انخفض الدخل أدى ذلك لصعوبة في الإنفاق من حيث ضروريات الحياة كالطعام، والملبس، والمسكن وبالتالي يؤثر ذلك على الصحة العامة ومن ثم عدم التحكم في الخبز فيؤدي لعدم التحكم في الفكر بما يقودنا إلى أحداث الشغب. وخلاصة القول فإن الثقافة المادية قد اصطبغت بأوضاعهم وظروفهم الحياتية.

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٥١.
(٢) نفسه، ص ٢٧٢، ٢٧٣.
(٣) زبيدة محمد عطا، اليهود في العالم العربي، ص ١٨٢.
(٤)صفي علي محمد عبد الله، مدن مصر الصناعية، ص ٣٠٢، ٣٠٥؛ أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، (ع١، المجلد ١١، عالم الفكر، الكويت، أبريل مايو يونيو، ١٩٨٠م)، ص ١٣٣.

ثالثاً: مكانة الفقراء في البناء الطبقي لمجتمع القاهرة:

لقد كادت أن تكون الحياة الاجتماعية متشابهة في مصر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين باستثناء حياة الخلفاء، والأمراء، ورجال الحكم[١]. وقبل الدخول لتقسيم المجتمع حسب منظور طبقي، أشار العديد من المؤرخين لطبائع وصفات المجتمع المصري. ففي القرن السابع الهجري نجد ابن ظهيرة يصف أهل مصر فيقول: "**العالم مشغول بعلمه، والعابد بعبادته، والعاصي بمعصيته، وكل ذي صنعة بصنعته**"، أما أبي الصلت فقال: "**الغالب عليهم اتباع الشهوات، والانهماك في اللذات**"[٢]. والمعايش فيها قليلة بينما يجد اليهود، والنصارى عملهم في كتابة الخراج والطب[٣] في حين يصف الرحالة العبدري مصر خلال القرن السابع الهجري بأبشع وصف فيقول: "**حثالة العباد، .... ومستقر لكل من يسعى في الأرض بالفساد ...، واستولى الحسد على قلوبهم، واستوى الغش في جيوبهم**". في حين أن أبي دلامة جاء لمصر ثم رجع فسئل عنها فقال ما يؤكد كلام العبدري بقوله: "**ثلثها كلاب، وثلثها تراب، وثلثها دواب**" فقيل له فأين الناس فقال: "**في الثلث الأول**"[٤] وربما يقصد بهم رجال الشرطة لما اقترفوه معه، ومع غيره في تفتيش الجمارك من أفعال سيئة مشينة بحجة المحافظة على أمن البلاد.

بينما الإدريسي أشاد بأهل الفسطاط بقوله: "**لأهلها همم سامية، ونفوس نقية عالية**" وأضاف ابن سعيد: "**أنهم ألطف من أهل القاهرة ...، يوفون بالعهد يؤدون الأمانة**"[٥]. ولكن كان المقدسي مخالف لذلك الرأي فقال "**لا يتورع مشايخهم عن شرب ولا نسائهم عن الفجور**"[٦]. بينما أشار أحد الرحالة لأهل القاهرة حيث إنهم يتسمون بالفظاظة والتعصب وسلاطة اللسان والاحتيال مع الغرباء في البيع والشراء ويتعدى الأمر للسلب والضرب[٧]. واتفق معه المسعودي، بأنهم ذوو "**مكر، ورياء، وخبث، ودهاء، وخديعة**"[٨] أما ابن بطوطة فأورد جميع طباع أهل الأرض بوصفه لأهل مصر[٩]،

(١) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، ص ٦٦.
(٢)ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص ٢٠٤؛ أبو الصلت، الرسالة المصرية، (تحقيق عبد السلام محمد هارون، نوادر المخطوطات، ج١، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢م) ، ص ٢٤.
(٣) ابن سعيد، النجوم الزاهرة، ص ٢٨.
(٤) العبدري، رحلة العبدري، (تحقيق علي إبراهيم الكردي، ط أولى، دمشق، ١٩٩٩م)، ص ٢٧٦، ٢٧٩.
(٥)الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (المجلد، الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٣٢٣؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص ٩.
(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٠٠ .
(٧) جوزيف بتس، رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة ١٦٨٠م، (ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، س الألف كتاب الثاني، ع ١٨٩، الهيئة، القاهرة، ١٩٩٥م)، ص ٣٨.
(٨) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (ج أول، ط أزهرية، القاهرة، ١٣٠٣هـ)، ص ٣٥.
(٩) ابن بطوطة،رحلة،ج٢، ص١٨؛ مهذب، ج٢، ص ٢٥.

وقد وصف الرحالة الفرنسي دي مونكوتي أهل مصر عندما زارها عام ١٦٤٦م بأنهم لا يحملون ضغينة لأحد، وينفذون العدالة والقضاء. فالمصريون كما قال نابليون أمة وديعة تحافظ على كبريائها[١]. وبذلك اختلفت آراء المؤرخين، والرحالة في حال المجتمع. وإن كنا نأخذ الحيطة في آراء بعض الرحالة حيث أن بعض آرائهم كانت مأخوذة عن مواقف أثناء وجودهم بمصر مثل الرحالة العبدري الذي ظهر من خلال رحلته أنه لا يتورع عن إهانة البلاد وأهلها والمجتمعات التي مر عليها فلم يكن حيادياً بقدر ما كان سليط اللسان وظهر ذلك من خلال آرائه الجافة.

وقبل تقسيم طبقات المجتمع المصري، يجب أن نشير إلى أن القاهرة كمدينة هي أكبر مثال للتعرف على البناء الطبقي للمجتمع المصري خلال القرنين السادس والسابع الهجريين- الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين؛ وذلك لما تحتويه من أعداد غفيرة من سكان مصر لما بها من تعدد الأنشطة التجارية، بالإضافة لكونها العاصمة، وهي الملاذ الأول للقرى، والمدن الأخرى وقت الأزمات مما يتيح لنا التعرف على وضع الفقراء بالمجتمع المصري؛ ولذا يمكن تقسيم المجتمع القاهري في هذه الفترة.

وقد قسم المقريزي المجتمع لسبعة أقسام، وهم على التوالي: "**أهل الدولة، أهل اليسار من التجار وأولي النعمة، الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم السوقة، أهل الفلح وسكان القرى، الفقراء وهم الفقهاء وطلاب العلم، أرباب الصنائع والمهن، وذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال**"[٢]. ولكن لم يكن تقسيماً طبقياً فرأى أن مصر في ذلك الحين حكام، ومحكومين وهو الأمر الذي تشي به كتاباته وتعليقاته على الحوادث التي يسوقها في مؤلفاته، ذلك أنه اكتفى بذكر أهل الدولة دون توضيح نشاطهم الاقتصادي، ثم يوضح دور كل فئة من فئات الرعية وفقاً لرؤيته الخاصة[٣]. وبذلك اقترب رأي المقريزي من ابن خلدون الذي أشار لوجود طبقة حاكمة تمثل السادة، وطبقة المحكومين، ويمثلون بقية الفئات، فقال: أن ملك مصر "**سلطان ورعية**"[٤].

فقد كانت أعلى طبقة قدرا هم طبقة الحكام العسكريين، لهم الامتيازات ويمتلكون الأراضي أما الرعية أصحاب البلاد لهم دفع الضرائب[٥]. فقال عنهم ابن خلدون "**متجاوزون عما يظهرون عليه ....،**

(١) أحمد عوف، مدينة الفسطاط، ص ١٦٠.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٦٤.
(٣) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٦، ١٧.
(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٣.
(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢١٣؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٧.

وفشت المفاسد بالتزوير، والتدليس بين الناس منهم" ورغم ذلك تفاوت معاملتهم للرعية: بين حاكم وآخر، ولكنهم اشتركوا في الاهتمام بأمر مياه النيل لزيادة غلة إقطاعاتهم كما احتكروا الأقوات بينما عاش غالبية الشعب دون المستوى الآدمي(١). ومع تغير الدول يتغير رجال السطوة، والنفوذ فبقيام الدولة الأيوبية انزوى بعض عناصر قمة الهرم الطبقي كالمغاربة والأرمن، وحل محلهم الأكراد، والمماليك فأخذوا قصورهم، ومصادرة أموالهم(٢) ورغم أن الفاطميين حاولوا الاندماج في حياة المصريين، إلا أنهم لم يتابعوهم في مذهبهم الشيعي، وتمسكوا بمذهبهم السني ولكن كان للخليفة حق التصرف بأمور الدين والدنيا دون أن يوجه له نقداً(٣)؛ ويبدو أن ذلك كانت صفة الحاكم بمصر فعندما تولى صلاح الدين "**من يوم موت العاضد ... استولى على خزائن مصر واستبد بأمورهم من غير منازع**"(٤).

ومع ذلك لم يظل ورثة صلاح الدين كثيراً في الحكم بعد وفاته في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م .وبحلول عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م قامت دولة المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية فقد "فاقت سائر الممالك"(٥)، واستأثروا بأعلى الوظائف بالدولة وعزلوا أنفسهم في حياة المصريين لإحساسهم بأنهم غرباء، ولم يسمحوا لأهل البلاد بالمشاركة في شئون الحكم إلا بالقدر المحدود(٦)؛ مما أدى لانعزال المصريين عن الأحداث الكبرى ينفذوا مشيئة سادة البلاد، ويدفعون ما يطلب منهم ليظل الفلاح في حقله، والعامل في مصنعه وقال فيهم الإسحاقي "**كانت أرزاق مصر بأيديهم ... إلى أن أفشى الظلم، والعدوان وأخلوا بشعائر الدين**"(٧)؛ فلقد كانت هذه الطبقة (الحكام) أهم طبقة عانى منها الفقراء، وقد عاش في كنف الطبقة الحاكمة من الإداريين، والماليين، والمحاسبين من أهل الذمة أو الفقهاء؛ وذلك بحكم ما توافر لهم من خبرة في تلك المجالات(٨).

---

(١)ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص ٢٢٥؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٢٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء ١٢، ص ٢٦٧؛ أبو شامة، الروضتين، ج١ ق٢، ص ٥٠٧.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ١٥٩؛ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٦١، ٣٦٢.

(٤)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٦، ٧؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٨١، ٢٨٢، ج٥، ص ٢٨٥.

(٥) الأصفهاني، الفتح القُسي في الفتح القدسي، (ط أولى، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٤م) ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٤.

(٦)ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٩؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٢١؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي بمصر والشام، ص ٣٢٠؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، (الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م)، ص ٩.

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في دولة المماليك البحرية، ص ١٥٧، ١٥٨؛ الإسحاقي، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، (س الذخائر، ع ٣٥، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ،١٩٩٨م) ، ص ١٣٦.

(٨) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٥٦، ١٥٧، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٢٦، ٢٧.

فقد عاش القبط، والنصارى أفضل أيامهم خلال القرنين الخامس، والسادس الهجريين؛ بتولية الوزارة، حيث جمعوا ثروة كبيرة وأمسوا ذا نفوذ، وسلطان وفي أواخر القرن السادس الهجرى أدخل كثير من أقباط مصر في خدمة صلاح الدين. وخلفائه وبحلول عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م كان لهم نشاط بارز في دواوين الحكومة، ولكن الحكومة كانت تقصيهم عن الوظائف بين حين وآخر تقرباً للشعب[١] وقد عمل من كنف أهل الذمة صغار الصيارف من الأقباط، وقد ساعدوا على بؤس الفلاحين لانفصال إدارة الصيارف عن إدارة المشايخ المحليين[٢].

أما رجال القضاء، والمعممون فقد لعبوا دوراً هاماً في مساندة الحكام لأخذ الفتاوى في كثير من تصرفاتهم، ومن امتنع عن ذلك كانت النتيجة النيل من امتيازاتهم، ولكنهم عارضوا الحكام أحياناً لإعلاء كلمة الحق[٣] فقد حكى ابن بطوطة عن الناصر محمد أنه قال: "**إنى لا أخاف من أحد إلا شمس الدين الحريرى**"[٤] ومع ذلك قال فيهم الرحالة العبدرى "**وعالمهم: أجهل من فراش**"[٥].

أما فئة مياسير التجار، وأولوا النعمة فقد تمتع كبار التجار باحترام الحكام، وكبار رجال الدولة، وكان الحكام حريصين على عدم تعرضهم للخسائر أو المصادرات[٦] وقد انقسم التجار داخلياً لقسمين ألا وهما كبار التجار من الأثرياء أصحاب السلع الثمينة كالمجوهرات، وأما صغار التجار فهم من الباعة وكان اتصالهم بالشعب؛ وقد عمد حكام الدولة تقريب التجار منهم لمساعدتهم بالمال وقت الأزمات فقد كانوا هم حلقة الوصل أحياناً بين الحكام، والمحكومين فقد أثروا في الشعب وتأثروا بهم، وبذلك يمكن تسميتهم (بياض العامة)[٧].

أما المحكومون فهم "أصحاب البز وأرباب المعايش فإنهم في هذه المهن يعيشون مما يتحصل لهم من الربح"، ومنهم الفقهاء وطلاب العلم وغيرهم من أرباب المهن والفلاحة، وأهل المسكنة فكل هؤلاء يطلق عليهم العوام، وكما عانوا من فترات الاضطراب تأثروا كثيراً بمظاهر البذخ خلال تلك الفترة من التاريخ المصرى[٨] فقد سئل الكواكبى عن العوام ثم أجاب بقوله "**هم أولئك الذين إذا جهلوا**

(١)على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص٤٨٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ٤٢
(٢) هاملتون جب وهارولديوون، المجتمع الإسلامى والغرب، (ج١، ترجمة أحمد عبد الرحيم، المعارف، القاهرة، ١٩٧١م)، ص٩٧.
(٣) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعى، ص٢٤-٢٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص١٥٩.
(٤) ابن بطوطة، رحلة، ج١،ص٢٥؛مهذب،ج١،ص٣٤.
(٥) العبدري، رحلة، ص٢٧٦، ٢٧٧.
(٦) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٣٠.
(٧) نفسه، ص ٣٣٠؛ البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ج١، ص٢٩١، ٢٩٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص٣٤، ٣٥؛ محمد عمارة، الكواكبى، ص٨٧.
(٨)المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٦٥-٦٧؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، ص٢٩٨.

خافوا، وإذا خافوا استسلموا، وهم الذين إذا علموا قالوا، وإذا قالوا فعلوا"[١] فهم سواد سكان القاهرة وعاشوا على هامش الحياة لصالح السلطة الحاكمة، ليقتصر دورهم في منظور الدولة على دفع الضرائب؛ فقد خضعوا لأسعار السوق، وعندما تسوء أحوالهم كانوا يصرخون بالشكوى من وجه حكامهم الجوع ... الجوع، ليجدوا بعض العطف أحياناً من رجال الدولة وحكامها[٢].

فقد عانت فئة من المعممين حالة شديدة من الفقر وهم أرباب الوظائف الصغرى، وطلاب العلم، وعمل بعضهم في حرف بسيطة لتساعدهم على الحياة مثل حرفة النسخ التي عمل بها كثير من فقراء المعممين لقربها من مجال عملهم[٣]. فقد قال العبدرى "**من الضرائب عندهم تضييع المساجد، والجوامع، وإهمالها ... حتى تصير مثل المزابل**"[٤] وإن كان العبدرى قصد الحكام فإن الفقهاء شاركوهم في ذلك.

ورغم وجود الأوقاف التي تضمن لرجال العلم نسبية من سعة العيش إلا أن ذلك توقف على قيمة الوقف الموقوف، وكان التعليم هو السبيل الوحيد لوظائف الوزارة، والقضاء، وغيرها[٥] فالعوام هم قوة المستبد وقوته بهم عليهم يصول ويطول بأسرهم فيتهللون لشوكته وعندما يأخذ أموالهم يحمدونه على إبقائه حياتهم![٦]. وقد أشار رسول من قبل ملك الروم جاء للظاهر بيبرس؛ فبعد أن دار بالقاهرة قال لهم في وضع العامة "**هؤلاء جميعاً ما خرجوا إلا لشراء عشائهم من السوق ....، ولو تعذر السوق عليهم لماتوا جميعاً من الجوع**"[٧].

فقد عاشت طبقة المحكومين مكبلين بأغلال الفقر، مقيدين بأعباء الحياة يفصل بينهم، وبين الحياة الهادئة سدود من الظلم؛ وإذا كان ثمة تدرج في المستوى الاقتصادي بين الشرائح الاجتماعية داخل الطبقة المحكومة فإن الجميع كانوا رعايا من وجهة النظام الإقطاعى بما يعنى لكل فئة مكانتها؛ المهم أنهم عاشوا

---

(١) محمد عمارة، الكواكبي، ص١٦٩.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٢- ٢٩؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص٦؛ عبد المنعم سلطان، الأسواق في العصر الفاطمي، ص١٨٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في دولة المماليك البحرية، ص١٦١.
(٣)ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٥٠- ٣٥٣؛ حسن أحمد عبد الجليل، المعممون ودورهم في مصر عصر سلاطين المماليك، (رسالة ماجستير، غير منشورة، أداب القاهرة، ١٩٩٥م)، ص١٨١، ١٨٦.
(٤) العبدري، رحلة، ص٢٨٠.
(٥)ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٥٩- ٣٦١؛ عبد الرحمن الرافعى، سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في العصور الوسطى، ص٣٩٦؛ محمد عبد العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون، ص٤٠-٤٣.
(٦) محمد عمارة، المرجع السابق، ص١٨٠.
(٧) العبدري، المصدر السابق، ص٢٨١، ٢٨٢.

بمعزل عن طبقة الحكام[1] ومن هنا نشأ الظلم الاجتماعي، وكانت الفوارق بين الطبقـات، وقـد لخـص الكواكبى مال الفقراء ووضعهم بقوله: "**رجال السياسة والأديان، ومن يلتحق بهم وعـددهم لا يتجـاوز الواحد في المائة ...، مثال ذلك أنهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحيانـاً ولا يفكرون في ملايين الفقراء**" ثم يشير لأهل الصنائع النفيسة، والتجار المحتكرين فهـم يعيـشون بمثـل ما يعيش به ألوف الصناع، أو الزراع[2]. فعلى مر التاريخ المصرى وجدت فئـة لا بـأس بهـا مـن المصريين وبسبب الظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية استحق أن يطلق عليهم فقراء ليصبحوا بظروفهم تعريفاً لمعنى الفقراء لما نالوه من وضع متدنى؛ يصارعون من أجل البقاء دون وجـود مـن يساعدهم لاسيما القليل، ولكن ليس بالقدر الكافى ليصبحوا نسيجاً من المجتمع المصرى يصعب تجاهلـه، فلم يكن للفقراء وضع في البناء الطبقي للمجتمع المصري فهم أقل شريحة بالمجتمع بل العامة فـي كـل شيء؛ فدائماً عليهم واجبات وحقوق ولابد من تأديتها رضوا أم لم يرضوا.

فقد قال القاضى الفاضل فيهم "**أهل مصر على كثرة عددهم ... مساكين يعملون فـي البحـر، ومجاهيد يدأبون في البر**"[3]. وقد فاضت الأمثال بشكل مستفيض لوضع الفقراء مثل "**إن عاشوا أكلـوا الذبان وإن ماتوا ما يلاقوش الأكفان**" وهو خير مثل لشرح حال الفقير في حياته وموته[4]. فلقد اعتـاد المؤرخون وصفهم بالحقارة، والدناءة؛ وذلك لأوضاعهم التي فرضت عليهم من خلال أعمالهم: "**فهـم أرباب المهن، والأجراء، والحمالون، والخدم، والسواس، والحاكة، والبناة، والفعلـة ونحـوهم**" فقـد اهتمت بعض المصادر بالأدوار السلبية لبعض الفئات من الزعر، والحرافيش، والشطار، وغيرهم مـن سواد العامة في إطار أعمال حوت في مضمونها اللغوى سوء الخلق، والسفالة، والغلظة، وغير ذلك[5]. فيمكن القول أن الفقراء هم قطاع عريض من الصناع، والباعة، والـسوعة، والمكـاريين، والمعـدمين وأشباههم وقد عاش هؤلاء في ضيق وعسر بالقياس لغيرهم من الطبقات[6]؛ فقد كان أبسط مثل علـى

(١) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص٤٨؛ إبراهيم على طرخان، مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص٢٥٠، ٢٥١.
(٢) محمد عمارة، الكواكبى، ص١٠٢.
(٣) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٠٠.
(٤) أحمد تيمور، الأمثال العامية، ص١٠٠.
(٥)المقريزي، إغاثة الأمة، ص٦٦، ٦٧؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص٣٥.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، ص ٦٥- ٦٧؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٥٠ - ٣٥٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك، ص٣٧، ٣٨؛ العصر المماليكي بمصر والشام، ص٣٢٤، ٣٢٥.

وضعهم بالمجتمع أن سائر الفقراء لا يعترضون بالقبض للأسطول إلا المغاربة لمعـــرفتهم بـــالبحر[١] . فقد أشار أحد الباحثين: إذا ما اجتمع المال لأحد فهو صاحب الدار، وأما الفقير فغريب في وطنه[٢].

وفي طى النوبات، والهزات الاقتصادية العنيفة: كالمجاعات التي اكتسحت مـــنهم الآلاف أدى ذلك لالتجاء البعض منهم للعمل في ألوان الكسب غير المشروع، ولقد ساعدت الاضطرابات بـــشكل عام من خلال الحروب الصليبية على زيادة حالة الفقر في البلاد، لما أنفق من أموال فيها فقد أنفقـــت معظم الموارد المالية للبلاد على أعباء الحروب التي خاضها الأيوبيون[٣].

والواقع أن الطبقة العليا لم تكن تخلو من العنهجية في التفكيـــر، والنظـــرة للـــشعب بـــروح الاستعلاء، مما أدى لترك أمور سيئة في نفسية الآخرين، وهذا الوضع جعل الفقير مجبـــراً بخدمـــة الغنى، ومحروماً من العزة الاجتماعية ليصبح الفقراء كالعبيد لتؤكد تلك الفكرة سيطرتها على الفقراء ممزوجة بحقد تلك الضعفاء، يتحينون الفرصة رغبة في الانتقام بشكل يتيح لهم إعادة توزيع الثـــروة الاقتصادية والوجاهة الاجتماعية[٤]. فلقد عاش الشعب المصرى في شكل حلقات متشابكة ولابد مـــن ترابطها ببعض وإلا انهارت المنظومة الاجتماعية، فكل طبقة تستفيد من الأخرى إما بطريق مباشر، أو غير مباشر، وأكثر من استفادوا هم من كونوا الحلقة الكبرى (الحكام ومعـــاونوهم)، وأقـــل مـــن استفادوا من كونوا الحلقة الصغرى (أرباب الـــصنائع، وذووا الحاجـــة، والفلاحـــون، والمعـــدمون، وأصحاب المعايش)؛ وذلك لأن ليس بعدهم من يستفيدون منهم أو العيش على كدهم فترك لهم دائمـــاً على مر العصور الفتات إن وجد.

فالفقراء بالمعنى الاجتماعي هم الذين يفتقرون إلى الممتلكات الماديـــة، أو مـــن لا يمتلكـــون ما يكفيهم لسد احتياجاتهم من غذاء، وملبس، ومسكن، أو من يعملون بأجر يكفى يومهم فقط: كأرباب الصنائع، وأصحاب المهن، والمعايش ولذا استسهل البعض منهم مهنـــة الـــشحاذة، والفتـــوة، وهـــذا ما نقصده من دراستنا من حيث وضع الفقراء في المجتمع المصرى؛ في حين يرى البعض أن الغنى يمكن أن يكون فقيراً بالنسبة لمن هو أغنى منه، وهذا هو التفكير من مفهوم تعريف الفقراء من وجهة نظر فلسفية، وليس لنا علاقة بها، إنما كان القصد التعريف من وجهة نظر اجتماعية؛ حيث تعريـــف الفقراء كأبسط شرائح المجتمع.

(١) ابن سعيد، النجوم الزاهرة، ص٣٠.
(٢) أحمد رشدى صالح، (الأدب الشعبى، الطبعة الثانية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م)، ص ٦٤.
(٣) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبى، جـ١، ص٥٦؛ شلبى جعيدى، طبقة العامة في مصر، ص٦٦.
(٤) أحمد شعلان، الشعب المصري، ص٨٩، ٩٣، ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣-١٠٥.

رابعاً: المهاجرون من الداخل ومن الريف:

القاهرة:-

إن الأساس الشكلى لأي مدينة يختلف في مظهرها وشكلها الخارجى عن الريف من حيث التنظيم، فالقاهرة المعزية هي رابع موضع انتقل سرير السلطنة إليه من مصرفى الدولة الإسلامية(١). وقد اختصها جوهر الصقلى في عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م لتكون حصناً فيما بين القرامطة، وبين مدينة مصر (الفسطاط) ليقاتلهم من دونها(٢). وتقع مدينة مصر جنوبها(٣)، ويراها بيلوتى في القرن التاسع الهجرى أنها أكبر مدينة في العالم من بين المدن(٤) ولقد أدى النيل إلى نشأة أول قاعدة للبلاد المصرية التي اختطها المسلمون بعد الفتح الإسلامى عام ٢١هـ/٦٤١م، مما أثر في تطور العمارة بدءاً في تشييد المسجد الجامع والمنطقة المحيطة سوقاً، فقد ساعدت تأسيس القاهرة على نهضة الفسطاط(٥)، وقدر للقاهرة أن تلعب دوراً هاماً في التاريخ العربى، ومطمعاً للغزاة لتصبح بذلك أهم حضارة إسلامية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين – الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين.

المهاجرون من الداخل:-

رغم أن القاهرة "**منزل سكن الخليفة ...، وأهل الدولة**"(٦) بينما سكن التجار والعامة، والعسكر الفسطاط لتركز التجارة بها(٧). إلا إنه كان للعامة نصيب في القاهرة بالهجرة الإجبارية فلم يكن أهل الفسطاط يرغبون في سكن القاهرة بقدر ما أجبرتهم الظروف القاسية لذلك، واختلاف وضع المدنيين خلال القرنيين السادس والسابع الهجريين؛ فقد كان لخراب الفسطاط سببان أحدهما الشدة العظمى في خلافة المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م)، والسبب الثانى حريق مصر في عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م في وزارة شاور بن مجير السعدى (رجب ٥٥٩-ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ مايو ١١٦٣ – يناير ١١٦٨م)(٨). فقد كانت بداية الشدة المستنصرية عندما قصر النيل عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م(٩).

---

(١) المقريزي، الخطط، جـ٢، ص١٥٧؛ عدنان محمد فايز، عمران القاهرة، ص٤٣،٤٤.
(٢) المقريزي،المصدر السابق،نفس الجزء، ص١٧٩؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٠٠ ؛ أبو حامد المقدسي، الفوائد النفيسة، ص ١٢ .
(٣) ناصر خسرو، رحلة، ص١٠٢.
(4)Dopp.: Op. Cit. , p.131.
(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، (ط لندن، ١٩٢٠م)، ص٩٢؛ البلاذرى، فتوح البلدان، (جـ١، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م)، ص٢٤٩؛ أندريه ريمون، القاهرة، ص٥٩.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٥٩، ١٨٠.
(٧) البيير جبريل، حفريات الفسطاط، (ترجمة عل بهجت، ط أولى، دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٨م)، ص١٣.
(٨) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٣٧، ج٤، ص١٣؛ عز الدين المقدسي، المفاخرة الباهرة، ص١٢٤.
(٩) المقريزي، إغاثة الأمة، ص١٤.

واستمرت المجاعة حتى عام٤٥٤هـ/١٠٦٢م بالإضافة لفتنة العبيد، والجند الأتراك، وتحكم المستنصر بأمور الدولة، ومن أجل هذه المجاعة في عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣م دخل أمير الجيوش بدر الجمالى مصر، وشمل المصريين الموت، والخراب بالإضافة لفساد طوائف العبيد فأباح للناس البناء حيث "**يعمر ما شاء في القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها؛ فأخذ الناس في هدم المساكن، ونحوها بمصر، وعمروا بها في القاهرة**"(١) وقد عمل بدر الجمالى عملاً يحسب له فرأى أن الأحداث الأخيرة أيام الشدة المستنصرية(٢) أوجبت تحصين القاهرة من الغزوات الخارجية، وثوارت الجند الداخلية فأحاطها بسور في عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م بعد اندثار سور جوهر الصقلى وبالسور أبواب النصر، والفتوح، وزويلة لتصير مساحة القاهرة ٤٠٠ فداناً، وما حدث من بناء بين السورين القديم، والجديد سمى بين السورين(٣).

وقد وصلت العمارة أقصاها في عهد الآمر بأحكام الله (٥١٥هـ-٥١٩هـ / ١٢٢١-١٢٢٥م)، ووزيره المأمون (شوال ٥١٥ – رمضان ٥١٩هـ / ديسمبر ١٢١١ – أكتوبر ١١٢٥م) الذي شجع الناس على العمارة، وذلك بالمناداة ثلاثة أيام في القاهرة ومصر بأن من له دار في الخراب فليعمره فنقل الناس ما كان بالقطائع، والعسكر من أنقاض(٤)، وعمر الناس البيوت في الشارع الأعظم حتى صارت مصر والقاهرة لا يتخللها خراب، وقد جعلت شوارع المدينة ضيقة عن قصد بسبب حرارة الجو(٥)، ويعتبر الامتداد الأول للقاهرة كان خارج أسوارها الشمالية، والجنوبية التي شيدها جوهر الصقلى، وتم الامتداد مع بداية القرن الخامس الهجرى، عندما اختطت حارة الحسينية شمال القاهرة، وبناء الجامع الحاكمى (٤٠٤هـ/١٠١٣م) فوصلت بذلك القاهرة لدرجة من الرقى وبالغت الحكومة والأهالى في تحسينها حتى اتصلت بالفسطاط فصار بلداً واحداً(٦).

أما الحادثة الثانية التي أثرت على وضع الفسطاط وبالتالي الهجرة للقاهرة هو حريقها(٧)؛ وسببه استيلاء شاور على الوزارة بمصر بالقوة في صفرعام ٥٥٨هـ/١١٦٢م ثم خلافه مع ضرغام

(١)المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٣٧، ١٣٨، ج١، ص٦.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص١٩-٢٢.
(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٣٧- ١٤١، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١١؛ على مبارك، الخطط، جـ٣، ص٢٦١؛ سعاد ماهر، القاهرة القديمة وأحياؤها، (دار القلم، القاهرة، ١٩٦٢م)، ص٣٢؛ على مبارك، المصدر السابق، جـ١، ص٣٢.
(٤) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٩٠.
(٥) نفسه، ص ١٩٨؛ على مبارك، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٥٨؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص٧٦.
(٦) المقريزي ، المصدر السابق، ج٣، ص٣٦؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٤٠؛ أيمن فؤاد، التطور العمرانى لمدينة القاهرة، (الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص٣٧؛ على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص٤٢٥.
(٧) البيير جبريل، حفريات الفسطاط، ص١٤.

مما أدى لتدخل القوى الخارجية مثل نور الدين الذي أعاده للوزارة وبحلول عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م قتل شاور ضرغام واستنجد بالفرنج حماية له من نور الدين ثم خرجوا، ودخلوا بقيادة عمورى عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م ثم جاء شيركوة، وصلاح الدين حتى حدث الصلح[١]. وفي أيام العاضد عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م استولى الفرنج على الديار المصرية، وأرادوا أخذ الفسطاط فأشار شاور على الخليفة العاضد بحرقها "فلما أحرقت مدينة الفسطاط تحول الناس إلى القاهرة" فخاف الفرنج ورحلوا عن مصر وكان سبباً لخراب الفسطاط[٢]. وأثناء الحريق، ترك الناس أملاكهم، ونزلوا بمساجد، وحمامات، وأزقة القاهرة؛ وصاروا مطروحين بأولادهم، واستمرت النار تأتي على مساكن الفسطاط من يوم ٢٩ صفر لمدة ٥٤ يوماً[٣] ومن ثم خربت مصر الفسطاط، وتلاشى أمرها، وذهبت أموال الناس ولكن شيركوه أمر الناس بالرجوع فتراجع إليها الناس قليلاً، وعمروا ما حول الجامع[٤]، ليصبح أواخر القرن السادس الهجرى – الثاني عشر الميلادي هو بداية ظهور نجم القاهرة لتبتلع ما حولها من مدن إسلامية.

وفي عام ٥٦٧هـ/١١٧١م أقام صلاح الدين الجمعة الثانية من المحرم بالقاهرة[٥]، لتعلن قيام الدولة الأيوبية، وجعل القاهرة سكناً للعامة، فصارت خططاً، حارات، شوارع، مسالك، وأزقة[٦] وترجع رغبة صلاح الدين فى أن يجعل القاهرة سكناً للعامة إلى محاولة لمحو كل ما هو فاطمي بالإضافة لحرق الفسطاط[٧]؛ وخوفاً من العدوان الصليبي على عاصمة البلاد، والفسطاط فقام بهدم كثير من الأهرامات الصغيرة لبناء سور القاهرة على يد قراقوش محيطاً بالفسطاط، والقاهرة، وما بينهما، والقلعة التي بالمقطم[٨] فقد امتد السور حتى انتظم بالمدينتين[٩]؛ وقد عمل بالقاهرة سور ثلاث مرات

(١) الأصفهاني، الفتح القُسي، ص ٢٧، ٢٨؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص١٤١-١٤٣؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص٤٤٣-٤٤٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص٦٧،٦٨؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٠؛ أبو حامد المقدسي، الفوائد النفيسة، ص ١٣؛ محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، (دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٧م)، ص١١١.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٤٣، ج٤، ص ١٣؛ أبو شامة، الروضتين، جـ١ ق٢، ص٤٣٢، ٤٣٣؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ٥، ص٢٠٨؛ عز الدين المقدسي، المفاخرة الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، ص ١٢٤.

(٤) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٤٤؛ ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٨١.

(٥) الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٢٩ ؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٤٤؛ ابن إياس،المصدر السابق،نفس الجزء، ص٦٩.

(٦) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٨٤؛ ابن سعيد، النجوم الزاهرة، ص٢٥.

(٧) المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٤، ج٤، ص ١٣؛ أبو حامد المقدسي، المصدر السابق، ص ١٣، ٢١؛ سحر السيد إبراهيم، الهجرات، ص٢١، ٢٢؛ عدنان فايز، عمران القاهرة، ص٢٢٦.

(٨)ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٥٢، ٥٣؛ البغدادى، رحلة، ص٩٠.

(٩) ابن واصل، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٦٧؛ ابن جبير، رحلة، ص٢٣؛ القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، (الجزء الأول، الطبعة، الأولى، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م)، ص٢٤٠.

على يد القائد جوهر ثم أمير الجيوش بدر الجمالى، والمرة الثالثة على يد قراقوش أثناء سلطنة الناصر صلاح الدين، الذي ابتدأ في عمارته بحلول عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م وزاد في سور القاهرة القطعة التي من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر وقد كان يول كازنوفا أكثر رؤية، فقد أشار إلى أن صلاح الدين كان له مشروعات بالنسبة للسور يختلف كل منهما عن الآخر أحدهما في عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م لترميم السور أما الثاني في عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م كمشروع حربي[١].

وقد أمر صلاح الدين الأيوبي: ببناء السور بالحجر الجص المنحوت عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م وكانت أبواب القاهرة خمسة عشر باباً غير ما في السور، بينما أشار كازنوفا أن سورعام ٥٧٢هـ/١١٧٦م لتوسيعه، وزيادته[٢]. والأسوار بداية من القرن السادس الهجرى، لم تلعب دور الفصل بين المدينة، والريف أو بين العامة، والخاصة فقد زحفت غالبية المدن خارج أسوارها وتجاوزتها بحيث أصبح للمدينة أبنية حولها فزادت في الاتساع، والعمران، وقد بلغ طول سور القاهرة نحو ١٥كم[٣] حتى انتشر بها عدد من الحرف، والصناعات، وانتقل إليها العلماء، والأغنياء، وأصحاب الحرف، والصناعات[٤]. ويرى بلوتي أن القاهرة أجمل بلد في العالم[٥]. وفي القرن السابع الهجرى وصف ناصر خسرو المدينتين بعد بناء السور بقوله: "**بين مدينتي مصر، والقاهرة أقل من ميل، ويمر بهما النيل**"[٦] بينما قال فيها ابن ظهيرة: "**أنها أعمر مدينة بكثرة الخلق فيها وضيقة لكثرة الناس**"[٧] ومع ذلك؛ يرى ابن سعيد أن الفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة، لكنه أعطى للقاهرة وضعها بأنها أكثر عمارة واحتراماً من الفسطاط لتبلغ القاهرة، والفسطاط أوج عمرانها بداية من القرن السابع الهجري – الثاني عشر الميلادي بإقامة المنشآت الاجتماعية والدينية والعلمية[٨] لتسهم مؤسسات التعليم في تشجيع الهجرات السكانية إلي القاهرة، وهو أمر أسهم بلا شك

(١) المقريزي، الخطط ، ج٢، ص٢٠٤، ٢٠٨؛ أبو حامد المقدسي، الفوائد النفيسة، ص ١٢؛ بول كازنوفا، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، (ترجمة أحمد دراج، المكتبة العربية، ع ١٤٤، الهيئة، القاهرة، ١٩٧٤م)، ص٤٩.
(٢)ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص٧٠؛ بول كازنوفا، المرجع السابق، ص٤٩.
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٢، ص ٥٢، ٥٣؛ على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص٤٣٩؛ عمرو عبد العزيز، العمران في مصر، ص١٤٠؛.
(٤) بنيامين التطيلى، رحلة ،ص١٥٦؛ المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص٣١، ١٦٣.
(5) Dopp.: Op. Cit. P. 17
(٦) ناصر خسرو، رحلة، ص١٠٨.
(٧) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص١٨٨.
(٨)ابن سعيد، النجوم الزاهرة، ص٢٧؛ عز الدين المقدس، المفاخرة الباهرة بين عرائس متنزهاتها، القاهرة، ص١٣٣؛ سحر السيد إبراهيم، الهجرات، ص ٢٦،٢٨.

في الازدهار العمراني لاحتياج هؤلاء لمساكن يأوون إليها، بالإضافة لمتطلبات الحياة، وبذلك استطاعت القاهرة أن تجذب إليها رجال السلطة الحاكمة ليكونوا تشجيعاً للعامة حول بيوتهم، وإقامة الحوانيت التجارية والأسواق[١]. فقال فيها العبدري: "**ساكنها يحاكي عدد الرمل**"[٢] فخلال القرن السابع الهجري لم يترك قطعة أرض فضاء داخل حدود القاهرة من جنوبها إلي شمالها إلا وأقاموا فيها الأبنية المتعددة وخصوصاً المساجد، والأضرحة[٣]؛ مما كان له الأثر على إقبال الفقراء، والمحتاجين على الهجرة لها، لا سيما بعد أن ذابت الفسطاط بها.

ويؤكد ذلك قول مؤرخنا المقريزي في أيام المنصور قلاوون حيث "**اتصلت عمائر مصر، والقاهرة فصار بلداً واحداً**" تشمل المنشآت الأخرى كالخطط، والجوامع، وغيرها[٤]. ويعتبر عهد محمد بن قلاوون فترة تجديد عمراني شملت القاهرة بأجمعها؛ لتصبح أكبر دولة في المنطقة فعمرت أنحاء القاهرة الأربعة[٥]، وكانت هناك صفة مميزة لتلك الحقبة وهى عند إقامة إحدى المدارس أو الجوامع يكون ذلك إيذاناً بتعمير المنطقة[٦]، مثلما فعل بيبرس عند بنائه جامع شمال القاهرة بالحسينية عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م بميدان قراقوش لتعمر تلك المنطقة لتصبح من أعمر مناطق القاهرة[٧]. وتعتبر القاهرة وامتدادتها صوب الجنوب في اتجاه القلعة، ومسجد ابن طولون خلال القرن السابع الهجري مركز النقل الاقتصادي لمصر[٨]؛ مما يتيح الفرصة لتجمع الصناع، والحرفيين في هذا الموقع متنفساً لهم.

ولعلنا نرى اختلافاً بين وصف القاهرة لابن جبير وابن سعيد خلال الرحلتين فالأولي كانت في بداية العهد الأيوبي وكانت القاهرة تبدأ تاريخها الحقيقي في القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي، عاصمة لمصر، والعالم العربي علي استحياء أما في الرحلة الثانية كانت قد اكتملت كل المقومات التي تجعلها عاصمة عالمية[٩]. فيما أشارت كلمات ابن سعيد بقوله: "**والقاهرة أجد،**

(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٨٤؛ ابن سعيد، النجوم الزاهرة، ص ٢٥؛ عدنان فايز، عمران القاهرة، ص ١٢٤،٢٩.
(٢) العبدري، رحلة، ص ٢٧٤،٢٧٥.
(٣) عمر طوسون، مالية مصر من عهد الفراعنة إلي الآن، (ط الثانية، مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص ١٦٣.
(٤) المقريزي، المصدر السابق ، نفس الجزء، ص ١٨٥.
(٥) بول كازنوفا، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٢١؛ سحر السيد، الهجرات، ص٤٠٣.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص ٨٧، حيث كثرة الخلق تجاه الروضة فأمر بيبرس بإقامة الخطبة في جامع بالروضة بعد أن كانت اسقطت منه.
(٧) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٩١.
(٨) خالد عزب، الفسطاط، ص٦١.
(٩) عمرو عبد العزيز، العمران في مصر، ص٢١٣، ٢١٤.

وأعمر، وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان لها"[١]. في حين وصفها الرحالة جوزيف بتس بأنها مستودعاً للغرباء[٢] وبالإجمال كانت المدنية في أواخر القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي، تتجلى من أبهى صورها ولم يبق من الفسطاط إلا كيانها القائم فيما بين النيل والمقطم فقد كان النمو العمراني للقاهرة، وملأ الفراغات، والفواصل بين مدينتي مصر الفسطاط، والقاهرة، والقلعة ليظهر مجتمعاً حضرياً كبيراً في القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي[٣] فكل ما وصلت إليه القاهرة خلال القرنيين السادس، والسابع الهجريين – الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين كفيلين بأن يكونا سبباً للهجرة لها سواء كانت إجبارية أم اختيارية.

المهاجرون من الريف:-

يعتبر الريف عصباً لاقتصاد أي دولة زراعية؛ ومن أجل ذلك عانى أهل الريف العديد من الأزمات سواء كانت اقتصادية أو إدارية حيث وقع على كاهلهم عبء المحافظة على مقدار الخراج – العامل الأساسي بموارد الدولة – دون النظر للمجاعات والأوبئة، وظلم السلطة التي عاش فيها أهل الريف، مما أدى بنهاية الأمر لهجرة العديد منهم للعاصمة القاهرة؛ بحثاً عن سبل الحياة، وأملاً في العيش بكنف طبقة العامة. وعلى هذا الأساس، سنحاول إبراز أهم النقاط التي أدت لتلك الهجرات، دون تكرار ما سبق ذكره بالفصل الأول.

فقد كان الهرب من الريف إلي المدينة حالة شهدت بها المصادر، وربما شعروا أنهم يستطيعون إيجاد الغلال في مكان أرخص من غيره[٤]؛ فلقد تعرض الريف المصري خلال القرنيين السادس والسابع الهجريين لمجموعة من المجاعات، والأوبئة[٥]، مما أدى لتأخر الزرع، ويؤكد لذلك: ما رسمه لنا البغدادي من صورة لمجاعة ٥٩٥هـ/١١٩٨م فقال "**واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات، والجيف،** ...."[٦] وفي عام ٥٩٦هـ/١٢٩٦م كان الفلاح بالريف يموت وبيده المحراث[٧] وبذلك لم تجد الجسور من يقوم بها، ولا القرى من يعمل لصالحها، وعدمت الأبقار[٨]؛ فأدى ذلك لهجرة العديد من الفلاحين للمدن

(١) ابن سعيد، المغرب من حلي المغرب، ص١١.
(٢) جوزيف بتس، رحلة، ص٣٣.
(٣) البيير جبريل، حفريات الفسطاط، ص١٧، ١٨؛ خالد عزب، الفسطاط ، ص٧٨.
(٤) الشربيني، هز القحوف، ص ١٢٦؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٢٩.
(٥) ورد ذكر تلك المجاعات بالتفصيل في الفصل الأول.
(٦)المقريزي، إغاثة الأمة، ص٣٦؛ البغدادي، رحلة، ص١٣٢.
(٧) المقريزي، المصدر السابق، ص٢٥.
(٨) المقريزي، السلوك، ج١ ق١، ص٢٥٨.

خوفاً من الجوع وبالأخص القاهرة[١]. وبدخول عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م هبط النيل، وغلت الأسعار ليصبح أردب القمح بمائة درهم، ومع هبوب رياح سوداء من بلاد برقة عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م، فسد الزرع كالأرز، ليصل سعر أردب القمح إلي مائة وتسعين درهماً، وكثر الوباء في الأرياف، والقرى، ومات الكثير؛ ومنهم من مات بمزارع الفول، ولايستطيع الحراس ردهم لكثرتهم[٢]. وتكررت تلك الرياح في أواخر ذي الحجة عام ٦٦٧هـ/أغسطس ١٢٦٨م فأصابت الثمار صعقة أهلكتها، ونتيجة لتلك الأزمات التي تعرضت لها القاهرة تدهور الوضع الاقتصادي في الصناعة، والتجارة فلم يجد هؤلاء المهاجرون صناعات، أو أعمالاً يؤدونها وبالتالي أصبحوا عبئاً زائداً على القاهرة بشكل أدى لتأثر مجمل الاقتصاد المصري من آثار تلك الهجرات، وقد أدى العجز في الأيدي العاملة وارتفاع أجورها لانخفاض الإنتاج الزراعي[٣]. فكثرت بالتالي جمهور الشحاذين لدرجة أن بعض الناس ادعى الحاجة، والفقر حتى ينالوا حظهم من الصدقات التي توزع أحياناً زمن المجاعات؛ فمن لم يجد له مأوى، أو مصدراً للرزق كانت الشوارع، والجوامع مسكناً لهم[٤].

وقد كان للإقطاع دور كبير في تلك الهجرات، فالإقطاع هو قطعة من الأرض تعطي لشخص ما[٥]. ونظراً لما حدث من ظلم في توزيع الإقطاعات، فقد أشار أحد الفقهاء لما يجب أن يفعله السلطان حيث "**ينظر في الإقطاعات ويضعها موضعها ... ويكف أيدي المعتدين**" وخلال القرنيين الخامس والسادس الهجريين أصبح ما يطلق عليه "إقطاع" هو منطقة زراعية مؤجرة مقابل مبلغ اتفاقي يطلق عليه "قبالة" ويسمى المزارع المقيم في البلاد "**فلاحاً قراراً**"[٦] وعندما استشعر القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي في عام ٥٠١هـ/١١٠٧م من اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين تحدث مع الأفضل في حل الإقطاعات جميعها وأن يروكها[٧] [٨] فأدى ذلك لارتفاع خراج مصر في عهد وزارة الأفضل إلي ٥,٠٠٠,٠٠٠ دينار وأقبل الجند، والأمراء علي العناية بالأرض؛ فزاد الخراج العين حتي بلغ مليون

(١) البغدادي، رحلة، ص١٣٢.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص٢٦-٣١؛ علي مبارك، الخطط، ص٧،ص٢٧.
(٣)السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٧٦-١٧٧؛ المقريزي، المصدر السابق، ص ٢٤، ٢٥، ٢٨- ٣٠، ٤٠، ٤١ .
(٤) قاسم عبد قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٧٢؛ سحر السيد إبراهيم، الهجرات، ص١٩٤، ١٩٥.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشي، ج٤، ص ٤، لمزيد من التفاصيل انظر ابن جماعة الحموي، مستند الأجناد، ص ١٢٧- ١٣٦ .
(٦)السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص١٧؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص٣٢٩، ٣٣٠.
(٧) الروك: هو عبارة عن تحديد مساحة الأراضي القابلة للزراعة ولقد مسحت أرض مصر في العصور الإسلامية أكثر من خمس مرات منذ عام ٩٧هـ/ ٧١٥م وحتى عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م وهو الروك الناصرى للسلطان الناصر محمد بن قلاوون وزاد عن روك حسام الدين لاجين عام ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م في مواضع ونقص في مواضع أخرى. انظر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٩٠،٩١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ١٥٩؛ علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٤١.
(٨) ابن المأمون، أخبار مصر، ص ٩، ١٠؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٣٣، ١٣٤.

أردب[١] وبالحقبة الأخيرة من القرن السادس الهجري استبد صلاح الدين بأمر مصر وأضعف العاضد، وأقطع أصحابه الإقطاعات وأبعد أهل مصر وأضعفهم[٢] وشعر صلاح الدين بالحاجة لجيش قوي لصد هجوم الصليبيين وتدعيم دولته، فطبق النظام الإقطاعي العسكري بمصر لتقسيم مصر لإقطاعات على شكل ولايات يتولى الأمير أمرها دون توريث، فينفق من ريعها على نفسه مقابل تجهيز العسكر وقت الحاجة، كما اختص الخوارزمية[٣] بإقطاعات واسعة مقابل ما قدموه من خدمات حربية[٤] وبمنتصف القرن السابع الهجري بتولي المماليك الحكم كان السلطان على رأس الهرم الإقطاعي، فيمنح الإقطاعات حسب ترتيب معين. فقد جاء الإقطاع المملوكي حربياً ليخدم تلك الطبقة ويحقق أهدافها السياسية والاقتصادية جميعاً[٥]، فيحل المقطع في الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته، ويؤول الإقطاع بعد مدة متفق عليها[٦]. ويعتبر روك المنصور لاجين هو أول روك في الدولة المملوكية في عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، وسببه رؤيته أن الأمراء يأخذون كثيراً من إقطاع الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية[٧] وقد كان منكوتمر نائب الملك المنصور لاجين هو المتكلم في الإقطاعات، فعادى سائر العسكر بسبب سياسته معهم في توزيع الإقطاعات[٨]، فاختار لنفسه، وأصحابه أفضل الإقطاعات[٩]. فرمى الأجناد مثالاتهم للظلم الواقع عليهم، وبعلم لاجين هذا أمر منكوتمر بزيادة إقطاعاتهم فلم يفعل، "**فكان هذا الروك أكبر الأسباب في زوال الدولة**"[١٠].

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، (ط الرابعة، النهضة، القاهرة، ١٩٨١م)، ص٥٧٠.
(٢) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٧٥.
(٣) الخوارزمية: هي قبيلة تنتسب إلى بلاد خوازم: وهو إقليم منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر وهي من أبرد البلاد، وقد استخدم الصالح أيوب الخوارزمية في حاشيته وقد أكرمهم وأعطاهم حران والرها بعد وفاة والده الكامل صاحب مصر عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، ولكن زاد فسادهم بالبلاد، وانضموا للمظفر غازي في عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م لقتال صاحب حلب ولكنهم انهزموا، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٣٥٥- ٣٥٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٥٣.
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٤٩؛ عبد العزيز سيد الأهل، أيام صلاح الدين، (ط أولى، دار الكتب، بيروت – لبنان،١٩٦١م)، ص١٠٨ – ١١٠.
(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي بمصر والشام، ص٣٦٣، ٣٦٤؛ عادل سليمان زيتون، ملامح من تاريخ الفلاح، ص٤٩٩.
(٦) القلقشندي، المصدر السابق، ج١٣، ص ١١٣ – ١١٧؛ علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر بوجه خاص، (النهضة، القاهرة، ١٩٤٤م)، ص٣٣٩.
(٧) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١٥٢؛ جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، (دار الفكر، القاهرة،١٩٤٧م)، ص٢٨٨، ٢٨٩، لمزيد من التفاصيل انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٨، ص٩٠، ٩١؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص١٤١؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، (ج٢، القاهرة، ١٢٨٥هـ)، ص٢٤٤.
(٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص١٣٧.
(٩) ابن تغري بردي، المصدر السابق ،نفس الجزء ، ص٩١.
(١٠) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص٨٤٦.

وكانت طبقة الفلاحين أكثر الطبقات تضرراً بهذا النظام الإقطاعي الذي طبقه المماليك؛ ومع تزايد الإقطاع الشخصي صارت الأرض الزراعية مجرد مورد للحصول على النفقات اللازمة لتجنيد المقاتلين، ولم يعد أصحاب الإقطاعيات يهتمون بالأرض، وكانت النتيجة تدهور إنتاجية الأرض الزراعية إلى حد مخيف[1]. ويبدو أن القيود التي وضعتها الدولة الأيوبية على السادة الإقطاعيين، وخاصة الجبايات التي يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعي جنبت الفلاح من العسف من ناحية، كما حدت من نفوذ ثروة السادة الإقطاعيين من ناحية أخرى، ولكن كل هذا لا ينفي أن المورد الأول لإيرادات الدولة كان الإقطاع الحربي[2]. وبعد الدولة الأيوبية أصبحت العلاقة بين صاحب الإقطاع والفلاحين علاقة نهبية، فقد صارت قرى مصر كلها عهد المماليك مقطعة للغرباء من المماليك، وأتباعهم من أعيان الدولة، وفقهائها، وكان دور الفلاح هو زراعتها مع فرض شروط عليه كتأدية قدر معين من المال، والغلال سنوياً فلو فرض عليه الخراج عليه أن يؤديه من أمكنه أن يزرع ومن لا يمكنه[3].

ونتيجة لتلك المساوئ التي حملها النظام الإقطاعي تدهور حال الريف، وقلت متحصلات الأراضي فأصبح الفلاح في أسوأ حال؛ مرتبط بالأرض عبداً لصاحب الإقطاع ليصبح النظام الإقطاعي وبالا على الفلاحين[4]؛ فعاش حياة بائسة كلها مغارم كإلزامه بالفلاحة علي حد قول السبكي[5]. فقد استخدمت الدولة أسلوب التعجيل في مطالبة الفلاحين بدفع الخراج المقرر عليهم قبل ميعاده بحجة القيام بعمل عسكري، أو صد هجوم خارجي فلقد خلق النظام الإقطاعي العسكري خلال القرنيين السادس والسابع الهجريين مجتمعاً طبقياً تحددت فيه مكانة كل طبقة، ودورها، وارتبطت هذه الطبقات فيما بينها بعلاقات هرمية قائمة على الاستغلال، والاضطهاد[6].

بالإضافة إلي ذلك وجد عامل آخر هام ألا وهو العربان، فقد جاءوا إلى ولي الأمر فقادوا إليه خيلا يقدمونها له أو غير ذلك ليقوي طمعهم في الفساد، وتتكسر حرمة الولاية كسطوتهم على القرى،

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، (عالم المعرفة، ع١٤٩، الكويت، ١٩٩٠م)، ص٢١٢.
(٢)سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٥٩؛ عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح، مصر في العصور الوسطي، ص٤١١.
(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢١٣؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٢١٥.
(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٢٩؛ سحر السيد إبراهيم، الهجرات، ص١٨٦.
(٥) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٣٤.
(٦)عادل سليمان زيتون، ملامح من تاريخ الفلاح، ص٥١٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٠٧.

والفلاحين[١]، فعملوا بالزراعة، وشكلوا جزءاً من الفلاحين، ولكنهم كانوا ينتهزون الفرصة للتحرش والانقضاض علي محاصيلهم، وطلب الأموال كنوع من الإتاوة، وإن رفضوا تعرضوا للاعتداء على الأرواح والممتلكات[٢]. فقد تحالف الحكام والعربان (أي أن كل من السلطان والعربان مثل راعيا الغنم الذين تحالفا من أجل هلاك القطيع "الفلاحون") ضد الفلاحين بتولية مشايخ العربان على القرى، فهجروا قراهم، ليقصدوا القاهرة طلباً للرزق، وقد اعتاد العربان على الثورة مما أدى لإطاحة الحكام بالقرى الثائرة فيقع الضرر على الفلاحين. وتمتع عربان الشرقية، والجيزة، والمنيا بنصيب في ملكية الأرض. أما الفلاحون فلم يكن لهم سوي العمل، والسخرة، ودفع الأموال وهم صاغرون[٣]. فلقد كانت السلطة الحاكمة تحاول استمالة العربان من وقت لآخر بما سبق ذكره كحل لاتقاء شرهم، وترديد نغمة إننا أصحاب البلاد الأصليون، وأحق بالحكم، ولم تراع الحكومة ظروف الفلاحين، ومدى تسلط العربان عليهم؛ فبدلاً من حمايتهم تركتهم فريسة سهلة للعربان، فكان هروبهم للعاصمة هو الحل الوحيد.

ليصبح لفظ فلاح مرادفاً للشخص المستضعف المغلوب على أمره[٤]، وقد أدت هجمات العربان إلى تحويل الأراضى الزراعية لصحراء جرداء، وذلك بسبب هروب الفلاحين من تلك القرى رعباً منهم. وقد وقف بعض الحكام المماليك مكتوفي الأيدي إزاء غارات العربان على القرى[٥] ولكن منهم من تصدى لسطوتهم. فقد قام بعض الأمراء بالذهاب للصعيد غفلة، وأحكموا قبضتهم على العربان ووسطوا عشرة آلاف رجل "**فوقع الرعب في قلوب العربان حتى طبق عليهم الأمراء**"[٦] مثلما حدث في عام ٧٠١هـ عندما توجه لهم سيف الدين سلار وركن الدين بيبرس وأثخنوا فيهم القتل والأسر[٧].

ولقد كانت الآثار السلبية للحروب الصليبية على المدى الطويل كارثة على الزراعة، مما أدى لنزوح الفلاحين للمدن حيث يجدون الخبز من خلال العمل في أي حرفة متدنية، والأمان داخل أسوار القاهرة، فقد أدى نهب الريف خلال زحف الجيوش لتدهور الإنتاج الزراعي على مدى القرن السادس

(١) ابن تيمية، (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، الطبعة الثانية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٩هـ)، ص٣٦.
(٢) عادل سليمان، ملامح من تاريخ الفلاح، ص٥٣٧، ٥٣٨؛ ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص١٣٤.
(٣)سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في دولة المماليك البحرية، ص١٦١، ١٦٢ بتصرف ؛ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٤٩ .
(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٢٩.
(٥) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٢، ص٧٧٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص٥٠،٥١؛ عادل سليمان زيتون، المرجع السابق، ص٥٣٩.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٣، ص٩٢١، ٩٢٢.
(٧) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١٦٢.

الهجرى، في حين أن سكان المدن كانوا يعتصمون داخل أسوار مدينتهم، بينما شكل الفلاحون خط الدفاع الأول لوقوعها في طريق الغزاة، فتعرض للدمار، والفناء سواء فلاحين أو محاصيل(١).

وقد كان الخراج من أهم الضرائب على الأرض، وكان الفلاحون يدفعونها غلالاً من قمح، وشعير وغيره(٢). وقد أشار عمر طوسون لمقدار الخراج لبعض الحكام أمثال:

الحكام	الخراج بالجنيه
صلاح الدين	٢,٧٩١,٨١١
حسام الدين لاجين	٦,٤٨٩,٩٥
محمد بن قلاوون	٥,٦٥٦,٩٧٣(٣)

ويعتبر أقصى خراج خلال القرنين السادس والسابع من الهجرة كان في عهد الظاهر بيبرس إذ بلغ ١٢ مليوناً من الجنيهات(٤)، وهذا بالإضافة للعديد من المغارم الأخرى التي تم ذكرها بالفصل الأول.

ومن ضمن تلك المغارم على سبيل المثال: ما أحدثه المظفر قطز عند خروجه لقتال التتار في الشام عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م حيث فرض جباية دينار من كل فرد من جميع أهل مصر، بالإضافة لمغارم أخرى(٥). وتكرر عند هزيمة الناصر محمد بن قلاوون أمام محمود غازان حفيد جنكيز خان قرب دمشق عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م فأخذ يستعد للقائه مرة ثانية، وطلب لذلك الخيل، والرماح، والسيوف، ودنانير عينية تم جبايتها من سائر مصر وخصوصاً الوجهين القبلى والبحرى(٦)، بما يعنى تحمل أهل القرى، وهم الفلاحون جزءاً من هذه المغارم، لتواجدهم على الأرض الزراعية المورد الهام للدولة آنذاك، لتصبح الأرض الزراعية، ومن عليها تحت إمرة الجيش في الحروب التي يقررها السلطان دون مراعاة مدى تأثر هؤلاء الفلاحين للنفقة على الجيش في تلك الحروب.

وفي مثل تلك الأوضاع، صعب أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة، فإن رحمته الطبيعة أحيانا فإن الحكام لا يرحمونه في كثير من الأوقات، فأثقلوا عليه الالتزامات، ولم يتهاونوا في جمع ما عليه

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص٢١٤، ٢١٥؛ عادل سليمان زيتون، ملامح من تاريخ الفلاح، ص٥٤٠، ٥٤١.
(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٥٣، ٤٥٤؛ الشربينى، هز القحوف، ص١٤١.
(٣) عمر طوسون، مالية مصر، ص٣٣٠، ٣٣١.
(٤) على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص٣٨٢.
(٥) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص٤٣٧، ٤٣٨.
(٦) نفسه، ج١ ق٣، ص٨٩٧، ٩٠٦، ٩٠٧.

من ضرائب، فلا يجد أمامه إلا أن يهرب، ويترك قريته، ويخرج منها بالليل هرباً من ديـن المـال وضيق المعيشة[١]؛ الأمر الذي أدى بالحكام للمناداة بخروج أهل الريف من القاهرة وعودتهم لبلادهم، ولكن لم يعمل بمثل هذه الأوامر[٢]. وتعتبر مناداة السلطة الحاكمة للرجوع للقرى دليلاً واضحاً علـى زيادة عدد المهاجرين للعاصمة بما يوحى ببداية أزمة تهدد مورداً هاماً من موارد الدولـة ألا وهـو الخراج بترك الأرض الزراعية دون من يزرعها، ويهتم بها، فيترك الأرض أو على أقل تقدير يقـل محصولها، بالإضافة لزيادة البطالة في العاصمة.

وكثيراً ما تشمل الطوائف الحرفية الفقراء المهاجرين من الريف[٣] وقد أدى ذلـك لتـضاؤل الرقعة الزراعية ونلاحظ هذا في الجدول التالي:

تاريخ	عدد الأراضى بالأفدنة	فلاحين
العصر الطولونى	مليون فدان	–
٧١٥هـ/١٣١٥م	٤،١٣٣،٦٣٩	٤٨٠ ألف
٨٠٦هـ/١٤٠٣م	٢،٥٠٠،٠٠٠	١٢٠ ألف

ونلاحظ استمرار ظاهرة الهجرة بعد القرن السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي[٤].

وبقى كلمة أخيرة وهي؛ إذا كانت الدولة تجمع المكوس، وغيرها من الضرائب، والرسوم وتصرف على الجهات التي جمعت منها مثل: الأرض، مرافق البلاد فيؤدي هذا لقلة عدد المهاجرين الفلاحين من القرى إلى المدن لاستمرارية صلاح الزراعة والأرض حتى في وقت الأزمات؛ ولكن ظهر واضحاً أن السلطة الحاكمة لا تهتم أو تستعد للأزمات التي تحدث مستقبلاً وما يصاحبها من ضرر في جميع الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل لم يتعلموا من سابقهم من الحكام الذين أنهت حكمهم مجاعة أو وباء مثل: عهد العادل زين الدين كتبغا عندما توقف النيل عند خمسة عشر ذراعاً وثمانية عشر أصبعاً عام ٦٩٦هـ/١٢٦٩م، فتشاءم الناس من تزايد الأسعار وكانت هذه الأزمة من أسباب خلعه[٥].

(١)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ٦، ص١٧٢؛ الشربيني، هز القحوف، ١٢٦، ١٢٧.
(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٦٧٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، ص٥١؛ مجدى عبد الرشيد، القرية، ص٩.
(٣) محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص١٥٢.
(٤) عثمان محمد عطا، الأزمات الاقتصادية، ص ٢١٦.
(٥) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣، ص٨٢٩؛ إغاثة الأمة، ص٢٦-٣٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص١٣٣؛ ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢ ، ص٢٤١.

الفصل الثالث

الوضع الاقتصادي للفقراء

أولاً: مهن وحرف طبقة الفقراء بالقاهرة

ثانياً: مدى تأثر الفقراء بالمجاعات والأوبئة.

ثالثاً: دور الوقف في حياة الفقراء.

رابعاً: الفقراء والصدقات.

الوضع الاقتصادي للفقراء

أولاً: مهن وحرف طبقة الفقراء بالقاهرة:

عندما يقف أي باحث أمام شريحة الفقراء، وعملها يعجز عن أن يتجاهل دورهم الفعال في المجتمع المصري، ومدى أهمية مهنهم البسيطة قليلة الأجر، ولكن اعتاد مجتمعنا أن ينظر للبعض منهم نظرة متدنية تقترب للحقارة، في حين أنهم بسطاء في كل شيء، يعملون من أجل ما يسد احتياجاتهم الأساسية لمتطلبات الحياة؛ ولذا فقد قام الباحث بتقسيم تلك المهن إلى مهن خاصة بالرجال وأخرى بالنساء.

أولاً: مهن خاصة بالرجال:

الباعة الجائلون:

لقد وجد إلى جانب أصحاب الحوانيت بالمدينة جمهور أكثر عدداً ممن يقومون بأعمال تتطلب قدراً أقل من المهارة: مثل الباعة المتجولين[١]. فقد انتشروا في أسواق القاهرة، وباعوا كل ما يخطر على بال، فهم يبيعون أشياء مختلفة كالفواكه والجبن، والسلع الأخرى، فهم "**أرباب المعايش ... يعيشون مما يتحصل لهم من الربح**"[٢]. وقد وجدوا بداخل المسجد الجامع، يبيعون فيه أصنافاً من المأكولات، بينما وجدت فضلات مآكل الناس مطروحة في صحن الجامع، وفي زواياه حيث زاولت الطبقات الشعبية حرفة الطباخة للغرباء الذين يأتون من خارج القاهرة، والفقراء الذين يعجزون عن القيام بعملية إعداد الطعام في منازلهم[٣]. وقد أشار إليهم الرحالة العبدري أثناء نزوله المدرسة الكاملية حيث: "**يبيعون طول الليل ....، والزحام متصل، والطرق غاصة بالخلق**"[٤] لذا يعتبر أعظم أسواق مصر التي تحتوي على اثني عشر ألف حانوت، وهو سوق القصبة، ويحتوي على العديد من المآكل، والمشارب لدرجة أنه يرمي بمصر في كل يوم ألف دينار ذهباً في المزابل لما يستعمله اللبانون من الصحون الحمر التي يوضع فيها اللبن، والجبن، والتي يأكل فيها الفقراء الطعام، وقد وجدوا بسوق البندقانيين لبيع مختلف المأكولات[٥]، وسوق بين القصرين تواجد أرباب المقاعد لبيع أنواع من المآكل[٦]. وهذا ما يؤكد كلام بلوتي بقوله "**وتجارة القاهرة مزدهرة ، وسوقها عامرة** "[٧].

(١) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ١٥٣.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٦٥؛ ابن الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢.
(٣) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص ٦، ٧؛ أبو حامد المقدسي، الفوائد النفيسة، ص ٢٥؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١٣٤، ١٣٥.
(٤) العبدري، رحلة ص ٢٨١.
(٥) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٣، ١٥٤، ١٧٠.
(٦) نفسه، ص ١٥٧؛ علي مبارك، الخطط، ج٢، ص ٩١.
(7) Piloti: Op. Cit. P. 1, 2.

وقد وجد الباعة في أثناء حفلات الزواج بسائر الأصناف ليعرضوا سلعهم على الحاضرين، ولأهمية الباعة، ونشاطهم المتزايد، أمر صلاح الدين أثناء حروبه لمواجهة بلاد برقة عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م بتجهيز الأسواق من صغار الباعة الذين يقدمون كل ما يحتاجه المشاركون في القتال(١). وفي رؤية الرحالة بيروطافور بالقاهرة للباعة قال: "**يخرج الباعة حاملين الموائد عليها الطعام المطبوخ، وآخرون يبيعون الفاكهة، وسواهم الماء، إلى غير ذلك**"(٢). فقد كان الباعة الجائلون يفترشون أرض الأسواق ببضائعهم، على حين كان البعض الآخر يتجولون بما يحملونه من بضاعة في شوارع وأزقة القاهرة(٣). وفي عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م وجدت خيمة لكي تظلهم من حر الشمس، بينما كان الباعة الجائلون يطوفون في الأماكن البعيدة عن الأسواق فتخرج إليهم النسوة من بيوتهن للشراء(٤). ونستطيع أن نستنتج من كتب الحسبة مدى تعدد أنواع الأطعمة التي كانت تباع بأسواق، شوارع، ودروب القاهرة(٥).

وقد كان من الطبيعي أن يخضع هؤلاء لرقابة الدولة، فقد عهدت السلطة الحاكمة للمحتسبين بمراقبة حركة البيع ، والشراء، والتفتيش على الباعة، وسلامة الأطعمة، ونظافتها وذلك عن طريق كشف تدليسهم بالمشاهدة مثل الحسبة على البقالين وعليه النظر في المكاييل، وما يطففون به المكيال(٦). بما يوحي أهمية الباعة الجائلين، وغيرهم ممن يقدمون الأنواع العديدة من الأطعمة في حياة المجتمع القاهري عامة ، والفقراء بصفة خاصة لاعتمادهم على هذه الأطعمة أغلب أوقاتهم وذلك لانشغالهم بأعمالهم البسيطة، بالإضافة إلى أن أطعمة السوق كانت ذات نكهة خاصة، والتي ربما يصعب طهيها في منازلهم لما تحتاجه من توابل وغيرها من مكسبات الطعم التي يصعب على الفقراء شراؤها.

---

(١)عصمت محمد حسن، جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر، (مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٣م)، ص ١٥٥؛ شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص ٥٧، ٥٨.

(٢) طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، (ترجمة حسن حبشي، المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م)، ص ٦٦.

(٣) أبو حامد المقدسي، الفوائد النفيسة، ص ٢٥؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٣٦، ٣٧؛ أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، ص ١٨.

(٤) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٧؛ علي مبارك، الخطط، ج٢، ص ٩١؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٣٧.

(٥) ابن الأخوة، معالم القربة في طلب الحسبة، (تحقيق محمد محمود شعبان، صديق المطيعي، القاهرة، ص ١٩٧٦م)، ص ٧٣، ٧٤، ٨٤، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٤، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٤.

(٦)السبكي، معيد النعم، ص ٦٥، ٦٦؛ الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ١١٦، ١٢٠؛ الشربيني، هزالقحوف، ص١٣.

مهنة الخبازين:

الخبز:

يعتبر من أهم الصناعات الغذائية التي ترتبط بالحاجة اليومية للفرد؛ فقد اشتملت على حرفيين غاية في الأهمية كالطحانين، والعجانين، والقطاعين، والفرانين ثم باعة الخبز بالأسواق. وقد كان الرجال الذين يزاولون مهنة الطحن يسمون "المغربلين"[١]، وأحياناً يسرق الطحان دون أن يحس الناس بعمل ثقب صغير في "الداير" فيسقط الدقيق في داخل الطاحونة[٢] فيلقاه. وبعد طحن الغلال يأتي دور العجانين الذين يقومون بعجن الدقيق المطحون وتجهيزه لوضعه في الأفران أما الخبازون، والفرانون فيقومون بتقطيع، وخبز العجين الذي يصل إليهم من الأهالي نظير أجر يومي، أو شهري، بالإضافة لمد الأسواق بخبز طازج يومياً[٣]. وقد كان مهمة الصبيان العاملين بالمطاحن العامة استلام القمح من البيوت بالوزن، وعلى الصبي أن يكون أميناً؛ وعموماً يصنع الخبز في القاهرة، بدون خميرة، ويخبزونه بطريقة رديئة[٤].

وتعتبر المهن المرتبطة بالخبز من أهم المهن وقت وجود المجاعات والأوبئة، وذلك لتهافت الكثير من فئات الشعب المصري على الخبز، لذا فقد كانت تلك المهن ذات عامل مؤثر وقت الأزمات وربما يجنون مكاسب من جراء هذا، أو يتعرضون للضرر كهجمات الكثير من الجوعى، طالبين الخبز مثلما ما حدث في أعقاب مجاعة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م[٥].

وقد كان على الخباز إن اشترى دقيقاً رديئاً أن يخبر المشتري بذلك[٦]. وعلى العجان أن يرتدي ثوباً بدون أكمام "معلبة" لمنع نزول العرق، ولابد أن يشد على جبينه عصابة بيضاء لمنع سقوط الشعر، أو العرق، ولا يعجن بماء الآبار المالحة، ولا يخلط مع الدقيق غيره مما يحسنه في عين المشتري كالتوابل، فربما دقيقه فاسد، وعليه حفظ الماء العذب من الأشياء الضارة[٧]. أما الفران فعليه تنظيف بلاط الفرن من اللباب المحترق، وأن يكون له مخبز للخبز، وآخر للسمك، وأن لا يحرق الخبز، ولا يقمره زيادة على نضجه، لأن ذلك يضر بصاحب الخبز، ولا يتعين على الفران أن يجتمع عنده الجواري، والبنات، والتحدث بأشياء رذلة[٨].

---

(١)المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥١؛ علي مبارك، الخطط، ج٢، ص ٢١٠؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٥٣.
(٢) لمزيد من التفاصيل عن الطاحونة انظر الشربيني، هز القحوف، ص ٦٥، ٦٧.
(٣) الشيرزى،نهاية الرتبة،ص٢٢-٢٤؛ ابن الحاج،المدخل،ج٤،ص١٦٧، ١٧١، ١٧٢
(٤) السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات، ص ٣١٥؛ جومار، المرجع السابق، ص ٢٥٣.
(٥) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٨- ٣٠.
(٦) ابن الحاج، المصدر السابق،نفس الجزء، ص ١٧٢.
(٧) الشيرزي، المصدر السابق، ص ٢٢؛ ابن الحاج، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٧٣، ص ١٧٤.
(٨) الشيرزي، المصدر السابق، ص ٢٤؛ ابن الحاج، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٧٠، ١٧١، ١٧٥.

ونظراً لأهمية الخبز فقد كتب المحتسب "**في دفتره أسماء الخبازين...، ويأمرهم بنظافة أوعية الماء ....، وغسل المعاجن، ونظافتها، وما يغطي به الخبز، وما يحمل عليه**"[١] فلقد كان وجود المحتسب ذا أثر فعال للحد من حالات الغش، والخداع الذي مارسه أصحاب المهن، والحرف أوقات المجاعات، والأوبئة، والاحتكارات، والمصادرات ليضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه الغش في مهنته، وخصوصاً في الميزان، والمكيال، والمواد الغذائية؛ وبذلك يستطيع حماية قطاع كبير من الشعب المصري من التعرض للسرقة في أموالهم وحماية أجسادهم من التلوث الغذائي لمراقبة أصحاب المهن الغذائية.

وخلاصة القول إن أصحاب حرفة صناعة الخبز كانت الحاجة ماسة إلى أعمال أيديهم في كل وقت سواء في طحن الحبوب، أو في عمل أصناف المأكولات من الخبز والحلوى، تلبية لاحتياجات سكان مصر، والقاهرة؛ فكثيراً ما يعتبر رغيف الخبز مؤشراً مهماً لمعرفة حالة المعيشة اليومية لعامة القاهرة[٢].

وقد ارتبط بتلك الحرف مهنة العتالين ففي وكالة قوصون[٣] كان ينزلها التجار بمختلف بضائع الشام من زيت، وصابون، وغيره من أصناف البضائع المختلفة، لدرجة ازدحام الناس وسماع أصوات العتالين، ونقلها لمن يبتاعها، بالإضافة لوجود عدد من الحمالين يلبون أي طلب للمشترين لقاء أجر زهيد[٤]. وقد شارك الحمالون في حمل البضاعة على الإبل، ثم إعادة تحميلها، والسير بها لداخل السوق[٥]. ويصف الرحالة جوزيف[٦] حال الحمالين فيقول: "**تنفتح أجزاء أخرى من أبدانهم (إفتاء) نتيجة حملهم أحمالاً ثقيلة جداً**"[٧]؛ كذلك فإن القرائين كانوا يستأجرون فقراء الربائيين كحمالين[٨]،

---

(١) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ٢٢.
(٢)السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات، ص ٣٢٣، ٣٢٤؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص ٩٦.
(٣) توجد بين الجامع الحاكمي، ودار سعيد السعداء، انظر، المقريزي، الخطط ، ج٣، ص ١٥١.
(٤) نفسه، ص ١٥١؛ علي مبارك، الخطط، ج٢، ص ٢١٠؛ علاء طه رزق، المرجع السابق، ص ١٠٨ ؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٧٣.
(٥) شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص ٥٦.
(٦) جوزيف: هو الحاج يوسف، وهو أول رحالة في التاريخ الحديث يصف طريق الحج (البري والبحري) من بلاد المغرب- مروراً بمصر- حتى يصلوا إلى الديار المقدسة وذلك في عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م وتخلو كتاباته عن الرحلة من الأحكام المسبقة والخرافات والسذاجة، انظر جوزيف بتس، رحلة، ص ٧- ١٠.
(٧) نفسه، ص ٣٩.
(٨) القراء: هم إحدى فرق اليهود الأربع، وهم يحكمون نصوص التوراة ولا يلتفتون إلى قول ما يخالفها ويقفون مع النص، إما الربانية فهي تعول في أحكام الشريعة على ما في التلمود، وهي بعيدة عن العمل بالنصوص الإلهية، ولا يصح لهم من أسم اليهودية إلا مجرد الأنتماء، والطائفتان لا يتزوجان من بعض، ولم تكن أعداد القرائيين اليهودية كبيرة، بيد أن كل فرد كان حريصاً على ازدهار نجاحه، وثمة خلافات بين الطائفتين حول بعض الأمور الفقهية مثل القصاص وحرمة السبت وفي معظم المدن المصرية الكبرى تواجد اليهود القراؤون وكان من بينهم أغنى الشخصيات مثل (ابن سهل التستري)، انظر المقريزي، المصدر السابق،ج٤، ص ٣٦٨، ٣٦٩؛ يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس، (ترجمة عبد الحافظ عبد الخالق، ط أولى، عين، القاهرة، ٢٠٠١م)، ص٨٠؛ قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، (ط أولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ٣٣- ٣٦ ، لمزيد من التفاصيل عن شرائح اليهود انظر ابن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، (المجلد الثاني، الثقافة الدينية، القاهرة، ب. ت.) ، ص ٣٤- ٤١ .

ولكن ليست البضائع بل لحمل موتاهم خارج المنزل[١]، وعموماً لقد كان الحمالون متواجدين بصفة شبه دائمة في الأسواق، وخصوصاً في الوكالات الكبيرة، والقيساريات، وغيرها مثل خان الخليلي الذي يكاد يكون مدينة مستقلة[٢].

السقاة:

لقد كان السقاة جزءاً أساسياً من حياة القاهرة، وشاعت حرفة السقائين في الفسطاط وغيرها من المدن المصرية، وكانوا يحملون الماء في الزوايا التي راجت صناعتها من جلود الماعز؛ لذا وجدوا بالقرب من مصدر المياه، بالإضافة لوجود بعضهم خارج باب زويلة، وهي التي اختصت بتوزيع المياه داخل القاهرة[٣]، وكان يجلب ماء الشرب من النيل، ينقله السقاءون على الجمال، أو يحمله على الكتف[٤]، ويصعدون كل طبقة بنصف دانق[٥]، ويحمل رجال آخرون قرباً معلقة برقبتهم، وفتحتها مجهزة بأنبوبة من النحاس الأصفر ويقال أن بمصر من السقائين على الحمال أثنى عشر ألف سقاء، بينما أشار الرحالة البلوي لعدد السقائيين بين خمسة آلاف، وقاموا بدفع الضريبة مقابل أخذ الماء من النيل، وقد أحصي عدد دكاكين السقائين المعدة للسفر بالقاهرة فبلغت ستين ألف دكان عدا السقائين الذين بالأكواز، والأكواب بالأسواق[٦].

وقد سجل جوزيف رؤيته لتقديم ماء الشرب للعابر "**ويقدم لهم بعض الشاربين مبلغاً يسيراً**"[٧].

وقد اعتمد سكان القاهرة على النيل في الشرب[٨]، وغالباً ما كان الإمداد للمنازل يومياً من الماء بواسطة السقائين، وقد وجدت بالقاهرة الأسبلة التي تقدم لهم المياه بالمجان، وكان لها عمال لتنظيفها، وينفق عليها من حبوس الأوقاف[٩]. ولأهمية السقائين بالدولة، وخصوصاً وقت الأزمات، فإنه في عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م أمر المأمون إلى الوالي بمصر، والوالي في القاهرة بإحضار عرفاء السقائين، وأخذ الحجج على المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلاً أو نهاراً[١٠]. وفي جماد

(١) قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ص ٣٤.
(٢) بكبريت، رحلة، ص ٨٩.
(٣) جوزيف بتس، رحلة، ص ٣٥؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١٤١.
(٤) ناصر خسرو، رحلة، ص ١٠٦، ١١٩.
(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٠٧.
(٦) ابن الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢؛ ابن بطوطة، مهذب الرحلة، ج١، ص ٢٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٣٣٠؛ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٨٤؛ محمد محمد الكحلاوي، آثار مصر الإسلامية، ص ٣٣.
(٧) جوزيف بتس، المصدر السابق، ص ٣٥.
(8) Palerne, Jean: Op. Cit. p. 42
(٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، (تاريخ المصريين، ع ٢٠٧، الهيئة، القاهرة، ٢٠٠١م)، ص ١٦٦؛ أحمد عوف، الفسطاط، ص ٧٥.
(١٠) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٤٢؛ ابن المأمون، أخبار مصر، ص ٩٦.

الأول عام ٧٢١هـ/ مايو ١٣٢١م حدث حريق بخط الشوايين ثم بحارة الديلم مما أدى لوقوف الأمير بكتمر الساقي على أيدي السقائين لإطفائها، فصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات، وقد كان الفقراء يشربون مجاناً، أو مقابل قطعة من الخبز يضعها السقا في جراب معلق على جانبه(١). وكثيراً ما اعتمدت الأسر الفقيرة على نفسها في نقل المياه لبيوتهم عن طريق البغال، أو الحمير، والجرار على الرؤوس(٢). ونتيجة لنشاط هذه الفئة فقد كانت القدور النحاسية تؤجر للسقائين ليحملوا فيها الماء، فيحكى أن امرأة تمتلك خمسة آلاف قدر من النحاس تؤجر الواحد منها بدرهم في الشهر(٣). وقد أشارت عدد القدور التي تؤجر للسقائين بل، وعدد السقائين أنفسهم، والذي تعدى خمسة آلاف، إلى حيوية تلك الحرفة والتي لا يمكن الاستغناء عنها، نظراً لأهمية الماء عند المجتمع المصري بكل فئاته.

لذا فقد خضع السقاءون لأوامر المحتسب، فيأمرهم بالدخول في النهر، والبعد عن الشط، ومواضع الأوساخ، ولا يستقون من موضع في النهر قرب سقاية للدواب، أو مستخدم أو مجرى حمام بل يبعدون عنه(٤)، وعليه أن يملأ الرواية دون نقصان، ويكون لها غطاء ظاهر، وإن دخل بيتاً لا ينظر إلا بموضع قدمه، وأن تكون يداه سالمتين من النجاسة، والقذارة، وإن اتخذ رواية جديدة ألا يبيع فيها الماء أياماً لتغير الطعم من أثر الدباغة(٥). ولابد من نظافة قربهم، والكيزان التي يسقون بها الناس، وعدم استعمال كيزان أصحاب الأمراض المعدية، ولابد من جلاء الكيزان النحاس، وتطييبها بالمسك، وقد كانت سراويل السقائين زرقاء، وضيقة، وقصيرة لتكون ضابطة لعوراتهم(٦)؛ فقد ارتبطت حرفة السقاية بحياة كل سكان القاهرة، والتي قامت عليها كثير من الحرف والصناعات(٧).

المكارية:-

لقد وجد في القاهرة جماعة من الناس تعيش من مهنة تأجير الحمير والدواب لقضاء حاجاتهم، ومطالبهم، وربما كانت الوسيلة الوحيدة لانتقال الناس داخل المدن، أو خارجها(٨) وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو في كل حي على رأس الشوارع حمير كثيرة عليها برادع مزينة يركبها من يريد بأجر

(١) المقريزي، الخطط، ج٤، ٣٢٩؛ أولج فولكف، القاهرة، ص ٥٢.
(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ١٠١٦.
(٣) ابن الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، ط الثانية دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م المجلد الثاني مكتبة الخانكي، القاهرة)، ص ٣٩.
(٤) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ١١٧.
(٥) ابن الحاج، المدخل، ج٤، ص ١٧٦- ١٨١؛ الشيرزي، المصدر السابق، ص ١١٧.
(٦) ابن الحاج، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٧٧؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، ص ٢٧٤.
(٧) ابن الحاج، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٧٨- ١٨١.
(٨) ابن الوزان، المصدر السابق، ص ٥٩٢؛ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٣٣١؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٣١ لمزيد من التفاصيل عن الدواب والحمير انظر، العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في الحيوان والنبات والمعادن، (تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط٢، مدبولي، ١٩٩٦م) ، ص ٢١- ٢٦.

زهيد، وذكر لوجود خمسين ألف بهيمة تكرى يومياً، بينما لا يركب الخيل إلا العسكر[1]. بينما يشير ابن سعيد لرؤيته عند باب زويلة لحمير معدة للركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد له بمثلها ببلد آخر[2] وسوق التبن قرب باب اللوق وقفت الجمال بأحمال التبن اللازمة لمؤونة دواب القاهرة، حيث تستجلب أحمال الحطب، والتبن من أحواش الصعيد للقاهرة[3].

وقد أشار الاصطخري أن بمصر بغالاً وحميراً لا يعرف أحسن، ولا أسمن منها بأي بلد آخر، فلهم النتاج العجيب من الخيل والبغال والحمير ما يفوق نتاج أهل الدنيا[4]. ويمكن ركوب حمار لمسافة ميل مقابل دفع بارا واحدة، وينادي الحمار لإفساح الطريق[5]. وقد أدت كثرة عدد السكان وازدحام الشوارع إلى أن يأمر المحتسب أصحاب الدواب بأن يشدوا في أعناق دوابهم الأجراس ليحترس الناس، وعندما تصبح الدابة عاجزة عن نقل الناس تستبدل بعمل أدنى كنقل المياه من النيل للحوانيت ومنازل الأهالي[6]. وقد فضل ابن سعيد دفع المكاري أجرته، والمشي على رجليه لسوء معاملته للدابة بعدم الرفق لسرعته الفائقة[7] مما أدى لإجبار المحتسب إياهم بعدم حمل الدواب بأكثر من طاقتها، ويكونوا رفقاء بهم وقت الأحمال ولا يضربونها ضرباً قوياً[8].

وتركب النسوة الحمير مباعدات ما بين أفخاذهن كالرجال[9]، وكثيراً من المكارية يقومون بتفضيل الزبائن الذين يظهر عليهم الانحلال الخلقي لتكون الأجرة أعلى، لذا "**لا يعجبه أن يكاري إلا الفاجرات من النساء، والمغاني منهن لمغالاتهن في الكراء، فإنهن يعطين من الأجرة فوق ما يعطيه غيرهن**"[10]. وربما كانت تلك الوسيلة الوحيدة للحصول على أعلى أجرة يمكن أن يتلقاها بتلك المهنة، ولذا يعتبر المكاري هو سائق أهم وسيلة مواصلات في تلك الفترة والتي انقضت بعد ذلك مع مرور الوقت.

---

(١) ناصر خسرو ، رحلة، ص ١٢٠، ١٢١.
(٢) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص ٥.
(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص ٧٥٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١، ص ١٨٠.
(٤) الأصطخري، (المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، مراجعة محمد شقيق غربال، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م)، ص ٤٢؛ الكندي، فضائل مصر، ص ٤٩؛ التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣١ .
(٥) جوزيف بتس، رحلة، ص ٣٥.
(٦) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ١١٧؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص ١٠٧.
(٧) ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٦؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٤٧.
(٨) الشيرزي، المصدر السابق، ص ١١٧.
(٩) جوزيف بتس، المصدر السابق، ص ٣٤، ٣٥.
(١٠) السبكي، معيد النعم، ص ١٤٠.

الإسكافي:-

لقد عمد المصريون في أوائل القرن الرابع الهجري لاستيراد جلود الجاموس من الحبشة، وقد كان أهم ما يصنع بها في الفسطاط النعال، أو الأحذية، وقد تمتع الإسكافيون بقدر كبير من الأهمية حيث لم يرتد القباقيب الخشبية سوى الفقراء، أما الآخرون فكانوا يرتدون أحذية الرخيص منها التي صنعت من جلد الحمار وقد كان يعمل بهذه الحرف المسلمون، والذميون معاً، فكان من أسلم من اليهود قد احترف تلك المهنة وعمل كإسكافي(١).

وكان المجتمع يكره مهنة الإسكافي؛ لأنها تتعلق بما يعده أحقر الأشياء التي يستعملها الإنسان وهو الحذاء، فيقول المثل "لسانه زي مقص الإسكافي ما يفتح إلا على نجاسة" فيضرب المثل لوقاحة السباب وإشارة لوقاحة المهنة؛ وقد اشتهر عنهم عدم الأمانة، فقد كان بعضهم يحشر بين طبقات جلد النعل ورق، وقماش(٢)، ومن أجل ذلك حذرت كتب الحسبة الأساكفة من تلك الأفعال، وعليهم ألا يشدوا نعلاً قد أحرقته الدباغة، وعليهم إحكام إبرام الخيط(٣). وقد حذر السبكي من استخدام النجاسة في النعال فقال: "**ومن حقه ألا يخرز بنجس من شعر خنزير أو غيره**"، وقد وجد سوق باسمهم وهو الإخفافيين وبه سكن بياعو أخفاف النساء، ونعالهن(٤).

مهن الحياكة:-

لقد عرفت مصر تلك المهنة منذ أقدم العصور(٥)، ولقد انتشرت صناعة المنسوجات خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، مثل صناعة نسيج الكتان، والحرير، وغيرها(٦)، وأطلق على من يعمل بالغزل، والنسيج اسم "الحائك"؛ ومن حقه ألا ينسج ما يحرم استعماله(٧). ويأمرهم المحتسب بجودة العمل وإذا أخذ أحدهم غزلاً لإنسان لينسجه ثوباً فيأخذه بالوزن(٨)، وقد كان الحائكون يصنعون

---

(١)السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات،ص ٣٧٠؛ أولج فولكف، القاهرة، ص ٧٧؛ صلاح أحمد هريدي، الحرف والصناعات، ص ٧٠؛ زبيدة محمد عطا، اليهود في العالم العربي، ص ١٨١.
(٢)أحمد شعلان، الشعب المصري، ص ٣٠٨؛ أحمد تيمور، الأمثال العامية، ص ٤٢٣؛ أولج فولكف، المرجع السابق، ص ٧٧.
(٣) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ٧٣.
(٤) السبكي، معيد النعم، ص ١٤٦، ١٤٧ ؛ سعد الخادم، الصناعات الشعبية في مصر، (المعارف، القاهرة، ١٩٥٧م)، ص ٧٤.
(٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٤٤.
(٦)ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص ٣٩؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٤٠٢.
(٧)السبكي، المصدر السابق، ص ١٣٤.
(٨) الشيرزي، المصدر السابق، ص ٦٥.

الملابس بالجملة، أو حسب الطلب، والآخرون يتسلمونه ثوباً بمثل وزنه في ظرف أسبوع، احتياطاً ضد الغش، ولكن وجد بعض الخياطين يرشون جزءاً من الثوب بالماء بعد خياطته ليزيد في وزنه[١].

وعلى الخياط ألا يخيط حريراً، ولكن يخيط بالحرير، وأن يحترز عند قطع القماش، ويأمر المحتسب بجودة التفصيل، وحسن فتح الجيب، واعتدال الكمين، والأطراف، واستواء الذيل[٢]، وقد كانوا كثيري العدد في القاهرة فمنهم خياطوا ملابس أهالي البلد، وينشطون في الأيام التي تسبق رمضان وأثنائه. أما الرفاؤون فهم المتخصصون في مداواة عيوب الثياب، وإصلاح ما بلي منه[٣]. وينبغي أن يخلفهم المحتسب أن لا يرفوا لأحد من القصارين[٤] ثوباً مخروقاً إلا بحضرة صاحبه[٥]. وقد كان اجتماع أصحاب هذه الحرفة بسوق واحد كسويقة أمير الجيوش وتعرف بسوق الخروقيين. وأشار لها المقريزي بقوله "**بها عدة حوانيت فيها الرفاؤون، والحياكون...، وعدة حوانيت للخياطين، ومعظمها لسكن البزازين، والخلعيين...**" ويباع بهذا السوق سائر الثياب المخيطة والأمتعة من الفرش[٦]. وبالدور الأسفل من رباط الوزير كان يجلس الخياطون، بينما بالدور الأعلى الرفاؤون وقد اشتهر اليهود أيضاً بأعمال النسيج والحياكة[٧]. فقد كانت ومازالت الخياطة من أهم الصنائع لأنها متعلقة بستر العورة[٨].

وقد ارتبط بتلك المهن مهنة أخرى ألا وهي الصباغة، وقد طلب منهم المحتسب كتابة أسماء الناس على الثياب بالحبر كي لا يبدل، ويمنعهم من تأجيرها في المواسم، وقد أشارت الأمثال لتلك الحرفة مثل: "**زي السباغ تناه على ضهر إيده**"؛ والمراد هنا علامة المهنة تدل على الشخص فتظهر مهنته على ظهر يده لأنها ملوثة بالأصباغ[٩]، وقد كان اللقب العائلي "الصباغ" شائعاً بين المصريين عامة لذلك كانت تلك الحرفة تضم عائلات فقيرة، وموسرة على السواء، وقد ارتبطت بمهنة النسيج والحياكة مهنة غسل الثياب، وكيها وعرفوا باسم "البابية" (مفردها البابا)[١٠]، وقد تواجدوا بسوق الجملون حيث وجد عدة من البابية المعدمين لغسل الثياب وكيها؛ وعلى من يعمل بتلك المهنة أن يزيل

(١) أولج فولكف، القاهرة، ص ٧٧؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٢٦.
(٢)السبكي، معيد النعم، ص ١٣٥، ١٣٦؛ الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ٦٧.
(٣)ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٤٣، ٣٤٤؛ صلاح أحمد هريدي، الحرف والصناعات، ص ٧٠.
(٤) مفردها قصار: ومهنته دق الثياب وكيه، انظر سهام أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، ص ١٥٧.
(٥) الشيرزي، المصدر السابق، ص ٦٧.
(٦) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٦٤.
(٧)نفسه، ج٢، ص ٢١٦؛ زبيدة محمد عطا، اليهود في العالم العربي، ص ١٨١.
(٨) ابن الحاج، المدخل، ج٤، ص ١٨، ١٩.
(٩)الشيرزي، المصدر السابق، ص ٦٢؛ أحمد تيمور، الأمثال العامية، ص ٢٤٥.
(١٠) قاسم عبد قاسم، اليهود في مصر، ص ٦٢؛ دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٢٦، ١٢٧.

نجاسة الثياب عند غسلها فيحترز البول، والغائط ،والمذي، والدم، وغيره، وعليه وضع الماء في محل النجاسة بحيث يذهب طعمها، ولونها، إلا أن يعلق اللون بالمحل كالدم، فيعفى عنه، في حين أن الفقراء يتولون غسيل ملابسهم بأنفسهم في أماكن معينة على شاطئ النيل عرفت باسم المناشر[١].

التسول:-

لقد احترف بعض الحرافيش التسول في الأماكن العامة، وبخاصة المساجد في أيام الجمع، والأعياد مستخدمين كشف عوراتهم لاستدرار عطف الناس[٢]. فلقد اتخذ البعض منهم مظاهر التدين الزائفة ستاراً لاسترقاق قلوب المارة، وهناك من يستجيبون لابتزاز المتسولين، ويقعون فريسة لحيلهم، وأكاذيبهم المفتراة، بدعوى أن الإسلام يدعو لعدم رد السائل.

لذا فقد كان على قومة المساجد منع السائلين حتى لا يشوشوا على من يتعبد فيه. وقد صور الرحالة جوزيف رؤيته لهم مجتمعين مساء يوم الخميس وهو اليوم السابق ليوم الجمعة حيث يعطي فيه الإحسان[٣]. وقد عرف السبكي صور الاحتيال لهم بقوله: "**اتخذوا السؤال مناعة فيسألون من غير حاجة على أبواب المساجد**" ومنهم من يكشف عورته ويوهم الناس أنه لا يجد ما يسترها إلى غير ذلك من الحيل[٤]. وقد أخذ عليهم أحد الفقهاء سؤالهم، حيث يدعون الفقر، فإن أضاف إلى ذلك السؤال فهو بذلك يستكثر من نار جهنم، ولذا فمن الأحكام التي تعرض للسؤال إلى الوجوب إذا خاف على نفسه أن يموت هو أو عياله جوعاً أو عرياً[٥]؛ فلابد أن تكون حاجته ذا أهمية كمن له جبة، وليس له قميص تحتها في الشتاء؛ فيتأذى من البرد، ومن وجد وهو محتاج فله أن يسأل ولكن بقدر ما يحتاج فقط كالضروريات[٦]، بمعنى أن من يطلب شيئاً وعنده مثله؛ فسؤاله حرام[٧] وبهذا يصبح السؤال مهنة.

وقد أشارت إحدى مسرحيات خيال الظل لكيفية الشحاذة، ومن ضمن تلك النصائح (سيروا في البلاد وانصبوا الشباك على العباد، اركبوا قوارب الإلحاح)، فقد كانت مهنة التسول مهنة لمن ليس له مهنة، وقد أشار نفر من الباحثين لزيادة ميل الفقراء إلى التسول لغياب نظام التخفيف عن الفقراء من جانب الدولة؛ فاعتمدوا على مواردهم الخاصة بالتسول، وبالتالي لفت الانتباه إلى فقرهم، فيحصلوا على

---

(١)المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٦٤؛ السبكي، معيد النعم، ص ١٣٨؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٤٧.
(٢) ابن الجوزي، مختصر منهاج القاصدين، ص ١٢٥؛ السبكي، المصدر السابق، ص ١٤٧، ١٤٨.
(٣)ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٢٢٥؛ جوزيف بتس، رحلة، ص ٣٩.
(٤) السبكي، المصدر السابق، ص ١٤٧، ١٤٨.
(٥)ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص ٤٧٩؛ فتح الله، عقد الدر واللآل في بيان فضل الفقير، ص ٩٢.
(٦) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٣٣٨.
(٧) الغزالي، إحياء علوم الدين، (ج٤، دار الصابوني، القاهرة ، د.ت)، ص ٢١١.

الإحسان[١]، وقد ازدادوا وقت الأزمات وأصبح التهافت على اللبابة بدلاً من اللقمة مثل ما حدث بأعقاب مجاعة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م[٢] لدرجة أن العماد الأصبهاني قال في مجاعة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م أن مراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم تسترق الجياع[٣]. بينما في أحداث مجاعة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م كان العجين إذا خرج إلى الفرن انتهبه الناس[٤] فأحياناً كثيرة يكون السؤال لقوت أشباحهم[٥].

فقد تبدأ الشحاته بالحاجة، والعوزة ثم تتحول إلى حرفة[٦]، مثلما فعل أهل الريف عند هجرتهم إلى القاهرة هرباً من طوفان المجاعات، والأوبئة، وظلم وبطش السلطة الحاكمة، وبحثاً عن مأوى العاصمة، التي تعجز عن احتضانهم، فينضمون لجمهور الشحاذين أملاً في الصدقات التي توزع أحياناً زمن المجاعات[٧]، ومن أجل ذلك كثرت الأمثال الشعبية عليهم مثل: "**اللي يعرف الشحات بابه يا طول عذابه**" ويضرب هذا المثل في الطلب الكثير الإلحاح[٨]؛ ومن ثم يصعب التمييز بين المدعى، والمحتاج للإحسان، وخلاصة الأمر هو امتلاء شوارع القاهرة بهم معبرين عن حجم التمايز الطبقي، والظلم الاجتماعي خلال القرنين السادس، والسابع الهجريين- الثاني عشر، والثالث عشر الميلاديين[٩].

في حين أن الإسلام ينبذ الكسل، والبطالة، والتواكل بكل صوره، ومنها التسول، واستجداء قلوب الناس، ولكن من المؤكد أن هناك نسبة من هؤلاء السائلين كانوا فقراء حقيقيين يستحقون الصدقة، وإن كان من الصعب التمييز بينهم، وبين من لا يستحقون، ولكن مما لا شك فيه أن الغالبية منهم اتخذوها حرفة، وهم لا يستحقون، ومنهم من كان في بادئ الأمر يستحق ثم أصبحت مهنة له بمعنى إعطاء كل متسول غير محتاج يعني حرمان فقير محتاج، لذا فقد كان على السلطة الحاكمة في تلك الفترة أن تجد نظاماً للحد من تلك الحرفة، وذلك بالبحث عنهم وعن مشكلاتهم بما يتيح الفرصة للفقراء، والمحتاجين في الصدقات، دون إحساسهم بأنهم عالة على المجتمع، ونستثنى من ذلك الأمر فترات الأزمات كالمجاعات، والأوبئة، وهجرات الريف، وغيرها من الظروف التي يكثر فيها المتسول، والسائل بحكم تدهور الأوضاع بصفة عامة بالدولة.

(١) آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص٦٦،٨٤،٨٥؛ صلاح أحمد هريدي، الحرف والصناعات، ص ٨٢.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٩.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٧٤.
(٤) المقريزي، المصدر السابق، ص ٢٨، ٢٩.
(٥) فتح الله، عقد الدرر، ص ١١٦.
(٦) أحمد شعلان، الشعب المصري، ص ٣١٤، ٣١٥.
(٧) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٧٢ بتصرف.
(٨) أحمد تيمور، الأمثال العامية، ص ٧٨.
(٩) طافور، رحلة، ص ٩٧.

الشطار والعيارون:-

لقد تواجد بكل حي خصوصية مصانة عند الحاجة بفضل شبان ينظمون أنفسهم في شكل مجموعة (زعار- عيارون- فتيان)، ولها بعض المثل الأخلاقية، وكان لهم مجال أوسع للعمل في أوقات الاضطراب في المدينة[١]. وتضع السير الشعبية جرائم الشطار في ميزان الشجاعة، والمروءة فقد يحققوا مآرب العامة كلما دعت الضرورة لذلك كي يفكوا عنهم إصرهم من الدين، والغلبة[٢]؛ فهم اللصوص من الصعاليك، والشطار، والفتيان، والزعار، والحرافيش وأصحاب المهن المحقرة، وأشباههم من المعدمين، والفقراء والجياع، والعاطلين الذين طحنهم الفقر. فالشطارة هنا بمعنى الانفصال، والابتعاد، فهم طوائف تقتص من الهيئة السياسية، والاجتماعية عن طريق لصوصية السيف، أو العقل، وبمقدورهم تهييج العامة عند الضرورة بشكل جماعي، في حين حركة الصعاليك تقوم على النشاط الفردي[٣].

وقد كونوا مجموعة من الشباب "الأحداث" من الفسطاط، والقاهرة، وتنافسوا في مباريات المصارعة، والملاكمة، وقد ارتبطوا بمنطقتين سكنيتين وهما الحسينية، والصليبية قرب جامع ابن طولون، وقد تأثروا بمبدأ "الفتوة" التي اعتنقها مجموعة متشابهة ببلاد الشام، والأناضول[٤]. فالفتى عندهم من أطعم المسكين، والضعيف، وجعل الحق بين عينيه، والباطل من ورائه، ويطلق المحبوس، فالفتوة أخلاق قبل أن تكون قوة، فقد ارتبطت تلك الفئات بعالم الجريمة كنهب منازل الأغنياء، وإطلاق سراح المسجونين خلال الاضطرابات وأعمال الشغب[٥]. ورغم وصف المؤرخين إياهم بصفات مذمومة إلا أنهم تاريخياً كانوا أصحاب قضية فتميزوا بآداب، وتقاليد تميزهم عن سمات اللصوص من شجاعة، وعهد، ومحافظة على المحارم، ولأنهم أطلق عليهم العصاة، فقد اضطروا للعيش على هامش المجتمع، والتمرد على قوانينه المفروضة؛ فكان بطل تلك القصص الشعبية واحداً من أبناء العامة الذين نشأوا في أحضان الحارات، والأزقة، وبطولته كرجل عادي طحنه الظلم، والحرمان ليحارب الطغاة باللصوصية؛ فقد انطلقوا جميعا في طلب الحاجة من منطلق التفاوت الاقتصادي فبينما كان أولئك المترفون يهنؤن بعيش ناعم كان المعوزون يعانون ذل الفقر وألم السؤال[٦]، ليظهر صورة ذلك البطل

(١) البرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ١٥٦.
(٢) ألف ليلة وليلة، (٦ أجزاء، بيروت، دار العودة، ١٩٨٨م)، ص ١١٥٥- ١١٥٨.
(٣) محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعياريين، ص ٧، ١٠٩.
(٤) آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٣٤، ٣٥.
(٥) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ١٢٩ ؛ آدم صبرة، المرجع السابق، ص ٣٥.
(٦) محمد رجب النجار، المرجع السابق، ص ١٣٥، ٣٩٠، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤٢٧.

مثل "علي الزئبق" في التعامل مع العامة الكادحين من أرباب الحرف الصغيرة كالبغالين، والصباغين، وغيرهم محاولاً إيجاد حقوقهم من أفراد السلطة الحاكمة[١].

الحصريون:-

لقد كانت صناعة الحصير من أهم الصناعات الصغيرة؛ التي انتشرت بالريف لتوفر المواد التي تصنع منها الحصر مثل: سعف النخيل، وسيقان البردي، ويبلغ ثمن الحصير درهمين، وهي أكثر المفروشات شيوعاً في القاهرة ولا يستغنى عنها جميع الدور بالقاهرة[٢]، وحتى المساجد، وحوائط الحمامات التي تقام أثناء عمليات القتال، وقد كانت تُصبغ أغصان نبات الأسل باللون الأسود، والأصفر، والأحمر، أما رسومات الحصر فألوانها سوداء، وصفراء[٣]. ومما يدل على رواج صناعة الحصر ما ذكره الرحالة البغدادي بقوله: "**إنه كان بمصر تسعمائة منسج للحصر فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً**" وذلك بسبب مجاعة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م، وقد بلغ أمر الحصريين أنه كان يعرف عليهم رجل خبير يؤخذ عليهم عدم صناعة الحصر إلا من أنواع النبات الجيد، وغيرها من المواد المناسبة لصباغتها[٤].

مهن البناء:-

تعتبر من أشق المهن لاعتمادها على صحة عمالها دون وجود من يساعدهم من آلات؛ فبأيديهم قامت بنايات القاهرة بل، ومصر كلها، فبها تستر عورات جميع فئات المجتمع المصري أثناء حياتهم، وبعد موتهم بالمدافن[٥]. وقد ارتبطت بتلك المهن عدة حرف مثل: الحجارين، والصقالين، والجيارين، وغيرهم، وكان يساعد البنائين طائفة من "الفعلة" وتلك الحرف تحت رئاسة شاد العمائر، وعليه الرفق بهم وإطعامهم، وتركهم وقت الصلوت، ولا يدخل ذلك من الأجرة[٦]، وقد لفت عملهم الشاق انتباه أحمد ابن طولون عندما كانوا يبنون جامعه، أثناء العشاء في رمضان عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م فقال: "**متى يشتري هؤلاء الضعاف إفطاراً لعيالهم، وأولادهم اصرفوهم العصر فصارت سنة إلى اليوم بمصر**"[٧].

والمعماري ليس سوى بناء يعمل بلا مخطط ببعض القياسات البدائية، وكذلك الحال بالنسبة لنحات الحجر والخشب، والرخام "النقار" أما "نقاش" الحجارة الملساء، فهو يمارس تلك الصناعة بإبداع. أما العمال، والفعلة فيجمعون من القرى، والشوارع لتسخيرهم في حفر، وبناء الجسور، وكانوا عرضة

(١) ألف ليلة وليلة ، ص ١١٥١- ١١٦٣.
(٢)السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات، ص ٣٧٥؛ محمود أبوزيد، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الريف، ص ٢٠٨،٢٠٩؛ الريف المصري، ص ٢٦٦؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٧٢.
(٣) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ١١٣؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ١٢٠؛ جومار، المرجع السابق، ص ٢٧٢، ٢٧٣.
(٤)البغدادي، رحلة، ص ١٤٣؛ السيد طه أبو سديرة، المرجع السابق، ص ٣٧٨.
(٥) ابن الحاج، المدخل، ج٤، ص ١٩٤، ١٩٥.
(٦) السبكي، معيد النعم، ص ١٢٩، ١٣٠، ابن الحاج، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٩٨؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٣٤، ١٣٥.
(٧) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣٧.

لكل ضروب الظلم من تسخير، وإنقاص أجورهم[١]، ويستخدم بناءوا القاهرة نوعية من مواد البناء: الحجر المنحوت، والطوب، وقد كانت الآلات المستخدمة بدائية، ولكنهم يتلافون عيبها بالمهارات[٢] في حين استخدم البعض طمي النيل كمادة للبناء، فصنعت منه قوالب الطوب، ويجب على الصانع نصح صاحب العمل لتوفير المؤنة، ولا يطلب أكثر من حاجة العمل[٣]، ومن حق البناء ألا يزخرف بالذهب، وأما الطيان فلا يجب أن يطين جداراً آيلاً للسقوط رغبة في الأجرة ومن ناحية أخرى كثرت شكوى الناس من تصرفات عمال ذلك الزمن، وأخلاقيات العمل لديهم، فعندما كانوا يعملون بأجر يومي لدى الناس كانوا يتأخرون في الحضور، ويبكرون في الانصراف[٤]، وأخيراً؛ فعملية البناء قد لعبت دوراً مهماً في المجتمع فهي ليست سهلة ولكنها صناعة لأن بها يستتر الفقير والغني[٥].

مهن خاصة بالحمامات:-

لقد كانت بيوت المصريين تفتقر للحمامات؛ فيقصدون الحمامات العامة لتنظيف أجسادهم[٦] فقد كان بمصر (الفسطاط) ١١٧٠ حماماً، أما بالقاهرة حتى عام ٦٨٥هـ/ ١١٨٦م فتقرب من ثمانين حماماً وعلل أحد الرحالة كثرة الحمامات العامة لارتفاع حرارة الجو بمصر، بالإضافة لأن دين الإسلام حث على النظافة[٧]؛ ومن أجل هذا ظهرت أهمية وظائف الحمامات وأعلاها شأناً الحمامي ويسمى المدولب، وكذلك المعلم الذي يدير الحمام، ويختار العاملين، ويشرف على نظافة الحمام[٨].

ومن المهن المرتبطة بالحمام مهنة القيم أو المكيساتي، ويسمى اللاونجي وعليه غض البصر عن العورات، وعدم اللمس بدون حائل[٩]، وعليه تدليك الجسم، وطقطقة المفاصل، وإزالة الأوساخ من راحة القدم، وإزالة الجلد الميت عن طريق "حجر الحمام" أما الناطور، أو الحارس فعليه ملاحظة أشياء المستخدمين، وعليه أن يكسو الداخل إلى الحمام بأنواع من المناشف والفوط قبل، وبعد الانتهاء من غسله بالحمام، كما يقوم بحراسة الحمام وإن ضاع شيء من ثياب أحد لزم ضمانه[١٠].

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٢٤١؛ قاسم عبد قاسم، النيل، ص ٣٤؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٧٧.
(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٤٠- ٣٤٢؛ جومار، المرجع السابق، ص ٢٦٦.
(٣)البغدادي، رحلة، ص ٥٧؛ ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٤١؛ ابن الحاج، المدخل، ج٤،ص ١٩٧.
(٤) السبكي، معيد النعم، ص ١٢٩، ١٣٠؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٣٥.
(٥) ابن الحاج، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٩٤؛ ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٣٩.
(٦) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٩.
(٧)المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٢٩؛ إلهام محمد علي ذهني، مصر في كتابات الرحالة والقناصل والفرنسيين في القرن الثامن عشر، (تاريخ المصريين، ع ٥٢، الهيئة، القاهرة، ١٩٩٢م)، ص ٣٣١.
(٨) سعاد محمد حسن، الحمامات في مصر الإسلامية، (رسالة دكتوراة، غير منشورة، آثار القاهرة، ١٩٨٣م)، ص ٢٢- ٢٤.
(٩) السبكي، المصدر السابق، ص ١٣٥.
(١٠)الشيرزي ،نهاية الرتبة، ص٨٨؛ محمد الجهيني، أحياء القاهرة القديمة، ص١٣٨؛ سعاد محمد، المرجع السابق، ص ٢٥ .

أما المزين أو الحلاق أو البلان فيقوم بمهام متقاربة فأشار السبكي للمزين بقوله: "**أن كثيراً ما يقصد بعض السفلة والرعاع جب ذكره**" أو يثقب أذنيه ويضع فيها حلقين(١) ولابد للمزين أن يكون بصيراً بالحلاقة، وحديده رطباً قاطعاً، ولا يحلق أمرد ولا لحية مخنث، ومنهم من يطوفون بالبيوت ومراياهم معلقة في رقابهم ينادون من يرغب في الحلاقة وقد شهد الرحالة "بيروطافور" عدداً من الصبية السود وأعمارهم ما بين العاشرة، والثانية عشرة يجوبون القاهرة وهم يصيحون: "**من يريد الزيانة**"؟، ويقومون أيضاً بخدمة النساء اللائي يردن النظافة سراً، وعموماً كانت مهمة المزين الأساسية هي قص الشعر، وتهذيب الشوارب والذقون(٢).

وقد وجدت بعض المهن غير متصلة بجمهور المستحمين مثل الوقاد الذي يقوم بإمداد المستوقد بالوقود اللازم، والسواق الذي يقوم بإدارة الساقية، وإحضار الأدوات اللازمة لملء الصهريج، وكذلك الزبال الذي يقوم بإحضار الوقود اللازم للمستوقد، وهو من مخلفات الحي، وقد استخدمت أدوات عديدة خاصة بالحمام كالأزياء، والمناشف، واللوف، والقباقيب، والملاقط، والأمواس، والأمشاط، وحجر الحمام وهو النوع الغالب للاستخدام للطبقات الفقيرة وغير ذلك من الأدوات(٣).

مهن أخرى:-

مثل العاملين بالجوامع ويأمرهم المحتسب بكنسها يومياً، وتنظيفها من الأوساخ، ومسح حيطانها وغلق أبوابها بعد كل صلاة، وإشعال قناديلها كل ليلة(٤)، وعليهم منع مزاولة الشحاذين مهنتهم بالمساجد(٥).

ويشير المحتسب لعمل المؤذن فعليه أن يكون عارفاً بأوقات الصلوات، ينهيه عن التطريب، أما أهل القرآن فعليهم قراءته مرتلاً، وعدم التلحين، في حين شغلت بعض فئات الطبقة الشعبية وظائف ثانوية في الخانقاه مثل الفراش، والوقاد، والساقي، والمبخر قبل صلاة الجمعة(٦).

ولقد وجدت العديد من الحرف البسيطة الأخرى كالمحترفين في الإضحاك، واللعب بالعرائس أثناء الأعياد، ويطوفون بألعابهم طلباً للهبات من التجار، والعامة(٧). أما مدرب الكلاب فيثير انتباه مشاهديه ويوكل إليه العناية بهذه الكلاب وسائر الدواب، ويحصل على هدايا مناسبة في الأعياد وليس

---

(١) السبكي، معيد النعم، ص ١٣٤.
(٢)الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ٨٨؛ طافور، رحلة، ص ٩٧؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، ص ١٦٦؛ المجتمع المصري، ص ٩٥؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٢٧.
(٣)سعاد محمد، الحمامات، ص ٢٦، ٣٤، ٣٨، ٣٩.
(٤) الشيرزي، المصدر السابق، ص ١١٠.
(٥) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٢٢٥.
(٦) الشيرزي، المصدر السابق، ص ١١١- ١١٣؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٧٨.
(٧) المقريزي، الخطط، ج٢، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٢؛ عبد المنعم سلطان، الأسواق في العصر الفاطمي، ص ١٧٤.

أجر وعليه أن ينفي العليق لتلك الدواب[1] وبصرف النظر عن المهن التي سبق ذكرها كانت وضيعة في نظر البعض، إلا أن مما لا شك فيه إنها كانت ذات أهمية للمجتمع المصري، وبدونها يحدث خلل في حراك الاقتصاد المصري، أو سير الحياة.

ثانياً: مهن خاصة بالنساء:

نظراً لظروف الحياة الصعبة، تطلب الأمر عمل المرأة وخصوصاً الفقيرات منهن فقد كان من أوامر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله المجحفة منع النساء الخروج ليلاً ونهاراً إلا "**العجائز الغسالات، والأرامل اللاتي يبعن الغزل، والأكسية والضعاف من أهل المسكنة**". وتبع ذلك مرسوم عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م لخروج غسالات الموتى شرط وجود تصاريح[2]. وقد كانت مهنة النائحة من أقرب المهن ارتباطاً للغسالات، فتقام المآتم بالمغاني، والندابات اللاتي يضربن بالدفوف، ويلطمن على وجوههن، ويلطخن أذرعهن بالسخام، ويتبعهن عدد من النسوة ينوحن في الشوارع فيطلق عليهم "الفقراء الذاكرون"، ومنهم من يأتي عند القبر بجوق من النوائح مختلفة الأصوات، وتنوح كل واحدة بقول مختلف عن غيرها[3].

الدعارة:-

لقد كانت من المهن التي تحظى برعاية الدولة بأواخر القرن السابع الهجري- الثاني عشر الميلادي؛ لأنها كانت تفرض عليها ضريبة معينة تدر دخلاً كبيراً للخزانة السلطانية؛ فمن ترغب في الدعارة عليها أن تذهب إلى "ضامنة المغاني"[4]. وقد أوضح المقريزي ذلك بقوله: "**لو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة**"[5]. وقد كان تجمعهم بسوق الشماعين ويقال لهم بالليل زعيرات الشماعين، ويبدو أنهن ذات لبس مميز من حديث المقريزي عنهن بقوله: "**هو لبس الملآت الطرح وفي أرجلهن سراويل من أديم أحمر، وكن يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال المشالقين في وقت لعبهم**"[6]. ويبدو أن لهن شوارع معينة ذات بيوت معينة، وقد يتجولن سافرات في الشوارع، ويضفرن

(١) السبكي، معيد النعم، ص ١٤٤، ١٤٥؛ الشربيني، هز القحوف، ص ٦٦؛ محمد حسن، الأسرة المصرية، ص ٩٤؛ صلاح أحمد هريدي، الحرف والصناعات، ص ٨٣.
(٢)المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٨٨، ٢٨٩؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص ٦٠؛ سهام مصطفى أبو زيد، الحسبة في مصر، ص ١٩٠.
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٨، ١٠٩.
(٤) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٣٩.
(٥) المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ١٧١.
(٦) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٦.

شعورهن في ضفائر تصل لأعقاب أقدامهن، ووصل الأمر لوقوفهن بالأسواق تحت أعين المارة مستغلين جمالهن للإيقاع بالرجال، وإذا طمع فيها أحد الرجال اتبعها لمنزلها وعليه دفع ثمن شهوته التي تصل لقتله، وسلب أمواله أحياناً(١). بينما أشار الرحالة جوزيف بتس إلى أنه مقابل ثلاث بارات أو أربع يمكن لأي رجل أن يقضي شهوته الجنسية معهن(٢).

فقد عانت المجتمعات العربية/ الإسلامية كثيراً من مظاهر التدهور الاجتماعي على صعيد النظام القيمي والأخلاقي، حتى صارت الدعارة من أكثر المهن رواجاً، وتنظيماً بتلك الفترة، فهن الفواجر من النساء ممن يتكسبن بالجسد(٣). وأحياناً يلعب العامل الاقتصادي دوراً فعالاً لانتشار هذه الحرفة في أوساط بنات العامة في القاهرة لحاجتهن للعمل للإنفاق على أنفسهن، وذويهن لسوء أحوال المعيشة ولكن في أشد الظروف الاقتصادية تصبح تلك المهنة إجباراً وليس اختياراً. ففي أثناء مجاعة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م من شدة تلك المجاعة على الفقراء عرضت امرأة على الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي كان شاهداً على تلك المجاعة، أن يشتري ابنتها وهي دون البلوغ بخمسة دراهم، وشاعت الدعارة مقابل المال، ومنهم من يزعم أنه افتض خمسين بكراً بل سبعين(٤). لذا فلم تكن حرفة الدعارة محببة لجميع من عمل فيها بل كثيراً ما أجبرتهم الظروف على هذا، لذا لا نبالغ إن قلنا إن معظم من عمل في تلك المهنة فقراء، فتبيع الفقيرات شرفهن من أجل الحصول على ما يسد رمقهن، وبعد أن يموت ضميرهن الإنساني تصبح الدعارة مصدر ثراء لهن. فكان يجب أن ننظر للظروف التي أدت بهن لذلك قبل الحكم عليهن واتهامهن بفساد المجتمع، فتحت ضغوط المجاعات والأوبئة وسوء الوضع الاقتصادي أحياناً يجب أن نلتمس لهن العذر، ونوجه اللوم للسلطة الحاكمة التي عملت على حمايتهن ورعايتهن من أجل ملء خزينة الدولة.

البلانة:-

لقد عملت في الحمامات، فباستقبال النساء بعد أن يغادر الحمام كل الخدم الذكور، وتحل محلهم خادمات، في حين أن الجواري كانت تقمن بتدليكهن(٥). بينما تقوم البلانة بعد تجفيف جسد المستحمة بإزالة الشعر ببعض المواضع مستخدمة الصمغ الشائع الاستعمال، وقد تتولى البلانة شئون الفتاة عند

---

(١) جوزيف بتس، رحلة، ص ٣٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ١٢٧، ١٢٨.
(٢) جوزيف بتس، المصدر السابق، ص ٣٣.
(٣) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، ص٢١٠؛ عصمت محمد حسن،جوانب من الحياة الاجتماعية، ص١٣١ ؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص١١٢.
(٤) البغدادي، رحلة، ص ١٤٠.
(٥) جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢١٧؛ أحمد عوف، الفسطاط، ص ٩.

زواجها، فتدخل معها الحمام، وتعدها في ليلة الحناء، وتجملها في ليلة الزفاف[١]، وقد تصحب المرأة معها أفخر ثيابها لتقع المباهاة، والمفاخرة بكشف عورتها للبلانة[٢].

المهم بعد عمل البلانة تقع تحت أيدي الماشطة التي تقع مهمتها في تزين الوجه، والرأس[٣]، وأحياناً تقوم بالتجميل في الحمامات والأفراح فتحضر الثياب، والحلى للاستعارة بأجرة طيبة[٤]. بينما تعير الفقيرات منهن الثياب والحلى في مناسبات الزواج، ولم يشذ أهل الذمة عن المسلمات، فقد مارست اليهوديات تلك الحرف كالماشطة، والبلانة[٥]. والجدير بالذكر، أن معظم النساء اللاتي اضطررن لمزاولة تلك المهن كن من الأرامل اللاتي صرن في حاجة إلى المال للإنفاق على أولادهن[٦].

القوابل:-

من ضمن المهن التي عملت بها النساء: هي القوابل (الداية)، فيحضرون قبل الولادة بيومين أو ثلاثة لمنزل السيدة المحتاجة إلى كرسي الولادة التي تجلس عليه أثناء الولادة، وكان يغطى بشال، يوضع أمام منزل الحامل إعلاناً لقرب وصول مولودها[٧]. وكان يتفق مع الداية على أجر معلوم حتى لا يحدث نزاع بعد الولادة، وقد عملت بعض اليهوديات في مهنة القابلة، ومعلوماتهن جاءت عن طريق الممارسة، وتوارث المهنة[٨]. وقد كانت الداية تتعهد الأم ومولودها بالرعاية بعد الولادة، فنجدها أبصر من الطبيب في تلك الأمور[٩].

الدلالين:-

وهي تتوسط البائع والمشتري، ولابد أن يكونوا من أهل الدين والأمانة، وصدق القول لأنهم يتسلمون بضائع الناس، ويقلدونهم الأمانة في بيعها[١٠] وتقوم الدلالة بالمرور على السيدات في منازلهن لعرض ما يحتجن من ملبوسات وغيرها بحيث توفر عليهن مشقة الخروج إلى الأسواق، وقد عملن

(١) سعاد محمد، الحمامات، ص ٢٧، ٢٨.
(٢) ابن الحاج، المدخل، ج٣، ص ١٧٣؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١٥٧.
(٣) أحمد عبد الرازق، المرأة في مصر المملوكية، (س تاريخ المصريين، ع ١٤٦، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٣٨، ٨٥.
(٤) المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ص ٥٣١.
(٥) أحمد عبد الرازق، المرجع السابق، ص ٣٨؛ قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ص ٦٦؛ زبيدة محمد عطا، اليهود في العالم العربي، ص ١٧٨.
(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٩٣، ٩٤.
(٧) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٣٤٤؛ أحمد عبد الرازق، المرجع السابق،ص ٣٩.
(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ١٢٣؛ زبيدة محمد عطا، المرجع السابق، ص ١٧٩.
(٩) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٤٥.
(١٠) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ٦٤.

أيضاً بمهنة الخاطبة التي قامت بدور أساسي في معظم زيجات أبناء عصرها(1)، وذلك لأنها تعرف كل حرة، وعاهرة، ومليحة بمصر والقاهرة، فتتظاهر ببيع كل لوازم النساء كالدلالة، فيتاح لها دخول البيوت فتطلع على أسرار الحريم، فتأتي للعريس بالعروس التي تتفق مع رغباته، كما جرت العادة حرص الخاطبة التردد على حمامات النساء للتعرف على صفات الفتيات، وإذا رضى الراغب في الزواج بالمعلومات فيسرع، ويقدم لها هدية، ويرسلها لعائلة الفتاة لتبلغها رغبته في الاقتران بابنتها(2).

وقد عملن أيضاً في الغزل والنسيج فيغزلن الكتان، أو الصوف، والرجال ينسجونه، ويحصل النساجون على الغزل من الأسواق حيث تجيء النساء لبيع ما قمن بغزله(3) وعملن النساء اليهوديات أيضاً في صناعة النسيج بمنازلهن، وقد شاركن نساء المجتمع المصري الفقيرات بمهنة الأقمشة ويباع الناتج بواسطة الدلالات(4)، بينما وجد بعض من النساء قمن بالاشتغال بالعلم والأدب، والوعظ، وإلقاء الدروس مثل: السيدة أم الخير الحجازية، ولها رباط باسمها في القرافة الكبرى، وكانت تعقد مجالس الوعظ بجامع عمرو بن العاص وقد كانت أعمالهم لا تهدف للرزق بقدر التعلم(5) في حين أن عجائز النساء اليهوديات احترفن مهنة قراءة الكف والطالع(6) ويبدو أنهن عملن بمهنة الطبخ أيضاً وذلك عندما أخلى صلاح الدين قصور الخلافة منهن بالبيع، والهبة، والعتق، وكان إقبال الناس عليهن(7)، فقد كن "لهن في الطبخ صناعة عجيبة"(8)؛ وهكذا تكون المرأة قد شغلت حيزاً لا بأس به من مهن الفقراء.

وتعتبر هذه هي أهم الحرف المتصلة بالحياة اليومية والتي عمل بها الفقراء وهي حرف تكشف النقاب عن جوانب من صور الحياة الاجتماعية في مصر خلال القرنين السادس، والسابع الهجريين- الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. في حين وجدت العديد من الحرف التي ضمت عدداً كبيراً من الفقراء، والتي استمرت بشكل أكثر تحضراً مثل: الباعة الجائلين، وحرف الخبز، والبناء، المكارية، ومهنة الخياطة، الإسكافي وغيرها، بينما وجدت حرف عمل بها الفقراء قد اضمحلت واختفت مع

(1) ابن دانيال، خيال الظل، (تحقيق إبراهيم حمادة، ط2، الدراسات الشعبية، ع32، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1998م)، ص 193، 194؛ قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ص 66.

(2)سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص 119؛ شلبي جعيدي، طبقة العامة، ص 131؛ سعاد محمد، الحمامات، ص 86، 87؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 119، 120.

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص 343، 344؛ محمد محمود أبو زيد، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الريف، ص 202.

(4) زبيدة محمد عطا، اليهود في العالم العربي، ص 179؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 66.

(5) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص 329؛ المقريزي، الخطط، ج4، ص 333، 334؛ محمد عبد العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون،ص 45؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، ص 117، 118.

(6) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 66؛ زبيدة محمد عطا، المرجع السابق، ص 179.

(7)المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص 394؛ عدنان فايز، عمران القاهرة، ص 133.

(8) ابن سعيد، النجوم الزاهرة، ص 29.

الوقت وهي كمهن الحمامات، والقوابل وغيرها، وفي نهاية الأمر أثبتت حرف الأغذية أنها ستظل على مر العصور، مهما تغير شكلها، أما الحرف الخدمية فقد اختلف شكل تقديمها من عصر لآخر وذلك حسب متطلبات ذلك العصر وحسب احتياجات المجتمع بشكل عام.

ويجب الإشارة إلى أن الحكومات الإسلامية بصفة عامة، كفلت لأهل الذمة من أرباب الحرف والصناعات حرية واسعة في ممارسة أعمالهم[١]. وعموماً، فالحرفيون ضرورة لازمة للحياة اليومية، فكان لابد من وجود تنظيم يحميهم ويحمي المستهلك[٢] ورغم أهمية النقابات التي تقوم بذلك الدور، كالدفاع عن العمل بغية تحسين أوضاعهم الاقتصادية إن وجدت، والحفاظ على حقوقهم المهنية، والنظر في مشكلاتهم وتقديم العون لهم في حالات العجز، والإفلاس[٣] لتصبح كل حرفة لها نقابة خاصة بهم ولها نظام يحدد عددهم، ومعاملاتهم بين الجمهور، والحكومة، ولهم رئيس أو شيخ وعليه تحديد الأسعار، والأجور، وتوفير احتياجات مجتمع المدينة[٤] ولابد لأي صبي الدخول في حرفة ما أن يكون صانعاً ماهراً ثم يحصل بعد ذلك من شيخ الطائفة على شهادة بذلك؛ ليصبح معلماً، وعضواً بالطائفة وكان يلي الشيخ في الترتيب النثيب، ثم الأستاذ، ثم الأسطوات، ثم المبتدئون، أو الصبيان[٥] إلا أن دور النقابات يصبح مهمشاً في أوقات يحتاج فيها الحرفيون والمهنيون إليهم وهي أوقات الأزمات: كالمجاعات، والأوبئة ففي تلك الأزمات تفقد الدولة السيطرة التامة على البلاد، ولأن تلك النقابات لا تخضع لسيطرة كاملة من الدولة ففي وقت الأزمات يصعب على تلك النقابات تقديم المساعدة للحرفيين وأصحاب المعايش وغيرهم لأنهم في الأصل في حاجة إلى مساعدة.

---

(١) أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية، ص ١٣٢.
(٢) هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، (ترجمة عطية القوصي، الهيئة، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص ١٦٩، ١٧٠.
(٣) محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١٥٣.
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٢٩٦؛ شلبي جعيدي، العامة في مصر، ص ٦٣.
(٥) شحاته عيسى إبراهيم، القاهرة، ص ٢١١؛ محمد عبد العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون، ص ٢٥.

ثانياً: مدى تأثر الفقراء بالمجاعات والأوبئة:

لقد أفاضت كتابات المؤرخين، والمعاصرين بمدى تأثر الفقراء بتلك الكوارث التي أزاحت الستار عن خلل المنظومة العامة للسلطة الحاكمة بعجزها عن تفادي تأثير تلك الأزمات عليهم؛ وما يجب أن يشار له من خلال ذلك: هي حالة الفقراء أثناء هذه الأزمات ثم نتائج تلك الكوارث وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. لذلك يستوجب على الباحث عرض لأهم تلك المجاعات والأوبئة وأشكالها بصورة توضح مدى تأثر الفقراء بتلك الأزمات من خلال ما أفاضت به المصادر ومشاهدات الرحالة.

كان الناس دائماً إذا توقف النيل في أيام زيادته، أو زاد قليلاً يقلقون، ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل[١]؛ ففي صفر عام ٥٩٢هـ/ يناير ١١٩٥م كثر الأموات بالطرقات، وعظم هلاك الأغنياء، والفقراء لدرجة البحث في المزابل عن قشور الترمس[٢]. وتعتبر من أهم المجاعات التي وقعت بالدولة خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، هي التي ألمت بمصر فيما بين عامي ٥٩٥/ ٥٩٨هـ (١١٩٥/ ١١٩٨م) ورغم أن مؤرخنا المقريزي كتب لنا عما حل بمصر بتلك المجاعة[٣] إلا أن الرحالة البغدادي قدم لنا وصفاً تفصيلياً بحكم أنه كان شاهداً لها، فقال: "واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا، الميتات والجيف، والكلاب ... صغار بني آدم" لدرجة أنه أحرق بمصر في يوم ثلاثون امرأة تقر أنها أكلت جماعة من الصغار، وقد عدد بمواضيع عديدة قصصاً بهذا النمط، ولخص ذلك بقوله: "**إنك لا تجد أحداً في ديار مصر إلا وقد رأى شيئاً من ذلك**"[٤].

واستمر الوضع كذلك في عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م، وصار الناس يأكلون الحيوانات الضالة بل وهرب الناس إلى المغرب[٥] لدرجة أن الرجل كان يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه[٦]. وفي تلك الأثناء، كان كثيراً من الأغنياء يخرجون ليلاً ويأخذون أخشاب الدور الخالية، ويبيعونها نهاراً[٧]. وفي عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م لشدة المجاعة تناقص موت الفقراء لقلتهم، وقل خطف الأطعمة من الأسواق لفناء الصعاليك، وتفتقر الدار بمالكها، ولا تجد من يشتريها، وصارت الطرق مزروعة بالموتى ولحومهم للطيور والسباع[٨].

---

(١) جمال الدين الشيال، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٨٢.
(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ١٣٠، ١٣١.
(٣) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٤، ٢٥؛ السيوطي، النيل وجزيرة الروضة، ص ٢١٨ .
(٤) البغدادي، رحلة، ص ١٣٢، ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩؛ علي مبارك، الخطط، ج٧، ص ٤٦.
(٥) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٧٦.
(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٧٣.
(٧) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٨.
(٨) البغدادي، المصدر السابق، ص ١٤٣، ١٤٤؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص ٤٥٥.

وفي عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وصل الأمر بأن الناس أكلوا ورق اللفت، والكرنب[١]. وتكرر قصور النيل والغلاء في عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م لدرجة أكل الناس لحم بعضهم[٢]. وبصرف النظر عن بعض المبالغات لدى أقوال المؤرخين والرحالة، فمهما كانت، فإن وصفهم لأشكال المجاعات وما يؤول إليه الناس؛ فهو وصف يشير إلى أن الدولة لم تكن على استعداد بشكل أو بآخر لمواجهة أي من تلك المجاعات، والأوبئة، وبالتالي ارتفاع الأسعار؛ لذا فقد كان الذعر يسود البلاد أثناء انخفاض مياه النيل، أو تأخر فيضانه؛ بما يوحي سيطرة النيل على المجتمع بجميع فئاته، بينما كان الأقدر، هو استشعار الدولة وسلطتها بما تسببه تلك المجاعات من ضرر وتلافي آثارها بمزيد من الوعي والحذر.

وعموماً، لقد كانت لتلك المجاعات والأوبئة آثار كبيرة. فمن الناحية الاجتماعية:- أدت كثرة عدد الموتى لتدهور مطرد في عدد السكان الأمر الذي أدى لتنافس موت الفقراء لقلتهم بمجاعة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م، وقد أفاضت المصادر بكثرة من كفن بتلك المجاعة منذ شوال عام ٥٩٦هـ وحتى رجب ٥٩٨هـ/ (يوليو ١١٩٩ وحتى مارس ١٢٠١م) إلى مائة ألف وأحد عشر ألفاً إلا آحاداً[٣] وفي عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤ م كثر آلاف الموتى يومياً وقيل إن بشهر ذي القعدة كان يموت باليوم أكثر من ألف نفس[٤]، في حين عندما قصر النيل في عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م قيل مات في هذه السنة من الناس نحو الثلث[٥] وقيل يخرج من كل باب من أبواب القاهرة ما يزيد على سبعمائة ميت، لدرجة وصلت إلى "**عجز الناس عن مواراة الأموات في القبور لكثرتهم**". بينما أشار بن حبيب أن من مات في شهر صفر/ ديسمبر يزيدون عن مائة ألف[٦].

وقد كان من الطبيعي أن يتخلخل بنيان المجتمع في أعقاب هذه المجاعات، والأوبئة فقد كانت أعداد الذين لا يملكون تتزايد عقب كل من هذه الأزمات إذ يضطر الناس إلى بيع ما يملكون لشراء ما يقتاتون به، ومن ثم يدخلون في عداد المعدمين، ومع توالي الأزمات تكثر أعداد أولئك المعدمين، وتقل دائرة الأثرياء الذين تقل درجة ثرائهم، ومن الآثار الخطيرة على البناء الاجتماعي ما ذكرته المصادر من أن البعض يضطرون لبيع أبنائهم أثناء هذه الأزمات[٧]. وذلك ما أكده الرحالة البغدادي أثناء مشاهدته

(١) المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ص ٥٠٦، ٥٠٧.
(٢) نفسه، ج١ق٣، ص ٨١٠؛ السيوطي، النيل وجزيرة الروضة، ص ٢٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٧١؛ علي مبارك، الخطط، ج١، ص ٨٩.
(٣) البغدادي، رحلة، ص ١٤٣- ١٤٥؛ السيوطي ، حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٤.
(٤) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٨٠٩، ٨١٠؛ بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١٤٤ .
(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ١٣٣، ١٣٤، ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٧٩؛ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، (نشرة محمد أمين، دار السداد، بغداد، ١٢٨٢هـ)، ص ٢١.
(٦)المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٨١٤، ٨١٥؛ ابن حبيب، تذكرة النبية، ج١، ص ١٨٤.
(٧) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٧١، ١٧٢.

لمجاعة (٥٩٦- ٥٩٨هـ/ ١٢٩٦- ١٢٩٨م) بقوله: "وأما بيع الأحرار فشاع، وذاع"؛ وقد أشار لاتخاذ ذلك طريقاً للكسب والربح من البعض[١]؛ وهذا يعني ربما زيادة عدد الرقيق ومع ذلك لم يشكل هذا ظاهرة عامة على المجتمع ككل ولكنه مؤشر على مدى التدهور الذي عانى منه الفقراء والمعدمون.

كان أكثر من تأثر من الريف هم الفلاحون الذين كانوا يموتوا والمحراث بيدهم مثلما حدث في مجاعة ٥٩٦هـ/ ١٢٩٦م[٢] ونتيجة لذلك ولأسباب طبيعية وبشرية عديدة تقلصت عدد القرى فأدى ذلك لانهيار آخر للبناء الاجتماعي من خلال الهجرات المتلاحقة من الريف للقاهرة العاصمة، وانضمامهم للخنقاوات، أملاً في إيجاد مأوى وملبس ومأكل[٣].

وفي أثناء هذه الأزمات، يهرب السلطان وأمراؤه من القاهرة، ويفعل ذلك أعيان ومياسير الناس، بينما يبقى العامة سواء الشعب غذاء سهلاً لهذه الكوارث والنكبات[٤]، حيث يتصارع عامة الناس في سبيل الحصول على القوت، فيتزاحمون على الأفران، وحوانيت الخبز، والدقيق، ويقتتلون من أجل ذلك، وفي أثناء التزاحم على الأفران ينهب الناس الخبز جهراً، بل يختطفون العجين إذا خرج إلى الفرن وكان ذلك في أعقاب مجاعة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م[٥]. وقد تكرر نفس الوضع عهد سلطنة العزيز عثمان في عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م حيث "**تعذر وجود الخبز وضج الناس**"، وفي عام ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م امتدت أيديهم إلى خطف ألواح الخبز، فكان الضرب هو نصيبهم، ومع ذلك لا يرمون ما خطفوه[٦]. فقد كان نقص الطعام بمثابة تهديد دائم لحياة الفقراء بالقاهرة وخصوصاً الخبز، ولذا فقد كانوا مربوطين أكثر بتقلبات أحوال السوق، فاعتمدوا على مساعدة النخبة العسكرية من خلال إمدادهم بالطعام مجاناً، أو بسعر مخفض وقت الأزمات. ومع ذلك استطاع الفقراء أن يجدوا طعاماً بديلاً أثناء الأزمات ففي غلاء عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، أكل الناس ورق اللفت، والكرنب، وخرجوا إلى الريف، بحثاً عن عروق الفول الأخضر[٧] وبمعنى أدق، لقد كانت السلطة الحاكمة قادرة على توفير الغذاء الأساسي لهم، ويأتي بعدهم ميسورو الحال بينما الفقراء أكثر من تأثروا بمدى حركة السوق من حيث البيع، والشراء ، وارتفاع الأسعار التي غالباً ما يقف الفقراء عاجزين أمامها؛ وخصوصاً أوقات الأزمات الناتجة عن تذبذب منسوب فيضان النيل.

---

(١) البغدادي، رحلة، ص ١٤٠؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص ٤٥٥.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٥.
(٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢٧١،٢٧٢؛ السلوك، ج١ق١، ص ١٥٧؛ إغاثة الأمة، ص ٢٤.
(٤) قاسم عبده قاسم، النيل، ص١٢٦.
(٥) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٩؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٥٨، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٧٣.
(٦) المقريزي، السلوك، نفس الجزء، ص ١١٩، ١٢٠.
(٧) نفسه، ج ٢ ق ٢، ص ٥٠٦، ٥٠٧؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٢٢١- ٢٢٣.

وبطبيعة الحال كان عدد الفقراء يتزايد بسبب تلك المجاعات، والأوبئة بينما زادت أرباح العطارين والأطباء، فتعاظمت أثناء تلك الأزمات، لاشتداد الطلب على الأدوية، والأعشاب للعلاج ففي أزمة (٦٩٤- ٦٩٥هـ/ ١٢٩٤- ١٢٩٥م) وبلغت مبيعات أحد العطارين في شهر واحد برأس حارة الديلم اثنتين وثلاثين ألف درهم بما يعادل ألفاً وستة وستين درهماً في اليوم تقريباً(١). أما التجار فيرفعون الأسعار، فقد أصاب أحدهم ربحاً ما بين المائة والمائتين درهماً في اليوم، بينما السوقة بلغ ربحهم ثلاثين درهماً، أما السلطة الحاكمة كالأمراء، والجند، وغيرهم، فكان لبعضهم ستمائة أردب باعها بسعر مائة وخمسين للأردب، وقد أنفق معظم ذلك المكسب في عمارة دار وزخرفتها(٢)، في وقت عانى فيه الفقراء من آثار تلك المجاعة كالموت والجوع. ويعتبر ذلك نوعاً من استغلال السلطة الحاكمة والطبقة المتوسطة الظروف؛ فبينما يهرب الفقير من قسوة المجاعة، والوباء يجد آخرون يتحالفون مع تلك الأزمات ضده، ولنا أن نتخيل وضع الفقراء في ذلك الحصار الطبيعي والبشري.

وقد استخدم أحد الباحثين جملة تصف حال الفقراء بقوله:(لقد كان الجوع رفيقاً دائماً للفقراء، بيد أنه نادراً ما كان يهزمهم تماماً)(٣). فلقد أصاب في الجملة الأولى، وجانبه الصواب في الجملة الثانية إلا إذا كان يقصد الفقراء الذين ينضمون للصوفية بحيث ينالون من سبل الحياة ما يمنع بينهم، وبين تمكن الجوع منهم سداً منيعاً، في حين أن الجوع غالباً ما يهزم الفقراء بمفهومهم كجزء من الشعب المصري، فمهما كانت الإعانات التي تصلهم من السلطة الحاكمة، فغالباً ما كانت الأوبئة، والمجاعات تحصدهم، وقد سبق الإشارة إلى أن الفقراء لا يصمدون أمام المجاعة؛ بسبب سوء تكوين أجسادهم الضامرة في حين أن المجاعة، والجوع والمرض لا تفرق بين طبقات الشعب المصري بينما تجد مرعاها في الفقراء.

وكما وجدت آثار اجتماعية، وجدت آثار اقتصادية ذات عامل مؤثر؛ وقد كان أكبر دليل على أثر تلك المجاعات والأوبئة على الفقراء من خلال الأسعار التي أشار لها المؤرخون والمعاصرون في أثناء تلك الأزمات، ومن خلال الجدول التالي أشير لبعض أسعار السلع الهامة في حياة المجتمع المصري.

(١) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٨- ٣٠.
(٢) نفسه، ص ٣١.
(٣) آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٢٢١.

أسعار السلع الغذائية في مصر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

السنة	القمح بالأردب	الشعير	الفول	الخبز	أنواع اللحوم	المصدر
٥٩٢هـ/ ١١٩٥م	مائة أردب= ١٨٠ ديناراً			٣ رطل بدرهم	فروج ب ١,٥ دنانير	*المقريزي، السلوك، ج١ق١، ص ١٣٠، ١٣١.*
٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م	٨ دنانير	٦ دنانير	٦ دنانير		فروج ١٠٠ درهم	*المقريزي ، نفسة، ص ١٢٨؛ السيوطي، حسن المحاضر، ص ١٧٦*
٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م	١٠٥ دراهم	٧٠ درهماً		٣ رطل بدرهم	١/٣ ١ رطل بدرهم	*المقريزي،المصدرالسابق، ج١، ق٢، ص ٥٠٦؛ ابن تغري بردي، ج٧، ص ٢١٣؛ بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، (القاهرة، ١٩٨٧م) ص ٥٢.*
٦٩٤هـ/ ١٢٦٥م	١٠٠ درهم ١٥٠ درهماً ١٧٠ درهماً ١٢٠ درهماً ٢٠٠ درهم	٦٠ درهماً	٥٠ درهماً		٣ درهم للرطل	*المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٧؛ السلوك، ج١، ق١، ص ٨١٠؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة ، ج٩، ص ٢٨٦؛ علي مبارك، الخطط، ج١، ص ٨٩؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨، ص ٥٧؛ ابن حبيب، تذكرة البنية، ج١، ص ١٧٨.*
٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م	١٨٠ درهماً ١٦٠ درهماً ١٧٠ درهماً ١٩٠ درهماً ٦ دنانير ١٦٠ درهم	أكثر من ١٠٠ درهم ١٢٠ درهماً	٩٠ درهماً ١٧٠ درهماً ١١٠ دراهم	رطل بدرهم رطل ونصف بدرهم	رطل لحم بـــ٧ رطل لحم بـــ ٧ دراهم خروج من ١٥- ٢٠ درهم ٣٠ درهم لرطل لحم	*المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ٨١٣؛ ابن حبيب، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٨٤ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ١٣٣؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٨؛ البغدادي، رحلة، ص ١٤٢؛ ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٣٣؛ ابن حبيب، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٨٤؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ٨١٣؛ إغاثة الأمة، ص ٤٨؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٥٧.*
٦٩٦هـ/ ١٢٩٦	٤٠- ٥٠ درهماً	٣٠ درهماً			رطل لحم ٢,٥ درهم	*المقريزي، السلوك، ج١، ق ٣، ص ٨٣٠.*

وإذا تأملنا كيفية ارتفاع أسعار المواد الغذائية في تلك الآونة بشكل مطرد في ذلك الحين لأدركنا أن ارتفاع أسعار المواد الغذائية من جهة، واختفاء بعضها من جهة أخرى جعل من الصعب على عامة الناس آنذاك أن يجدوا كفايتهم من الغذاء، وهو ما يعني: أن فرصة المعدمين للحصول على الغذاء كانت قليلة لتصبح فريسة سهلة للأوبئة، والمجاعات(١). وعلى أية حال، أدى الارتفاع الشديد في الأسعار، وعدم الملائمة بينهما، وبين دخول الأفراد، هذا بالإضافة لندرة الأقوات؛ أدى إلى لجوء معظم العامة، وبالأخص الفقراء، إلى أكل لحوم البشر، وتحايلهم على أرباب الحرف، الذين ترتبط خدماتهم بالمنازل كالسقائين، والدلالات، والأطباء بالإضافة للاتجار في لحوم البشر(٢).

ويمكن أن نلمس أثر الأوبئة، والمجاعات بطريق غير مباشر على الفقراء من حيث تدهور الإنتاج الزراعي؛ وما كان ينتج عن ذلك من ارتفاع الأسعار بشكل مطرد، فضلاً عن اختفاء الكثير من السلع؛ وبالتالي قصور الإنتاج الزراعي عن الوفاء بحاجة البلاد؛ لعدم وجود المحاصيل الهامة بشكل كاف كالقمح، والشعير اللذان يعتبران عاملين أساسين لصناعة الخبز(٣). ففي مجاعة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م كان الفلاحون يجمعون أجسادهم، وبالتالي تبور الأراضي لنقص عددهم، وحتى الذي يزرع تأكله الدودة(٤). وفي مجاعة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م هلك معظم الدواب لعدم العلف، ولما كانت زراعة مصر تتجه أساساً لإشباع حاجة البلاد من المواد الغذائية، فإن أدنى هزة في موارد المياه والزراعة كانت تترك آثارها التخريبية في حياة المجتمع المصري، وفي هذه الأحوال، تزدحم القاهرة بالقادمين من الريف بحثاً عن الطعام(٥)، مما يدل على أن هذا التدهور كان من أسباب الأزمات الاقتصادية، والمجاعات المتوالية بقدر ما كان من نتائجها بما يؤدي لصعوبة تحديد مدى تأثير السبب في النتيجة التي لا تلبث أن تصبح من الأسباب المؤدية لمزيد من التدهور. والواقع لم يكن الفلاحون وحدهم الذين عانوا من الأوبئة والمجاعات، وإنما المجتمع كله من صناع، وحرفيين، وعمال(٦).

وهذا ما يؤدي لتدهور الصناعة، فمما لا شك فيه انهيار العديد من الحرف على إثر تلك الأزمات ففي أثناء مجاعة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م، أشار البغدادي إلى أن "**بمصر تسعمائة منسج للحصر، ولم يبق منها إلا خمسة عشر منسجاً وقس على هذا "من باعة، وخبازين، وعطارين، وأساكفة، وغير ذلك**"(٧)؛

---

(١) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٢٦.
(٢) البغدادي، رحلة، ص ١٣٤، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١؛ ص ٧٦؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٧٣.
(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٢٥٢؛ قاسم عبده قاسم، المصدر السابق، ص ١٧٦.
(٤) البغدادي،المصدر السابق، ص ١٤٢؛ المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٥٨؛ إغاثة الأمة، ص ٢٤، ٢٥؛ علي مبارك، الخطط، ج٧، ص ٤٦، ٤٧.
(٥) المقريزي، السلوك، ج١ ق١، ص ١٥٨؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص ١٢٥.
(٦) قاسم عبده قاسم، درسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٧٦؛ عادل سليمان زيتون، ملامح من تاريخ الفلاح، ص ٥٢٦.
(٧) البغدادي، المصدر السابق، ص ١٤٣.

وبذلك تعطلت الصنائع بينما ظل الحكام يستوردون احتياجاتهم من الخارج في مقابل العملات الذهبية؛ مما أدى لاستنزاف رصيد البلاد من الذهب، والفضة، فلجأت الحكومة لتعويض ذلك باحتكار بعض السلع فافتقر السوق واندثرت العديد من المهن وفسحت المجال للذعار، والشطار لممارسة هوايتهم في السلب، ليصبح الاحتيال مهنة ذات قواعد، وأصول وأصبح لهم مبدأ بقولهم: الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم، بينما عجز البعض عن العمل، فلجأوا للتسول بالأماكن العامة، كما ذكر من قبل[1]. في حين اتجه البعض لأولياء الله فيسأل الناس أحدهم أن يدعو الله تعالى بوفاء النيل، وإن حدث صدفة أكد صحة اعتقادهم، ولذا تأثرت السلطة الحاكمة بذلك، وأكثروا من بناء الربط، والحنقاوات في أعقاب الأزمات[2].

وبصفة عامة قدم لنا الرحالة والمؤرخون عرضاً لحياة الناس في ظل الأزمات الاقتصادية

الحادة التي كان لها أثرها الاجتماعي، والاقتصادي، على حياة الناس أثناء القرنين السادس والسابع الهجريين- الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، من خلال حالات التخلخل الاجتماعي، والفوضى الداخلية، وانحسار قيم، المجتمع المصري، وتدهور أعداد السكان، وخراب كثير من القرى لعدم وجود من يسكنها وانهيار العديد من الحرف أثناء تلك الأزمات، وتحول جذري في حياة المصريين التي تتميز بالمرح واللهو، إلى حالة من البؤس، والشقاء[3]. وعموماً، لقد أدى تكرار الأوبئة، والمجاعات، ولو على فترات لتدهور الزراعة؛ وبالتالي تدهور الصناعة، مما يؤدي لانكماش التجارة الداخلية، والاعتماد على التجارة الخارجية (استيراد)، فيؤثر ذلك على المخزون النقدي للدولة الذي يمكن تعويضه بفرض الضرائب، والمكوس، وغيرها. أما بالنسبة لداخل الدولة فيؤدي ذلك لقلة الإنتاج الزراعي وتدهور المحصول؛ وبالتالي هجرة الفلاحين للمدن في وقت تعاني فيه العاصمة (القاهرة) من ظروف الأزمات، بينما تحاول الدولة إعانة المتضررين، ولكن دون جدوى، لأن تلافي الأزمة أهم بكثير من تلافي آثار الأزمة، وهذا ما تقع فيه السلطة دائماً.

وعلى الرغم من وجود تشابه بين الكوارث الطبيعية والتي من صنع البشر فإنه يوجد اختلاف بينهما فإذا كان من الممكن التنبؤ ببعض الكوارث الطبيعية، إلا اننا لازلنا عاجزين حتى الآن عن منع وقوعها، وكل ما يمكن أن نفعله هو الاستعداد لمواجهة هذه الكوارث والتخفيف من حدة آثارها المدمرة واستئناف الحياة العادية بأسرع ما يمكن، وعلى العكس من ذلك فإن الكوارث التي من صنع البشر يمكن التنبؤ بها كما يمكن منع وقوعها أيضاً.

(١)علي مبارك، الخطط، ج٧، ص ٤٧؛ البيومي إسماعيل، مصادرة الأملاك، ج١، ص ٣٣٠، ٣٣١ .
(٢) آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٥٦؛ عثمان محمد عطا؛ الأزمات الاقتصادية، ص ٢٦٥، ٢٦٦ .
(٣) عمرو عبد العزيز منير، العمران في مصر، ص ٢٤١ .

ثالثاً: دور الوقف في حياة الفقراء:

لقد لعب نظام الوقف دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية لدرجة كبيرة خلال القرنين السادس، والسابع الهجريين، وشهد تطوراً كبيراً وازدهاراً لمختلف الأنظمة والأنشطة ونتيجة لهذا الازدهار، أصبحت معظم دور وحوانيت ورباع وقياسر ووكالات مصر والقاهرة موقوفة، بالإضافة للعديد من مساحة الأراضي الزراعية[١]، فالأوقاف هي الأحباس؛ ويطلق عليها في المشرق "الوقف"، ويقع كل شيء وقفه صاحبة وقفاً محرماً لا يباع، ولا يوهب، ولا يورث[٢]. ومن يستحق رعاية الأوقاف طوائف مختلفة ومنهم: الفقراء، والقراء، والأضراء، وأبناء السبيل، والمرضى، والمجانين، ومنها تسكين الموتى، وعمارة المساجد، ومصالح المدارس والربط، وتعليم اليتامى، وغير ذلك من وجهات الخير. والوقف صدقة جارية من أموال الواقف في حياته، ويستمر بقاؤها بعد مماته[٣]، وهو تنازل دائم عن دخل جزء من الملكية للأعمال الخيرية[٤].

فلقد وجدت الأوقاف بثلاث جهات بمصر: فالأولى أراضي من أعمال مصر على المساجد والزوايا للقيام بمصالحها، وجهات البر. أما الجهة الثانية، فيصرف منها على الحرمين، وأهله، وطلبة العلم بمصر، والقاهرة، وأهل الستر، والفقراء، أما الثالثة، فهي الأوقاف الأهلية ولكل منها ناظر خاص يوليه القاضي ويختاره من أولاد الواقف، ومنها أحباس المساجد، والزوايا فينفق من ريعها على هذه المؤسسات، ويوزع الفائض في شكل صدقات، وعطايا للمحتاجين[٥]. ومن منطلق ذلك، وجد ديوان الأحباس: أي الأوقاف؛ ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية كما يشرف على الأراضي، والعقارات المحبوس عليها، وقد كان لأهل الذمة حرية وقف الأملاك، والعقارات لصالح دور العبادة: كالأديرة، والكنائس، والمعابد، وللفقراء من أتباعهم[٦]. فلم يكونوا دولة داخل دولة بل خارج نطاق سلطة الدولة[٧]. فلقد كان للوقف بصفة عامة، أهمية كبيرة بالنسبة للكثير من المجالات التي تعتبر ذات حاجة ملحة بالنسبة للفقراء ألا وهي:

(١) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، (عالم المعرفة، الكويت، ط ١٩٨٨م)، ص ١ بتصرف.
(٢) كمال أبو مصطفى، الأحباس في الأندلس، (دار الثقافة للنشر، القاهرة، ١٩٨٩م)، ص ٨ .
(٣) ابن طلحة القرشي، العقد الفريد للملك السعيد، (المطبعة الوهبية البهية، القاهرة، ١٣١٠هـ)، ص ١٨٢، ١٨٣؛ كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص ٩- ١١.
(٤) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ١٤٩.
(٥) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٨٤- ٨٦؛ علي مبارك، الخطط، ج٣، ص ٣٧٤، ٣٧٥.
(٦) عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في العصور الوسطى، ص ٥٥٧؛ عصمت محمد حسن، جوانب من الحياة الاجتماعية، ص ١٠٩، ١١٠.
(٧) قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ص ٧٠.

التعليم:-

لقد كان للأوقاف أهمية للتعليم بالمدارس أو بالمكاتب التي عرفت باسم كتاب السبيل؛ فقد كان الريع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة نقداً، أو عينا هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة وضمان أيضاً للمعلمين، والمتعلمين فيها بمستوى كريم من العيش(١).

وقد كان لصلاح الدين دور كبير في الأوقاف، ووضع أساسها، وخصوصاً التعليم. وقد أكد هذا الرحالة ابن جبير بقوله: "**ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها، ويلزم السكن فيها تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال**"(٢)؛ فقد أقام المدرسة الناصرية بالفسطاط بجوار الجامع العتيق في عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م وأوقف عليها سوق الصاغة المجاور، وإحدى قرى مصر، والمدرسة القمحية بنفس العام، ورتب فيها أربعة مدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة(٣). وقد أنفق على مدارس القاهرة وحدها في عصره ألفي دينار كل شهر(٤). وقد فعل مؤسسو المدارس الأخرى مثلما فعل صلاح الدين بحبس الأوقاف، فمثلاً: أوقف ابن الأرسوفي في عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م عدداً كبيراً من الحوانيت على مدرسته، وعموماً كان الطلبة، يذهبون لتلك المدارس بانتظام، والأهم من ذلك هو أنهم يتلقون العلم بالمجان(٥).

ويجب الإشارة إلى أن المستوى المعيشي لمدرسي المدرسة، وطلابها في بعض الأحيان كان يتوقف على قيمة الموقوف؛ فقد تتعرض تلك الأوقاف أحياناً للخراب بسبب تذبذب مياه النيل، ومن ثم عدم ثبات قيمة محصول الأرض الموقوفة(٦). ومثال ذلك تعرض المدرسة القمحية التي أنشأها صلاح الدين للخراب في عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م؛ لأن السلطان برسباي(٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) قد أنعم على مملوكين له من وقف تلك المدرسة، والتي كانت ضيعة بالفيوم تدر قمحاً، وقيسارية الوراقين. ولم يذكر في تلك المدارس أن تشترط أن يكون الطلاب من الفقراء، بينما في حالة مدرسة تحفيظ القرآن كان اليتامى، والفقراء بوجه خاص هم الذين يهدف صاحب الوقف إلى تعليمهم

(١) محمد حمزة إسماعيل، السلطان المنصور قلاوون، ص ٤٦، ٤٧؛ عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح، مصر في العصور الوسطى، ص ٣٩٥.
(٢) ابن جبير، رحلة، ص ٢٥.
(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٥٤، ٥٥، ٥٤ هامش (٤)؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص ١٩٣، ١٩٤.
(٤)ابن جبير، المصدر السابق، ص ١٩؛ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص ٩٠؛ شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص ١٨٣، ١٨٤.
(٥)المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٩٤؛ علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ٤٤٠.
(٦) عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص ٣٩٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٤٢.

بالمجان؛ لذا يعتبر أول وقف في القاهرة لتعليم اليتامى، والأطفال الفقراء هو الذي ينسب إلى صلاح الدين[١]. وهذا أكده ابن جبير بقوله: "**وتجري عليهم الجراية الكافية لهم**" فإذا أتم اليتيم حفظ القرآن منح خمسين درهماً، ولمعلمه مثله، ويزورهم طبيب شهرياً، ويكشف من يظن به البلوغ منهم، وإذا ثبت هذا صرف وأتى غيره ووجد حالات قليلة منهم استمروا بالمكتب، واشتغلوا بالعلم[٢].

لقد كانت الكتاتيب بمثابة إدارة لتهذيب النشء، وتعليمهم بعض آداب السلوك الاجتماعية[٣]، وخصص لكل مكتب مؤدب يساعده عريف لتعليم الصغار الكتابة، وتحفيظ القرآن، والحساب، وفي سن السابعة، يأمره بالصلاة، وبر الوالدين[٤]. ويعتبر الظاهر بيبرس هو أول مؤسس لمكتب السبيل خلال القرن السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي، فيما بين مدرسته[٥] في بين القصرين، في حين رتب المنصور قلاوون مكتب سبيل به فقيهان يعلمان من كان صغيراً من أيتام المسلمين القرآن[٦]، ورتب لهم رطلين من الخبز يومياً لكل يتيم مع كسوة الشتاء والصيف[٧].

أما بالنسبة لليهود فقد كانت الجماعة ككل تضمن تعليم الفقراء، اليتامى، من خلال الأوقاف، والتبرعات مثلما كان الحال بالنسبة للفقراء من المسلمين والمسيحيين. وتشير أوراق الجنيزا[٨] التي يرجع تاريخها للقرنين الخامس والسادس الهجريين، لوجود طعام يمنح للأيتام، ومرتبات شهرية في حين كانت البنات تنال حداً أدنى من التعليم، وقد كانت الكتب توهب إلى المعبد لكي يقرأها الأطفال بسبب ارتفاع أثمانها[٩].

وعموماً، فقد كفلت الأوقاف حياة طيبة لطلاب العلم، ورواتب شهرية، ومخصصات سنوية بالأعياد، ومقررات من الخبز، واللحم، في حين أن الأيتام الزائدين على العدد الذين يجيئون إلى

---

(١)المقريزي، الخطط، ج٤، ص ١٩٤؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٣٧.
(٢)ابن جبير، رحلة، ص ٢٥؛ سعاد ماهرة، القاهرة القديمة، ص ٥٧؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١٥٢.
(٣) نيللي حنا، ثقافة الطبقة الوسطى في مصر، ص ٩٧.
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص ١٥٠.
(٥) قام الظاهر بيبرس ببناء المدرسة الظاهرية بالقاهرة ورتب درس أهل العلم في صفر عام ٦٦٢هـ وحضر حفل افتتاحها، انظر عز الدين ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٤٤؛ المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢١٦، ٢١٧؛ علي السيد علي، قاسم عبده قاسم، الأيوبيون والمماليك (التاريخ السياسي والعسكري)، (دار عين، القاهرة، ١٩٩٥م)، ص ١٥٤.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢١٦، ٢٦١؛ أبو حامد المقدسي، الفوائد النفيسة ، ص ١٩- ٢١.
(٧) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٦١.
(٨) الجنيزا تعني مكاناً دفنت فيه أوراق مستهلكة حتى لا يدنس اسم الله الذي يمكن أن يكون فيها- وتتقل هذه الأوراق في الأساس بالنشاط الاقتصادي لليهود، وأوراق جنيزة القاهرة كتبها اليهود المقيمون في حوض البحر المتوسط بين القرنين الخامس والثامن للهجرة وتعد من أهم مصادر هذه الفترة والتي تخص التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لغير اليهود أيضاً، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، (الأسرة، الهيئة، ٢٠٠٧م)، ص ٧٣، ٧٤.
(٩) قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ص ٥٠، ٥١.

المكتب لا يقرر لهم شيء ما دام ذلك لا يكلف الوقف شيئاً[١]. ولقد أشار أحد الباحثين أن هذه الأوقاف كان يخصص أكثرها للصبيان الأيتام من المسلمين، وأحياناً كان الأطفال المسلمين الفقراء يتساوون معهم، أما ثاني وثالث منفعة فهي الرواتب النقدية والأطعمة، ولكن لا يكفي هذا الطالب لأن يعول عائلته به[٢]. وعموماً، لقد ساعدت الأوقاف بقدر المستطاع لوجود نهضة علمية تعود منفعتها على فقراء، وأيتام المسلمين خلال تلك الفترة.

الرعاية الصحية:-

نظراً لأن الشعب المصري قد قاس ويلات المجاعات، والأوبئة خلال تلك الفترة، فقد كان تقديم الرعاية الصحية المجانية يتطلب وقف كميات ضخمة من الأملاك على المارستانات، التي اقتصر تأسيسها على الحكام[٣]. فالمارستان هو بيت المرض (أي المستشفى أو دار الاستشفاء)، وقد ظهرت رعاية الحكام من خلال الوقف على البيمارستانات، فقد شمل صلاح الدين المرضى، وذوي العاهات برعايته، فأنشأ لهم البيمارستان العتيق بالقاهرة في عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١-١١٨٢م[٤]، واستخدم له أطباء، وجراحين، وعاملاً، وخادماً، وغير ذلك. وأعاد فتح مارستان الفسطاط القديم، وارتفق بالضعفاء[٥]. وقد وجد جزء خاص للمجانين، والنساء بالمارستان العتيق[٦]. وكان يخصص لكل واحد من هؤلاء المجانين مرافق يأخذه باللين والرفق، يصحبه في الحدائق، ويسمعه ترتيلاً من آيات الذكر الحكيم، تطمئن به القلوب وقد أدرك علماء المسلمين خطورة الأمراض النفسية، ووضعوا لها علاجاً وطباً، وقد كان صلاح الدين يباشر العمل بنفسه ويوفر أكبر قدر من الرعاية لهم[٧]، وأوقف على هذه البيمارستانات العديد من الأوقاف الجيدة التي تدر عليها الربح[٨].

ولكن يعتبر أفضل مثال على ظاهرة بناء المارستان هو ما قام به السلطان المنصور قلاوون خلال القرن السابع الهجري ففي عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م "**تجزت عمارة المارستان الكبير المنصوري**"[٩] وكانت جبايته في اليوم ألف دينار، وكان لذلك المارستان من وجوه البر، والصدقات

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢١٨- ٢٢١، ٢٦٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر فى دولة المماليك البحرية، ص ١٩٠، ١٩٦؛ نيللي حنا، ثقافة الطبقة الوسطى، ص ١٠٤.
(٢) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٦١؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٣٧، ١٣٨.
(٣) المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥١، ج٤، ص ٢٢١، ٢٦٠.
(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٥٥؛ المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ٢٥٨، ج٢، ص ٢٥١.
(٥) ابن حبيب، تذكرة البنية، ج١، ص ٢٩٩، ٣٠٠.
(٦) ابن جبير، رحلة، ص ٢٤.
(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، ص ١١٥؛ آدم صبرة، المرجع السابق، ص١٢٩.
(٨) المقريزي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥١.
(٩) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١١١؛ المقريزي، السلوك، ج١ق٣، ص ٧٢٥؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٤٠٣.

الكثير، ووقف الأوقاف الجليلة عليه، مثل الضياع، والبساتين، والأملاك، وغير ذلك[١]. وهو ما يقارب ألف ألف درهم في كل عام، و يصرف على المارستان، والقبة، والمدرسة، ومكتب السبيل[٢].

وقد كان سبب بنائه للبيمارستان التكفير عن ذنبه لما بدر منه من قتله لكثير من العامة ثلاثة أيام في عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م وكان لعلاج المرضى رجال، ونساء[٣]، أغنياء، وفقراء على السواء لجميع الأمراض. فأوقفه السلطان علي الصغير، والحر، والعبد، وغير ذلك[٤]. ووضع بالبيمارستان كل ما يحتاجه المرضى من التخوت، والفرش، بل وجعلت قاعات لمرضى الحميات، والرمد، وقاعة للنساء، وأماكن للطعام، والشراب، والأدوية، وغير ذلك مما لا يحصر[٥]. وقد راعى وجود مراوح من الخوص ليستعملها المرضى بالصيف، وتوضح الوثيقة مهام الأطباء[٦].

وقد شملت رعاية البيمارستان على المرضى الفقراء في بيوتهم يصرف لهم ما يحتاجون من الأدوية، والأغذية، شرط عدم التضييق على الموجودين بالبيمارستان، في حين بلغ عدد المترددين على البيمارستان حوالي أربعة آلاف نفس، وقد خصص قلاوون بعض ريع وقفه على البيمارستان لكسوة الخارجين منه بعد شفائهم، فقد كان المريض يتكلف ديناراً يومياً وله في خدمته شخصان، وعند مغادرة المارستان يمنح خمسة دنانير؛ حتى لا يلجأ للأعمال الشاقة، ومن كثر الأوقاف التي أوقفها المنصور قلاوون بلغ فائض من ريع أوقاف البيمارستان في عام ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م حوالي أربع عشرة ألف دينار[٧].

دفن الموتى:-

لقد أبدت السلطة الحاكمة اهتماماً بمساعدة الفقراء في دفن الموتى، وخصوصاً في أوقات المجاعات والأوبئة، عندما تمتلئ شوارع القاهرة بالجثث أحياناً، وقد كان أول حاكم يهتم بتقديم الدفن المجاني لموتى الفقراء هو الظاهر بيبرس في أوقافه: "**وقف الطرحاء لتغسيل فقراء، وتكفينهم، ودفنهم، وهو من أكثر الأوقاف نفعاً**"[٨]. وقد قام على نهجه السلطان قلاوون من خلال وقفه على البيمارستان لتجهيز ودفن من يموت به من المرضى[٩].

(١)ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص ٢٠؛ مهذب الرحلة، ج١، ص٢٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ١٢٠،١١٦.
(٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢٦٠.
(٣)ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١١٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ٩٩٨.
(٤) ابن حبيب، تذكرة البنية، ج١، ص ٣٠٢،٣٠١؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢٦٠.
(٥)المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٩٩٩؛ الخطط، ج٤، ص ٢٦٠؛ ابن بطوطة، رحلة،ج١،ص٢٠؛ مهذب الرحلة ، ج١، ص٢٧ .
(٦) ابن حبيب، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٠٤، ٣٠٥.
(٧) نفسه، ص ٣٠٦، ٣٠٨؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ١٩٦.
(٨) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٦٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٨٠؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٧٥؛ جومار، المرجع السابق، ص ١٥٥، ١٥٦.
(٩) ابن حبيب، المصدر السابق،نفس الجزء، ص ٣٠٨.

توفير الطعام والماء:-

فقد كان أهم عمل خيري يقوم به الوقف لأنهما من ضروريات الحياة بالنسبة للناس بالقاهرة، وأحياناً ترتفع أسعارهما مع وجود الأزمات فكان كثير من العجزة، والمجانين، والعاطلين يعتمدون على أعمال الخير من خلال الأوقاف لما تملكه من أراضي تدر دخلاً على مدار السنة مما يلعب دوراً مهماً في إطعام الفقراء؛ فقد وجد ما يعرف باسم أوقاف الخبز، وهذا كان في عهد صلاح الدين الأيوبي، لدرجة أن اليوم ينتهي إلى ألفي خبزة أو أزيد(١). وقد قام بيبرس بعمل وقف لشراء الخبز، وتوزيعه على المعدمين؛ فيوزع ستة عشر ألف أردب من القمح على الفقراء، وسكان الزوايا، وأرباب البيوت، فقد تكفي إطعام ستة آلاف شخص سنوياً على أساس كل فرد يستهلك رطلين من الحبوب يومياً(٢).

وبالإضافة للطعام، وجد الماء في شكل أسبلة عن طريق أوقاف أوقفها أمراء، وأثرياء لصالح راحة سكان القاهرة مجاناً، مثل سبيل السلطان قلاوون(٣). فقد كان الوقف (الحابسون لأملاكهم) يحددون بدقة شديدة في حجج الأوقاف قيمة الدخول المخصصة للأسبلة، وتوزيعها في مختلف أوجه الإنفاق، في حين قام بعض رجال النصارى بحفر الآبار داخل الأديرة بالإضافة لتركيب السواقي على هذه الآبار، وقد أوقفوا أعداداً كبيرة من البقر لتدور في السواقي الملحقة ببئر في تلك الأديرة، وأوقفوا كذلك أراضي تجود بزراعة الخضر، والقمح وغيرها(٤). وقد كان الماء العذب غالباً ما يوزع عند المقابر، والمساجد وغيرها من مؤسسات الوقف(٥).

ولابد أن يتصف متولي الوقف بالأمانة(٦) ؛ في حين تعرضت بعض الأوقاف للاستيلاء من قبل الحكام بسبب الضائقة الاقتصادية، كالاستيلاء على أموال المواريث الحشرية(٧)، والأيتام، مثلما فعل عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم الخليلي وزير العادل زين الدين كتبغا في جماد الأولى ٦٩٤هـ/ مارس١٢٩٤(٨). وفي عهد الناصر محمد، عندما واجه أزمة اقتصادية في عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م لتأخر فيضان النيل، قام بالاستيلاء على بعض الأوقاف بدعوى أنها اشتريت من مال الدولة(٩). وبعد ذلك العرض السريع يمكن القول: إن الوقف لعب دوراً هاماً في حياة الفقراء خلال القرنين السادس، والسابع الهجريين سواء في التعليم، أو الرعاية الصحية، أو توفير الغذاء والماء، وكان ذلك بقدر المستطاع من خلال منشوة.

---

(١)ابن جبير، رحلة، ص ١٥؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٤٤.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٨٠؛ آدم صبرة، المرجع السابق، ص ١٤٥.
(٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢٦١؛ جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٢٠٨.
(٤) أندريه ريمون، القاهرة، ص ٢١٩؛ سلام شافعي، أهل الذمة في مصر، ص ١٣١، ١٣٢.
(٥) آدم صبرة، المرجع السابق، ص ١٥٥.
(٦) ابن طلحة القرشى، العقد الفريد، ص ١٨٣.
(٧) المواريث الحشرية: هي من مات من المسلمين وليس لها وارث معين، فقد كانت السلطة الحاكمة تضع العقبات في طريق الوريث الذي يطالب بحقه في ميراث تخلف بموت بعض أقاربه أو أحد والديه، وبعد إثبات حقه في الميراث يحال إلى ديوان المواريث فيواجه المزيد من المتاعب فيترك حقه لذلك. انظر، ابن تيمية، السياسة الشرعية ، ص ٢١؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٣٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٦٠.
(٨) ابن حجر، الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣، ص١٧٠.
(٩) البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ج٢، ص ٦٦.

رابعاً: الفقراء، والصدقات:

تعتبر الصدقة هبة (إحسان) من الأغنياء دون فرض، وهو عمل للتقرب من الله حيث "قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية"[١]. وبهذا تختلف الصدقة عن الزكاة، لأنها إحدى مباني الإسلام وهي فرض من الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ [٢]﴾[٣]. فهي واجبة على الشخص فعندما تكون مائتا درهم فيجب عليه خمسة دراهم لأداء شكر النعمة؛ فالزكاة هي الصدقة التي لا يجب على المسلم في ماله حق سواها، ويختص نظر والى الصدقات فقط بزكاة الأموال الظاهرة أما زكاة المال الباطن فإن أربابه أحق بزكاته، بينما الصدقات الإضافية، يمكن أن تسلم لرجال الدين، لكي تعطى مباشرة لمن كان محتاجاً[٤]. فلقد احتضنت الحضارة العربية الإسلامية الفقراء على أساس أنهم أهم أولوياتها، فقد أتى الإسلام، وحض على مساعدة الفقراء، ووضع الزكاة التي هي شكل من أشكال التكافل الاجتماعي لمساعدة الفقراء؛ مع العلم أنه ليس هناك ما يسمى بدين شعبي، فالكل في مصر متدين بالفطرة بينما الاختلاف من ناحية الالتزام بمبادئ الدين، سواء يهودي، أو مسيحي، أو مسلم.

فالزكاة هي حق كل الفقراء في مال الأغنياء[٥]، أما الصدقة فهي ليست واجب وإنما حث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليها فقال: "**إن الصدقة لتطفئ غضب الرب**"[٦]؛ فهي تحط من أوزار الناس، وخطاياهم فالزكاة أخص بينما الصدقة أشمل وأعم، وهذا جعل فقهاء الدين يأخذون على البعض تزاحمهم للفقراء في أخذ الزكاة، وهم لا يستحقونها[٧] فالصدقة شرعت لكبار السن، والمرضى، ومن به عاهة وكما قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**﴾[٨]، وبصرف النظر عن تعدد أقوال العلماء، فيسود غالباً اعتقاد بأن التدرج الاجتماعي مقدر من الله. مما يعطي الإقناع أن الأغنياء مجبرون على مساعدة المعدمين من خلال الإحسان، والصدقة، ويؤدي ذلك لتقليل التوتر الاجتماعي، ليسهم الإحسان في الحفاظ على تدرج النظام الاجتماعي، عن طريق الرعاية، والحماية[٩]. وقد ظهرت العديد من صور الصدقات خلال القرنين السادس، والسابع الهجريين من خلال الدولة وبشكل رسمي، ويظهر ذلك أثناء المواسم، والأعياد.

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١، ص ٢٣٠.
(٢) سورة البقرة، آية ٤٣.
(٣) ابن الجوزي، منهاج القاصدين، ص ٢٨.
(٤)الهجويري، كشف المحجوب،(ترجمة إسعاد عبد الهادي، ج٢،الجلس الأعلى للشئون الأسلامية،القاهرة،١٩٧٥م) ص ٥٥٧؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص ٣٤٠؛ البرت حوراني، تاريخ الشعوب الوبية، ص ١٨٣، ١٨٤.
(٥) الطوسي، اللمع، ص ٢١٥.
(٦) ابن الجوزي، تبلبيس إبليس، ص ٢٢٦،٢٢٥،٣٢.
(٧)الطوسي، المصدر السابق، ص ٢١٤؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٢٣٠.
(٨) سورة التوبة، الآية ٢٦.
(٩) الطوسي، المصدر السابق، ص ٢١٤؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٦٥.

فقد ظهر ذلك من خلال السلطة الحاكمة التي توزع على العامة، والفقراء الصدقات من خلال المواسم، والأعياد: مثل موسم رأس السنة الهجرية، والمولد النبوي، وشهر رمضان، وعيدي الفطر، والأضحى، وغيره من المواسم الأخرى[1]. وقد اعتاد أصحاب السعة في أول محرم منح العطايا لكل من يحضر إليهم في مثل هذه المناسبات، فقد كانت الطبقات الشعبية تحظى بالعطايا، والأموال من جانب السلطة الحاكمة، وذلك بخلاف الموائد المتنوعة التي يتناولها الفقراء[2] ففي تلك الليلة يعمل بمطبخ القصر العديد من الولائم، وتفرق على الجميع، وينتقل ذلك في أيدي أهل القاهرة، ومصر، أما في العاشر من محرم وهو يوم عاشوراء فيعمل به موائد حزن، ولكن عندما جاء صلاح الدين، وخلفاؤه اتخذوا من ذلك اليوم سرور، وكانت تلك المائدة أيام الأفضل تتكون من عدس وصحون بها عسل نحل، وخبز شعير[3] ولذلك كان يفضل التوسعة على الجميع على حد قول ابن الحاج في ذلك اليوم، فالتوسعة على اليتامى والمساكين والأهل وغير ذلك، ويسلم بأن الناس كانوا يتكبدون نفقات إضافة يوم عاشوراء بسبب مصروفات عائلاتهم، والصدقات التي تعطى للأيتام والفقراء؛ في حين بلغ الأمر ببعض الأثرياء، بالتصدق بألف دينار في ذلك اليوم[4].

أما موسم المولد النبوي فكان الاحتفال به يتم في شهر ربيع الأول ففي عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م تم إنفاق ما يربو عن ستة آلاف درهم، وهذا بخلاف الأطعمة التي وزعت بالقرافة[5]. ويذبح من الإبل، والبقر، والغنم شيء زائد عن الوصف[6]، في حين كان يقيم السلطان بخيمة المولد بالقلعة، وتملأ الأحواض بعصير السكر، والليمون، وتمد الموائد، ويتصدقون على الفقراء، وكان يصنع عشرون قنطاراً من الحلوى، توضع على ثلثمائة صينية، وتوزع في الجامع الأزهر[7] وقد ينتفع بعض الفقراء، وطوائف الشعوذة كالحواة، وخيال الظل، ونحو ذلك من تلك الموالد فتنال خدمة الأضرحة في تلك الأيام من النذور، والصدقات، أضعاف ما تناله في غيرها، وتزيد الصدقات خصوصاً بالموالد الكبيرة[8].

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٨٤.
(٢) نفسه، ص ٣٨٤، ٣٨٥.
(٣) نفسه، ص ٣٨٤، ٣٨٥؛ علي مبارك، الخطط، ج١، ص ٢٣٢، ٢٣٣.
(٤) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص ٢٨٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ١٧٧.
(٥) ابن المأمون، أخبار مصر، ص ٦٢.
(٦) علي مبارك، المصدر السابق، ج٣، ص ٤٤٢.
(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في دولة المماليك البحرية، ص ١٧٢، ١٧٣؛ المجتمع المصري، ص ١٧٩؛ علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ٤٦٥.
(٨) علي مبارك، المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٢٣١.

وتعتبر ليالي الوقود من المناسبات الهامة وهي أول ومنتصف رجب وأول ومنتصف شعبان فتصل للناس أنواع من البر، وخصوصاً أهل الجوامع، والمشاهد، وتمد الموائد بها، ويترك للعامة، والفقراء أخذ ما يشاءون، وتعم الصدقات الفقراء، والمعدمين[1]. ففي عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، كان الاحتفال يخص الجوامع الهامة، كالأزهر بالقاهرة، والطولوني، والعتيق بمصر بالإضافة للمشاهد، فقد عمت صدقات المأمون جميع الضعفاء في الثاني من رجب بجامع القرافة، والعتيق وغيره، ونفس الحال بشهر رمضان حيث أقام الخليفة الآمر مائدة بقصره، واستمر أكثر من اثنين وعشرين يوماً في رمضان ووصل منه الكثير لأهل القاهرة، وبلغت مصاريفه ثلاثة آلاف دينار[2]؛ لذا فقد كان رمضان عند الحكام من المواسم الهامة فيحيون لياليه ويأتون من البر، والخير الشيء الكثير مما يعم الرعية جميعاً ولا فرق بين الأغنياء والفقراء[3].

فقد كان إعطاء الصدقات على شكل الطعام فرضاً على كل مسلم بنهاية الشهر، وقبل عيد الفطر مثلما حدث في عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، وبالإضافة لذلك، تقديم الحكام الطعام مجاناً للفقراء[4]؛ فالظاهر بيبرس مثلاً: يطعم يومياً برمضان خمسة آلاف نفس، ويكسو بالسنة ستمائة فرد، ومن الخبز ألفا قنطار وخمسمائة باليوم، وقد كان له بأول رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة برسم الفقراء والمساكين[5] وفي عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م عمت صدقاته في شهر رمضان على فقراء القاهرة، ومصر وإفطارهم[6] وقد أشار العبدري لحكام أواخر القرن السابع الهجري بقوله "**ملوكهم أهل دين ... وتفضل على الفقراء**"، وعموماً من مهام الحاكم خليفة أو سلطاناً "**الاعتناء بأمور المستضعفين**"[7].

وفي عيد الغدير[8] يوم ١٨ من ذي الحجة عام ٥١٦هـ/ ١١٢٣م تم تفريق الصدقات على المحتاجين، والضعفاء، وعتق الرقاب، تزويج اليتامى. وأما الغير فقد كانت العناية من السلطة الحاكمة بمد الموائد المتنوعة والتي نال منها الكثير[9]. فبلغت مائدة عيد الفطر بمقدار ثلثمائة ذراع في عرض سبعة أذرع. وبعد الفجر، يأخذ، ويبيع الناس ما تمتد به أيديهم من أطعمة[10] بينما الدنانير

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٨٦؛ علي مبارك، الخطط، ج١، ص ٤٧؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، ص ١٣٥.

(٢) ابن المأمون، أخبار مصر، ص ٦٣، ٦٤؛ المقريزي، المصدر السابق، نفس المصدر، ص ٣٤٧.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢١٩، ٢٢٠؛ علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ٤٦٦.

(٤) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٨٧، ٣٨٨؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٩٠، ٩١.

(٥) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٦٣٩، ٦٤٠؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٧٥.

(٦) العيني، عقد الجمان، ص ٣٧٦.

(٧) العبدري، رحلة، ص ٢٨٠؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٩١.

(٨) هو اليوم الذي أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) لابن عمه علي بالإمامة على المسلمين من بعده حسب قول الشيعة. انظر ابن المأمون، المصدر السابق، ص ٤٢.

(٩) نفسه، ص ٤٢؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٨٩؛ علي إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص ٤٧١.

(١٠) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٢٠.

تفرق لمن يطلب الصدقة بأمر الآمر لمتولي خزائن الإنفاق، وتكرر الأمر عهد الظاهر بيبرس في عام ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م فجلس على الموائد، وأكل الناس ثم انتهجه الفقراء[١].

وفي عيد الأضحى كان يمد فيه نفس المائدة تقريباً. ففي عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م تم ذبح ثلاثة أيام، وعيد الغدير ذبح ألفين وخمسمائة، وإحدى وستين رأساً، ومن الكباش ألفين وأربعمائة رأس. وفي عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، ذبح الخليفة بنفسه ١٩٤٦ رأساً، وتصدق كل يوم منها على الفقراء[٢]، وباليوم الثالث تحمل ناقة منحورة لهم بالقرافة، وبخلاف تلك المناسبات الإسلامية وجدت مناسبات أخرى افتعلها الحكام كاحتفال الحكام بيوم مولدهم، وبالتالي تعم الصدقات الفقراء، ففي ١٢ محرم عام ٥١٦هـ/ مارس ١١٢٢م كان الاحتفال بمولد الآمر بأحكام الله؛ فعمل كثير من المأكولات، وفرقت على الفقراء، وفرقت الأموال بالقرافة[٣].

فلقد كانت تلك الأعياد، والمناسبات، والاحتفالات هي التي ترسم البهجة والفرحة على الفقراء، والمتنفس الوحيد لهم، نظراً لما تحظى به من أموال، وعطايا، وصدقات سواء في جانب السلطة، أو ميسوري الحال، بالإضافة لإقامة الأسمطة المتنوعة التي يحظى بها الفقراء، أما في بقية أيام السنة ربما لا ينالون مثل هذه العطايا، والأطعمة إلا نادراً، وربما كان الهدف من تلك العطايا من جانب السلطة كنوع للتودد، وإرضاء الفقراء خوفاً من سخطهم وقت الأزمات، ولكن كل هذا لم يجد نفعاً مع الفقراء لأنه في وقت الأزمات، وعندما تجوع البطون، لا يجد الفقراء ما يسد رمقهم؛ ليس أمامهم سوى إظهار غضبهم إما بالقول، أو بالفعل.

ولم يكن النصارى بعيدين عن هذه الصدقات، حيث أقام عامة النصارى لبعض قد يسهم موالد خاصة بهم فتذبح الذبائح، وتوزع الصدقات[٤] فمن أعيادهم عيد الميلاد الذي ولد فيه عيسى بن مريم عليه السلام، وعيد الغطاس، وكانت تفرق العديد من الصدقات فيها[٥]، بينما قام بعض رجالهم بالتصدق على الفقراء، مثلما فعل البطريرك يونس بن أبي غالب، الذي تصدق بسبعة عشر ألف دينار، في حين كان المعبد يستخدم في توزيع صدقات الخبز، أو القمح على فقراء اليهود[٦]. وعلى

(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٢٨، ابن المأمون، أخبار مصر، ص ٨٨؛ عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٣.
(٢) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٩٨؛ ابن المأمون، المصدر السابق، ص ٢٥، ٤١.
(٣) ابن المأمون، المصدر السابق، ص ٣٦، ٤٢؛ علي مبارك، الخطط، ج٢، ص ٢١٧.
(٤) المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص ٤٢٥، ٤٢٦؛ شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص ٢٠٣.
(٥) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٦-٢٨، ٣٩١، ٣٩٢.
(٦) نفسه، ص ٤٠١؛ قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ص ٤٨، ٤٩.

غرار ذلك، نالت جوامع مصر القاهرة العديد من الصدقات التي وصلت لعشرة آلاف درهم عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وأطلق من مخازن الأهراء ألفا أردب قمحاً، بينما ظل الجامع الأزهر محتفظاً بمكانته؛ فيقصده الأثرياء بأنواع البر من أموال وأطعمة وحلوى[١].

وعن المناسبات الأخرى التي كانت توزع فيها الصدقات، مناسبة الاحتفال بفتح الخليج، من أجل أن تبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً[٢]، مثلما فعل عام ٥١٨هـ/١١٢٤م ففي كسر الخليج عمت الصدقات الجميع مثل: أرباب الجوامع والفقراء والمساكين وغيرهم. ونفس الحال، عند شفاء السلطان من مرض ألم به فيوزع الخبز، والملابس مع المال وقد كان العادل الأيوبي الذي توفي عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م إذا مرض أو تشوش مزاجه خلع جميع ما عليه وباعه حتى فرسه وتصدق به[٣]. ففي آخر رمضان عام ٦٦٣هـ/ يوليو ١٢٦٥م نزل بالسلطان وعك فتداوى فأعطى للفقراء مالاً جزيلاً. وفي عام ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، مرض الملك الصالح ابن السلطان فأكثر من الصدقات، وعندما كسرت يد السلطان الناصر محمد، وشفى منها بعد شهرين نزل الميدان في صفرعام ٦٩٧هـ/ نوفمبر ١٢٩٧م وفرق الصدقات، وأفرج عن المساجين[٤].

وفي مناسبات أخرى وزعت الصدقات كالختان ففي ١٠ ذي القعدة عام ٦٦٢هـ/ ٢ سبتمبر ١٢٦٤م، تم ختان الملك السعيد بن بيبرس، فمنح مجموعة من أيتام، وأبناء الفقراء ملابس جديدة وحضروا للقلعة لختانهم. وقد وزعت الصدقات أثناء الانتصارات مثلما حدث في عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م حينما علم الملك العادل بأخذ أخيه الصالح نجم الدين أسيراً وسجنه بالكرك فعمل سماطاً بالميدان الأسود، وبه ١٥٠٠ رأس شواء، ونادى الجليل، والحقير لهذا[٥]، ويبدو أن السماط لم يكن حباً في شعبه بل فرحاً في أخيه الصالح.

وفي أثناء الكوارث، كثرت الصدقات، فمثلاً أثناء مجاعة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م، استدعى شخص طبيباً فكاد لا يمر بفقير إلا ويتصدق عليه، وأثناء هجمة الصليبيين زاد الشعور الديني عند المسلمين فأكثروا من زيادة الصدقات على فقراء المسلمين[٦]. وهناك من أعطى الصدقة إجبارية مثلما حدث

(١) ابن المأمون، أخبار مصر، ص ٤٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ١٨٦.
(٢) ناصرخسرو، رحلة، ص٩٧.
(٣) ابن المأمون، المصدر السابق، ص ٧٤- ٧٧؛ أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١١١؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ١٩٤، ١٩٥.
(٤) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٨٣ ،ج١،ق٣، ص ٧٤٤، ٨٣١، ٨٣٢ .
(٥) نفسه، ج١ ق٢، ص ٢٨٩، ٢٩٠؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٩٢، ٩٣.
(٦) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق١، ص ١٥٦، ١٤٧؛ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص ٧١.

أثناء مجاعة ٦٩٥هـ: ١٢٩٥م حيث كان للأمير فخر الدين الطنبغا مائة فدان فولاً أخضراً، لم يجدها إلا قشراً بعد أن أكل الفقراء فوله أخضراً، فعد ذلك من الصدقة[١].

ولقد كانت القرافة من الأماكن التي يكثر فيها الصدقات، فخلال شهر الميت، توزع عند مقبرة المتوفى ترحماً عليه[٢]. ففي محرم عام ٦٧٧هـ/ مايو ١٢٧٨م، عمل عزاء الملك الظاهر بيبرس، فمدت الأسمطة، وفرقت الأطعمة على أهل الزوايا[٣] فقد عم نفع ذلك الغني والفقير[٤] وتوزع بالجنازات، فيذبح أهل القاهرة الأغنام أمام موكب الجنازة ثم يوزع اللحم، والخبز مما يؤدي لتجمع الناس، والتشابك أحياناً، وبذهاب الناس للمقابر أيام الجمع كان على الفقراء اتباعهم ليستفيدوا من صدقاتهم عيناً أو نقداً، ودعاء الفقير كرد للهبة[٥].

وهنا يجب الإشارة إلى أن ما بين السائل والمتسول خيط رفيع، لا يكاد أحد يراه للوهلة الأولى، فكم من أناس ظنناهم فقراء معوزين؛ في حين يخلفون وراءهم ثروات! وكم من أناس حسبناهم من الأغنياء! وواقع حالهم يؤكد أنهم أقرب إلى العوز، والفقر، غير أنهم يتعففون، الأمر الذي يضع متيسري الحال، ومعهم السلطة الحاكمة في مسئولية أمام الله، وذلك لأن وجود مهنة التسول طلباً للصدقات بأماكن متعددة، حرم الفقراء والمحتاجين، وذلك لقدرة المتسولين على ابتكار الأساليب لاسترقاق القلوب الضعيفة.

وكما وجدت مناسبات عديدة توزع فيها الصدقات، وتعم أعمال البر للفقراء والمحتاجين؛ فكان لابد من ذكر رجال السلطة الحاكمة الذين يهتمون بأمر الفقراء خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، ولم تكن ظاهرة عامة، حيث أفاضت المصادر وكتب الرحالة بحبهم للخير وإكثارهم للصدقات.

ويعتبر على رأس هؤلاء السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي؛ فقد كان متولي ديوان صدقاته يتصدق يومياً بمائة دينار[٦]. ولم يخلف في خزانته من الذهب، والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ولا يخلف ملكاً أو عقاراً[٧]. فكان يضيق على نفسه، وبيته ليتصدق؛ وشهد له المؤرخون والمعاصرون

(١) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٣١؛ علي مبارك، الخطط، ج٧، ص ٥٠.
(٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٣؛ علي مبارك، المرجع السابق، ج١، ص ٦٧.
(٣) المقريزي، السلوك، ج ١ ق ٢، ص ٦٤٨، ٦٤٩.
(٤) عز الدين ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٣١.
(٥)ابن الحاج، المدخل، ج٣، ص ٢٦٦، ٢٦٧؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ١٥٩- ١٦٢.
(٦) أبو شامة، الروضتين، ج١ ق ٢، ص ٣٥١.
(٧) ابن شداد، سيرة الناصر صلاح الدين، ص ٥، ١١.

بالكرم فيطلب منه الناس الكثير ومع ذلك لا يمنع، ولا يمن على من يعطيه[1]؛ فقد كان أسمى حكام التاريخ خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

ولم يقل حكام القرن السابع الهجري عن هؤلاء كرماً، وسعة خير، ومن أمثالهم: الظاهر بيبرس بتصدقه في كل سنة عشرة آلاف أردب قمحاً للفقراء، والمساكين، وأرباب الزوايا، ويسدد ديون من حبس بسبب المال من المفلسين. أما الأشرف خليل بن قلاوون فإنه في عام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، أكثر من تفرقة الأموال[2] وكما وجد حكام بهذا القدر وجد أيضاً رجال من هيئة السلطة لهم الكثير من أعمال الخير أمثال: لؤلؤ الحاجب؛ الذي خدم في الأسطول عهد صلاح الدين، وبعد تزويجه لأبنائه تصدق بما معه على الفقراء، وكان يفرق يومياً اثني عشر ألف رغيف مع قدور الطعام، وكان فخر الدين أبو الفتح عثمان أستادار الملك الكامل بن العادل كثير الصدقة ينفق على الفقراء والمحتاجين [3].

وقيل عن الأمير سلار الذي ولد في عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، إنه أعجوبة عصره في الكرم، والتصدق على الفقراء[4]. وكذلك الأمير طشنط المعروف بحمص أخضر فله الصدقات على الأيتام من كسوة، ونفقة، وإحسان على الحرافيش[5]. وكذلك ناظر جيش الملك الناصر القاضي فخر الدين القبطي، فكان نصرانياً، وأسلم وكان له الصدقات الكثيرة، فمن يطلب صدقة أمر مملوكاً له بإعطائه ما يريد، فقد قيل في الأمثال: "**اللقم تمنع النقم**" فالصدقات ترد المصائب وتمنع حقد، المعوزين والفقراء للأغنياء[6].

فلقد كانت أعمال الخير، والإحسان تهدف دائماً للسيطرة على الخلل الاجتماعي الذي يسببه الفقراء؛ فقد كان العاطلون يشكلون جزءاً من السكان الفقراء، ولم يخرج من أصحاب الحرف، والصنائع أشخاص ذوو نفوذ يكفي لأن يلعبوا دوراً مهماً في رعاية الفقراء، لتصبح أعمال الخير، والصدقات موقوفة على رجال السلطة الحاكمة، وبعض المدنيين الأثرياء[7]؛ لتصبح بذلك الصدقات ذات دور هام في حياة الفقراء.

---

(١) الأصفهاني، الفتح القُسي، ص ٣٢٧؛ أبو شامة، الروضتين، ج١ ق٢، ص ٣٥٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، (إعلام العرب، ع٤١، المؤسسة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م)، ص ٢٩٠.
(٢)السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٧٤، ٧٥؛ المقريزي، السلوك، ج ١ ق ٣، ص ٧٥٩.
(٣) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٣٨؛ ج٤، ص ١٩٩.
(٤) محمد عبد الغني الأشقر، سلار، ص ١٤.
(٥) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٢٤؛ مهذب الرحلة، ج١، ص٣٣
(٦) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٢٤؛ مهذب الرحلة، ج١،ص٣٣؛ أحمد تيمور، الأمثال العامية، ص ٤٢٣.
(٧) آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٢٨٦- ٢٩٠.

الفصل الرابع

الوضع السياسي للفقراء

أولا : حالات الهيجان السياسي وأحداث الشغب.

ثانيا : دور الفقراء في الحروب الداخلية.

ثالثاً: دور السلطة الحاكمة في مساعدة الفقراء.

الوضع السياسي للفقراء

لقد نظر الفقراء للحاكم على أنه ذو سلطة مطلقة، ويجب طاعته، لذا كان المصري يخلص لهذا الحاكم إخلاصاً كاملاً، ولكن نتيجة لاستغلال الطبقة العليا للفقراء، والكادحين في بعض الفترات؛ فيحدث نوع من الاضطرابات، بالإضافة إلى ذلك، لم يرغب الفقراء في المشاركة الفعالة في الحياة السياسية، طالما أنه لم يقترب منهم أى ضرر، وخصوصا في متطلبات الحياة، بينما نجد أن أغلب ثورات الفقراء وانتفاضاتهم كانت بهدف درء الضررعنهم من جراء أزمة طبيعية، أو لمساندة أمير على أمير، أو حاكم على حاكم، وذلك أملاً في غد أفضل يعود عليهم بتحسين ظروفهم الاقتصادية، لذا فقد قمنا بتقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة عناصر هامة .

أولا : حالات الهيجان السياسي وأحداث الشغب:

لم تظل القاهرة على مدى القرنين السادس والسابع الهجريين – الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين على وتيرة واحدة من الهدوء والسكينة والاحتفالات ،إنما كثيرا ما كان ينبض الشارع المصري بحالات الغضب والهيجان السياسي، والتي تعددت صوره وأشكاله.

كان المصريون على طول تاريخهم الضارب بجذوره في فجر التاريخ الإنساني بالمرصاد لكل الطغاة الذين فرضوا سطوتهم، وكانت السخرية والتهكم أهم الأسلحة التي استخدموها بمهارة فائقة في هذا المجال(١)؛ فلجأوا للمقاومة البيضاء وهي المقاومة اللسانية أو القولية، والتي تمثلت في الشعر المصري، وهو متصل بالأحداث التي تقلبت على المصريين وعبرت عن واقع عاشه الفقراء وقاسى منه أفراد هذه الطبقة(٢) فلقد اعتاد الفقير وسط القيود المكبلة أن يسخر من الوضع القائم، وأماله مليئاً بالحزن والشجن، فيهرب من البكاء باللجوء إلى السخرية، وهو بذلك ينتصر على البلاء، فليجأون إلى الفكاهة في أحلك الظروف فالسخرية هي وسيلة تفريغ لشحنة الكبت والقهر، وذلك عندما يعجز عن الوقوف ضد الظروف الاقتصادية. وهنا تكمن قدرة المصري في اختياره للرمز، والتلاعب بالألفاظ ،فلقد كان تهكم الضعفاء والبسطاء على بطش الحكام وجهلهم بإدارة الأزمات والاستئثار بخيرات الوطن لهم ولأتباعهم.

(١) عمرو عبد العزيز، العمران في مصر، ص٢٤٣ .
(٢) حسين نصار، الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص٨٩ .

وتلك المقاومة تبين نوعاً غريباً من الحكام المتسلطين طبعة الجشع وانعدام القيم تلك السلطة التي لم يكن يقف أمامها قانون، فدفعت العامة وفقراءهم لتعبر عن إحساسهم. فقد أشار الكواكبي إلى أن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه[1]. فلم يمنع العامة وخاصة الفقراء منهم عن التعبير عن أرائهم، في صورة شكاوي عنيفة أو، سخرية من حكامهم برغم أنهم خاضعين لسلطة مسيطرة على جميع أوجه الحياة وفق مصالحهم الخاصة فإزاء المحن والأحداث الجسام كان اللسان هو السلاح الذي لا يمكن لأحد أن يجرده وإن قطعوه أحياناً[2]. ومن أمثلة ذلك في عهد وزارة بهرام الأرمني (٥٢٩-٥٣١هـ - ١١٣٤-١١٣٦م) كان مسئول الديوان الأفرم، وقد أساء سيرة الرعية من المسلمين وتملك النصارى في البلاد فقال في هذا الصدد الشعراء:

إذا حكم النصارى في الفروج ∴ وغالوا بالبغال والسروج
وقامت دولة الأنذال فينا ∴ وصار الحكم فينا للعلوج

وقد عزله الحافظ، وصادر أملاكه، وأعتقل أخاه وأبيه، وقتلهم سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧ م [3]

ومن شدة الظلم الذي لاقاه الشعب من أهل الذمة كان العوام يقولون :

تنصر فالتنصردين حق ∴ عليه زماننا هذا يدل

وعن لعن النصارى واليهود معا قيل :

لعن النصارى واليهود جميعهم ∴ نالوا بمكر منهم الأمالا
جعلوا أطباء وحساباً لكى ∴ يتقاسموا الأرواح، والأموال[4].

ولم يسلم حكام القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) من السخرية والنقد اللاذع وأكبر مثال على ذلك مؤسس الدولة الأيوبية وأفضل حكامها: صلاح الدين الأيوبي فكان يسمع من المتظلمين والمستغيثين أغلظ ما يمكن أن يسمع فقال عنه الشاعر ابن عنين:

سلطاناً أعرج وقاضيه ∴ ذو عمش، والوزير منحدب[5]

---

(١)أحمد شعلان، الشعب المصري، ص٧٦، ٧٧ ؛ محمد عمارة ، الكواكبي، ص١٦٨ .
(٢) عبد المنعم سلطان ، المجتمع المصري في العصر الفاطمي ،ص٧٣؛ محمد رجب النجار ، الشعر الشعبي الساخر في عصر المماليك، (ج١، مجلد ١٣، مجلة عالم الفكر ،ع٣، الكويت، ١٩٨٢م)، ص٦٩.
(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٧٢، ١٧٣؛ سلام شافعي، أهل الذمة في مصر، ص٧٣-٧٥ ؛ محمد المناوي، الوزارة في العصر الفاطمي، ص١٦٧- ١٦٩.
(٤) الشربيني، هز القحوف، ص ١١٨، ١١٩.
(٥) ابن شداد، سيرة الناصر صلاح الدين، ص ١٨، ٢٥٠؛ جمعة جمال عبد العال، الثورات الشعبية في الدولة الايوبية، (رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب الزقازيق، ١٩٩٦م)، ص٦٢.

وأثناء سلطنة الصالح نجم الدين أيوب بمصر سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢ م ،استكثر من شراء المماليك فضاقت بهم القاهرة فشوشوا على الناس حياتهم، ونهبوا بضائعهم من الدكاكين، وفي ذلك قال نفر من الشعراء:

الصالح المرتضي أيوب أكثر من .·. ترك بدولته يا شر مجلوب

في حين وصفهم أخر بقوله:

صنف من الترك والخدام قد بلغا .·. بأقبح الفعل فينا غاية الأمل(١)

ويبدو أن الصالح كان عند حسن الظن، فعندما بلغ مسمع الملك الصالح هذه الأبيات قام ببناء قلعة الروضة لهم، حتى يكف أذاهم عن الرعية(٢). وربما يكون فعل ذلك حفاظاً على علاقته بالشعب المصري وخوفاً من ثورتهم وغضبهم فربما تتحول أبيات الشعر إلى فعل، فغضب المستكين (الرعية) دائماً أشد قسوة.

وقد وجد لون من الأدب انفردت به مصر، ويرجع إلى ابن مماتي مؤرخ العصر الأيوبي في كتابة: "**الفاشوش في حكم قراقوش**" ويرمي إلى السخرية من الترك وحكمهم ويعلق أحد الباحثين على ذلك الكاتب القبطي أنه كيف نال من ذلك الرجل وعبث سيرته حتى حمل الناس في مصر والشرق على أن تشيع بينهم عبارة "حكم قراقوش" كمثل للتخبط في إصدار الأحكام الجائرة والأمور المضحكة فشبهوا عهود الظلم بعصر قراقوش، على أساس أن صلاح الدين وكل له إنفاذ خططه لأعمال البناء(٣)، فقيل أثناء حفر بئر يوسف ،كان يقذف فيه بمن يتمرد من عماله المسخرين، لدرجة أن العامة تخيلوا أن الممرات السفلية بالقلعة كانت تستخدم كسجون للعمال(٤). فقد أشار البعض أن البناء تم دون أجر يدفع لمن يقوم بالعمل(٥). فقد اكتفى الناس بالتنفيس في انفعالاتهم وقت الشدائد اعتقاداً منهم أن سلطان "**غشوم خير من فتنه تدوم**"(٦).

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٨٣؛ أحمد سيد محمد، الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي، (ط الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص١٩٢،١٩٣ .
(٢) ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٨٣؛ عبد الرحمن زكي، نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين، (المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٨، ١٩٧١م)، ص٧ .
(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٠٨، ج٣، ص ٣٧٩؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٥٣؛ نظير حسان سعداوي، صور ومظالم في عصر المماليك، ص ١١٩؛ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص ٢٨٢؛ شحاته إبراهيم عيسى، القاهرة، ص ١٢٢.
(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص ٢٤١؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٣٢ .
(٥) لينبول، سيرة القاهرة، (ترجمة حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن، النهضة، القاهرة، ١٩٩٣م)، ص ١٥٩؛ أولج فولكف، القاهرة، ص ٨٣.
(٦) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، (ج١، بيروت، دار الفكر العربي، د. ت)، ص ٢٩.

ورغم قتل المعز أيبك في سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م ،وكونه ملكا شجاعا كثير البذل للأموال، إلا أن أهل مصر لم يرضوا بذلك، إلى أن مات، وهم يسمعونه ما يكره، فإذا مر بالطرقات يقولون له "**لا نريد إلا سلطان رئيساً مولوداً على الفطرة**"، فقد كان أدب السخرية بالنسبة للعامة إحدي الوسائل الفنية والنفسية في محاربة السلطة الجائرة، وكشف ألاعيبهم(١). وربما يكون كره العامة والفقراء للمماليك، راجع لعزلتهم عن الشعب المصري، بل وحافظوا على غربتهم باعتبارهم طبقة عسكرية يحترفون القتال كمهنة(٢). بالإضافة لنظرة التعالي منهم، ودليل ذلك تحذير الناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع لكاتب أو عامي وليس لهم الحق فى الزواج منهم، ومن خالف ذلك تعرض للأذى والعقوبة(٣).

وهناك مظهر للاحتجاج على مظالم السلطة الحاكمة تتمثل في مظاهرات الشوارع التي كانت تقع في حالة ندرة المواد الغذائية، أو المجاعة، وإن كان ذلك لم يتضمن موقفاً فكرياً بل كان مجرد صياح للجوعي(٤)؛ ففي أثناء مجاعة ٦٩٤-٦٩٥هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٥م ،وقع الغلاء في عهد العادل كتبغا ورغم محاولاته بجمع الفقراء وإطعامهم(٥)، إلا أن الناس قرنوا بين هذا البلاء وبين تولية كتبغا للحكم فقالوا : بكعبه المشئوم ووجهه المحظور توالت علينا هذه الشرور، وغلت الغلات والأسعار، وارتفعت الأقوات، فكرهه الشعب بسبب الغلاء(٦)، ورددوا قول الأديب الشعبي شمس الدين محمد بن دينار:-

ربنا اكشف عن العذاب فانا ∴ قد تلفنا في الدولة المغلية

ويبدو أن ما سبق كان سببا في خلعه حيث استغل لاجين هذا السخط الشعبي ضد كتبغا وقام بانقلاب ضده(٧) سنة ٦٩٥هـ - ١٢٩٦م

وبعام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م في عهد السلطان بيبرس الجاشنكير انتهزت العامة فرصة تأخر فيضان النيل عن موعده وغنت في الحدائق بنفس العام:

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٣؛ محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر، ص ٧٨١.
(٢) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١١٦.
(٣) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٩، ص ٩٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٣٢٢.
(٤) نيللي حنا، ثقافة الطبقات الوسطى، ص ٢٢١.
(٥) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٦- ٣٠؛ السلوك، ج١ ق٣، ص ٨٠٨- ٨١٩؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ١٣٣.
(٦) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١٤٤
(٧) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٨٨، ٣٨٩؛ ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٣٣؛ محمد رجب النجار، المرجع السابق، ص ٩٥، ٨٠٧؛ جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (ج٢، المكتبة التاريخية، المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م)، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

سلطانا ركين ونائبنا دقين ∴ يجيبا الماء من أين
يجيبوا لنا الأعرج ∴ يجى الماء ويدحرج

فالمقصود بلفظ "ركين" السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وبلفظ "دقين" الأمير سلار النائب، فإنه كان أجرد وليس بلحيته وشاربه سوى شعيرات قليلة، أما الأعرج كناية على السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد كان به عرج برجله[1]. فلفظي ركين ودقين هو تصغير للفظي ركن ودقن والمراد من التصغير هو التحقير من شأن ركن الدين بيبرس والأمير سلار النائب.

وعندما جاء الناصر محمد، وسئمت العامة أفعاله: كالسخرة التي دأب ولاته على ممارستها، وجمعه لأموال الناس لإعداد حملة لإخراج جيوش السلطان محمود غازان من الشام، نقد العامة جنده بقولهم: "**بالأمس كنت هاربين، واليوم تريدون أخذ أموالنا**" فقال: "**أي عامي تكلم مع جندي كانت روحه، وماله للسلطان**"[2]. فالشعب المصري عامة والفقراء خاصة عندما يعجزون عن التعبير عن سخطهم إزاء السلطة الحاكمة- بشكل يرضيهم وقت الأزمات بالإضافة لفرض العديد من الرسوم، وغيرها- بالثورة فتكون السخرية (الرموز والأشعار) هي التعبير الوحيد لإعلان غضبهم من السلطة.

كما اتخذت الأمثال الشعبية كمتنفس لهم؛ حيث عبروا عن الوضع الاقتصادي، من حيث عدم استفادتهم من كدهم في مواجهة الحاكم، فيعتقد أنه سلطان نفسه بقوله: "**كل إنسان في نفسه سلطان**"، ويقول: "**الضرب بالسيف ولا حكم الويل**" ، فيفضل الموت بالسيف عن الموت ذليل[3]؛ أما المثل القائل "**رزق الهبل على المجانين**" استعمل لولاية الوظائف بالرشوة، وتعسف أهل الدولة مع الحرفيين والصناع حبا في المال[4] وهذه الأمثال على سبيل المثال لحالات الغضب الداخلي لفقراء الشعب المصري.

وقد عرف مما يسمى بخيال الظل على شكل عرائس، وصور من الجلد أو الورق المقوى وهي وسيلة للنقد الاجتماعي في رموز السلطة الحاكمة. ففي مبايعة الخليفة العباسي للظاهر بيبرس ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م قال المؤلف: (وجعلناه أميراً على مساخرة الجمهور، وأضفنا إليه من الولايات ما يأتي ذكره من خراب) كما احترف البعض تقليد ومحاكاة طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم[5]،

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٩، النيل وجزيرة الروضة، ص ٢٣١ هامش (٢)؛ المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ص ٥٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٨٢.
(٢) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣، ص ٩٠٧؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٢٩.
(٣) أحمد شعلان، الشعب المصري، ص ١١١، ١١٢.
(٤) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج١٥، ص ١٣١.
(٥) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٩٤؛ أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ٢١٣؛ شلبي جعيدي، طبقة العامة في مصر، ص١٤٣، ١٤٤ ؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص١٩٣؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص١٧٢ .

فما يميز خيال الظل أن موضوعاته هي تأريخ لبعض شخصيات تمناها المجتمع المصري لتدافع عن حقوقه مثل عليّ الزيبق، وسيرة الظاهر بيبرس كبطل قومي.

لذا تعتبر السير الشعبية واحدة من أهم الأساليب للتعبير عن حال الفقراء. فالموروث الشعبي يتسم بالتلقائية من ناحية؛ كما يدور حول أمور تتعلق بتقاليد وعادات المجتمع من ناحية أخرى، كما أنه يفسر الأحداث التاريخية في شكل أبطال تاريخيين بأسلوب مثقل بالخيال والرموز الشعبية. فالراوي في السيرة يخاطب جمهوره، ويختار شخصاً تاريخياً، ويعيد صياغته في إطار شعبي يلبي حاجات الجماعة ويفسر التاريخ لصالح الناس، فالتاريخ تصنعه الشعوب، ويسرقه الحكام منذ أقدم العصور[١]. فقد اتخذت السير موقف متشدد تجاه المحتسب والولاة لتشددهم على العامة في الإجراءات فتجعل من البطل محتسبا ووليًا ليمنع الأذى عن الناس كنوع من السخرية، فظهرت سيرة على الزيبق، وهي أحب شخصية إلى قلب القاص الشعبي وجمهوره ،الذي يرى أن اللص أحسن حالاً من الحاكم المرتشي[٢]. فعلى الزيبق هو البطل الذي تمناه الفقراء ليحقق العدالة لتحي في نفوسهم الأمل، وتنتقم لهم من رموز الظلم فليجأ الفنان الشعبي لتلك السير ليكون متنفساً للمشاعر الشعبية من ناحية، ويبرز مشاعر الإحباط والحيرة في أوقات الأزمات من ناحية أخرى[٣]، ليجعل من أشخاص تلك السير أبطالاً حقيقيين يتسمون بالنموذجية بالنسبة للشعب، ويكونون المخلصين لهم من حالات الفقر، لتظل تلك السير في وجدان الشعب المصري يتذكرها على مر العصور، وخصوصاً في فترات ظلم السلطة.

ومجمل القول تعتبر النماذج الأدبية والفولكلورية في التراث الشعبي والأدبي لأية أمة هو دليل قاطع، وجذري لشكل حياة شعبها ويُظهر مدى تقدمها الحضاري، ومن خلاله نسطيع أن نكشف ما كان تعانيه تلك الأمة من أزمات، ومن خلال تلك النماذج يستطيع أي شعب التعبير عن رأيه دون قيود عن طريق مهاجمة السلطة مستتراً وراء قصة هزلية أو سيرة شعبية مثل على الزيبق.

وكثيراً ما أخذت حالات الهيجان السلبي إلى مقاومة إيجابية، فيعبر عامة الناس عن مشاعرهم في ذكرى عاشوراء بالخروج عن النظام، والتعبير عن الغضب لسوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية لما يصبح فيه من حزن، وتتعطل فيه الأسواق، وفى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب شغب الناس على الصاحب معين الدين شيخ الشيوخ ،عندما قام بإقامة بناء فوق سطح أحد المساجد، وقاموا بهدم

(١) قاسم عبد قاسم، بين التاريخ والفلكلور، (ط الثانية، عين، القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص ٤٢،٤٨،٤٩ .
(٢) علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص١٨٤-١٨٦؛ محمد رجب النجار، الشطار والعياريين، ص٤٨،٣٤٨،٣٤٩.
(٣) قاسم عبده قاسم، بين الأدب والتاريخ، (دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م)، ص٧٢؛ بين التاريخ والفلكلور، ص٩٣.

هذا المبنى، ونقل ما فوق المسجد[1] .وبعام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، فرح الناس عندما صودر وعوقب الوزير ابن السعلوس، لأنه كان متكبراً، وأثناء طلوعه للقلعة مقيداً، وقفت الحرافيش في طريقه، ومعهم أحذية مقطعه ونادوا عليه: "**يا صاحب علم لنا على هذه**"[2]. وعندما تجمع المماليك على الشجاعي، وضربوه وأخذ أقوش المنصوري يضربه بالسيف حتى الموت، ثم عادوا به لكتبغا، فأخذت رأسه وجعلت في رمح وأعطوه للمشاعلية، فجبوا عليه مالاً كثيراً؛ لبغض الناس فيه: فقد كانت النسوة تضربه بالمداسات حتى قيل أنه: "**بلغت اللطمة على وجهه بالمداس نصفاً، والبولة عليه دراهماً**"[3]، مما يوحي بشدة ظلمه للشعب المصري لدرجة دفع المال للتشفي فيه.

وفي نفس الوقت، نُظر لتلك الفئات من قبل الحكام نظرة احتقار، وتعال؛ على أنهم طبقة لا يهتم بها، ونسوا تماماً أنهم جزء لا يتجزأ من الشعب المصري. ففي أثناء الثورات، كانوا يجوبون الشوارع، والأزقة في القاهرة ينهبون ما يستطيعون نهبه وينشرون الفوضى، فلزم البعض بيوتهم لرد هجمات هؤلاء الغوغاء[4]. ومع ذلك لم تلزم طوائف الشطار والعياريون نفسها بالتبعية لسلطة معينة إلا بولائها للوطن، فثوراتهم بدافع من ذات النفس[5].

فكانت حركاتهم من سلب وتخريب موجهة بالمقام الأول نحو من يسئ معاملاتهم من السلطة الحاكمة، وعموماً لا يثور الفقراء إلا في حالة الصعوبات الخطيرة: كزيادة الأسعار، أو نقص المواد الغذائية[6]؛ كنهب الخبز من الأسواق لإشباع جوعهم[7]. كما حدث عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م[8] ،في حين أن الشطار والعيارين شكلوا العصب الرئيسي في هذه الانتفاضات الشعبية، والتي كان يقوم بها الغوغاء، والأوباش، وأهل السوق، وغيرهم بمن يقع تحت دائرة الفاقة والفقر[9]، بما يعني أن ظروفهم الاقتصادية كانت كفيلة بزعزعة الأمن وقيام الانتفاضات ضد السلطة الحاكمة، ولكنها لم تكن بالقدرة المؤثرة لتغيير الوضع القائم بذلك الوقت؛ لأنهم في نظر الحكام مجرد شرذمة لا تعي ما تقوله أو تفعله وتناسوا أنهم جزء من نسيج المجتمع المصري؛ يتأثر فيؤثر.

---

(١)المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٨٥ ؛ جمعه جمال عبد العال، الثورات الشعبية، ص٦٠.
(٢) المقريزي، السلوك ،ج١ ق٣، ص٧٩٧ .
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزهراء، ج٨، ص٥٢،٤٦ .
(٤) محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص١٦٥،١٦٤؛ حنفي محمود خطاب، الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، (رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة فؤاد الأول، ١٩٤٩م)، ص١٥٤ .
(٥)محمد رجب، الشطار والعياريين، ص١٧٢ ؛ إبراهيم علي طرخان، مصر في دولة المماليك الجراكسة، ص٢٥٣ .
(٦)محاسن الوقاد ، المرجع السابق ، ص١٧٠،١٦٩ ؛ ألبرت حوراني ، تاريخ الشعوب العربية ، ص١٧١ .
(٧) المقريزي، إغاثة الأمة، ص٢٩.
(٨) نفسه ،ص٢٨، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج١، ص١٣٣؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٧٩ .
(٩) محمد رجب النجار، المرجع السابق، ص٤٢ .

وقد اتخذت علاقة المسلمين بأهل الذمة، وخصوصاً النصارى شكلاً آخر من أشكال الصراع، وأحياناً كان الحاكم هو وقود، وفتنة هذا الصراع.

مما لا شك فيه أن أهل الذمة (مسيحيين، ويهود) عاشوا كجزء من المجتمع ،المصري بل تميزوا أحياناً أخرى في تولية المناصب الإدارية العليا بالدولة خلال تلك الفترة، ولكن إن كانت قد وجدت مشاحنات بين أبناء البلد الواحد الذين تجمعهم ديانة واحدة؛ فما بالنا بالذين تجمعهم ديانات مختلفة في زمن كان الدين ذا قوة طاغية على سلوك الفرد والجماعة على السواء؟! فلقد وجدت طبقة أهل الذمة عناية من الحكام بمعاملة تنطوي على العطف، والرعاية، فتقلدوا أرفع المناصب، واجتهدوا في الحصول على الهبات، وتكوين الثروات[1]؛ لذا فيرجع سبب المشاحنات بين المسلمين، وأهل الذمة لعوامل اقتصادية واجتماعية؛ فتكونت ثرواتهم بفضل عملهم في الجهاز الحكومي في مواجهة حالة الفقر الاقتصادي؛ فولدت في نفوس عامة الناس مشاعر الحقد، والرغبة في الإيقاع بالأغنياء، بغض النظر عن دينهم ليستمر ذلك حتى القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي[2].

ومن أمثلة ذلك ما حدث في عهد الحافظ لدين الله (٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م) من صعود أهل الذمة لمكانة مرموقة بالدولة، ليتولى بهرام الأرمنى الوزارة عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، فتحيز لبني جنسه من الأرمن، فولى أخاه الباسك ولاية قوصُ وفى نفس السنة استباح أموال الناس وبالغ في أذيتهم فما كان من الحافظ بعد ثورة رضوان الولخشي باستعانة من الأهالي إلا أن يطيح بالوزير بهرام، ويعين رضوان بدلا منه[3].

وفي عام ٥٢١هـ/١١٢٧م ،كثرت مصادرات الراهب للعديد من الشعب المصري؛ "**فتنكد الناس، وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق**"[4]. ولم يكن عند الراهب تفسير لذلك ؛ فضرب بالنعال حتى مات، ثم صلب ومثلت بجثته وطرح في النيل فكان موته في عام ٥٢٣هـ(١١٢٨-١١٢٩م)[5]. ويبدو أن بعض مناوشات المسلمين ضد المسيحيين راجع إلى الشعور الكامن بالحقد لدى المسلمين لفئة

(١) الشربيني، هز القحوف، ١١٧، ١١٨؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص٨٢ بتصرف ؛ حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية، ص٦٢٤؛ علي حسن الخربوطلي، (مصر العربية الإسلامية، الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٣م)، ص٣٤٢،٣٤٤.
(٢) قاسم عبد قاسم، اليهود في مصر، ص٧٢ .
(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٧٣ .
(٤) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج٣، ص١١٩ .
(٥) سلام شافعي، أهل الذمة في مصر، ص٧٩ ؛ حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص٢١١،٢١٢ .

دينية امتازت بالمناصب الإدارية العليا بالدولة بل، وحابوا أبناء دينهم على حساب أبناء الدين الإسلامي، وجمعوا الثروات بشتى الطرق من عرق وجهد الشعب المصري بالضرائب، والمكوس عامة، في وقت كانت فيه الأزمات تطل بأذرعتها على المصريين، في حين نال الفقراء النصيب الأكبر من تلك الأزمات، برغم أن المرض، والوباء لا يفرق بين غني وفقير، إلا أن سبل العلاج كانت غير متوفرة بالشكل الكافي، بالإضافة لتمكن المرض من الأجسام الضعيفة، والتي غالباً ما تتمثل في الفقراء لسوء تغذيتهم، بما يعني أن تلك الاسباب كفيلة لكره المسلمين للمسيحين في بعض الأحيان، ويصل ذلك الكره لبعض الشغب ضدهم وضد كنائسهم ومثال ذلك:

ما كان يحدث من تهدم للعديد من المباني: فقد أحرقت كنيسة مارمينا بالحمراء، وسويت بالأرض مع غيرها في عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م ، ولم تبني إلا في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م وعلى عهد الكامل عام ٦١٠هـ/١٢١٣م، شغب العامة عليه، ورجموه بالحجارة؛ وذلك لوجود بجانب الكنيسة المعلقة بمصر مسجد زال أثره[1] ورفض الكامل بناءه ، بل وأنكر أنه كان مسجداً. وفي سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م ألزم الأمير سنجر الشجاعي النصارى أن "**يركبوا الحمير بزنانير في أوساطهم، ولا يجسر نصراني يحدث مسلماً وهو راكب**"[2]. وفي عهد الملك الأشرف الخليل بن قلاوون(٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م)، خدم الكتاب النصارى عند الأمراء، وكان منهم كاتب يعرف بعين الغزال، وقد تأخر مال على سمسار لصالح الكاتب فكتفه، وأراد صلبه بجامع ابن طولون، فأطلق الناس سراحه واستغاثوا بالسلطان، فقرر أن ينادي بمصر والقاهرة بعدم خدمة أحد من النصارى واليهود عند أمير[3]. وإزاء تلك الأحداث لجأ النصارى لبعض الأعمال الانتقامية مثل: إحراق بعض أحياء القاهرة، أو مساجدها كما حدث في عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م[4].

وفي أحداث رجب عام ٦٩٨هـ /إبريل ١٢٩٨م، وصل للقاهرة وزير ملك المغرب بسبب الحج، واجتمع بالسلطان الناصر والأمراء، فحضر كتاب نصارى، فأنكر على السلطة الحاكمة تحكمهم في رقاب المسلمين، وذكر أن عهد ذمتهم قد انقضت منذ عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، فأمر الناصر بعدم استخدامهم، وغلق كنائسهم[5]؛ وفي رجب عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، أسلم جماعة منهم بسبب تلك

---

(١)النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٦٣ ؛جمعة عبد العال، الثورات الشعبية، ص٥٧؛ سلام شافعي، أهل الذمة في مصر، ص٢٤٢،٢٤٣.
(٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٤٠٢
(٣) نفسه، ص٤٠٢،٤٠٣ .
(٤) النويري، المرجع السابق، ج٢٨، ص٣٣ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص٥٣٥ .
(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٣٢،١٣٤؛ المقريزي، المصدر السابق ، ج١ ق٣، ص٩٠٩،٩١٠ .

الأفعال[١]، ولكن في عام ٧٠٣هـ/مارس١٣٠٣م، بعث ملك برشلونة للناصر هدية جليلة و "**وكتاب يسأل في فتح الكنائس**" ففتحت كنيسة حارة زويلة للعاقبة، وكنيسة البندقانيين من القاهرة[٢] تحت ضغط من حكام أوروبا، ومنهم إمبرطور القسطنطينية، والبابا الذي طلب من الناصر أن يحسن معاملة المسيحيين لكي يحسنوا هم معاملة المسلمين المقيمين بأوروبا. ومهما كان الأمر، فإن أهل الذمة لم يتعرضوا للهوان إلا في أوقات الشدة، والاضطرابات، والفتن، وفيما عدا ذلك، تمتعوا مع إخوانهم المسلمين من حقوق، وامتيازات[٣].

وقد يرجع عدم قيام العامة وفقراؤها بثورات عديدة، نظراً لاحترام المصريين لحكامهم، بالإضافة لاستنفار قوتهم في حركات الجهاد ضد الصليبيين، والمغول، بالإضافة لضعف دور الطبقة الوسطى في عصر ساده النظام الإقطاعي؛ مما أفقد العامة القادة المحركين للثورات، وقد رأينا أنه عندما يعجز فقراء المجتمع المصري عن مقاومة السلطة الحاكمة، أو النيل منها عن طريق الثورة ضدهم؛ كانوا يلجأون إلى أساليب أخرى من المقاومة يغلب عليها الطابع السلبي، فمصر دائماً تميل إلى النظام، وتحب طاعة الحكام[٤]. ورغم أن العبارة الأخيرة فيها شيء كبير من الصحة إلا أنه مع ذلك كان الشعب المصري يتقبل حكم السلطة الحاكمة أحياناً على مضض وكان أبسط ما يمكن أن يفعله سواد العامة والمعدمين، وغيرهم من الطبقات الكادحة إزاء الأزمات: هو ظهور حالات الهيجان السياسي، وإحداث الشغب.

فقد كان الطابع السائد لغضب الفقراء، هو طابع المقاومة، سواء كانت سلبية، أو إيجابية لعوامل الفقر، والحاجة، والتي لعبت فيها الشرائح السفلي من عامة القاهرة الدور الرئيسي فيها، بينما ظلت الفئات الأخرى من المجتمع المصري في معزل إلى حد ما، وربما ذلك خوفاً على مصالحهم أثناء حوادث الشغب، حيث يكثر نشاط الزعر، والغوغاء في السرقة، وبالأخص التجار، والأثرياء. أما الفئات العليا من العامة كالمعممين، مثلاً فرغم تعاطفهم مع الفقراء لسوء أحوالهم وبالأخص أوقات الأزمات، إلا أن البعض منهم اكتفي بالدور السلبي بحكم ارتباطهم بالسلطة الحاكمة في حين ظهر البعض الآخر بالتكاتف مع الفقراء، والشعب ضد السلطة وقت الأزمات، ورغم أنهم قلة لكنهم ذو كلمة مسموعة عند رجال الحكام أمثال الشيخ العز بن عبد السلام.

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١ ق١، ص٩١١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٣٤،١٣٥ .
(٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٤٠٥ .
(٣)عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص٣٥٠،٣٥١ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص٤٧.
(٤) شلبي جعيدي ، طبقة العامة في مصر ، ص٢٤٦،٢٤٧ ؛ عبد اللطيف حمزة ، المرجع السابق ، ص٣٧٤ .

ثانيا :ـ دور الفقراء في الحروب الداخلية:

لقد اعتاد الكثيرون على النظر للفقراء من عامة الشعب المصري ممن يقتاتون يومهم على أنهم كم مهمل، وليس لهم أي تأثير على السلطة الحاكمة، ولكن أحداث القرنين السادس والسابع الهجريين – الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين – أثبتت عكس ذلك وأظهرت كيفية تدخلهم في مساعدة السلطة ضد مناوئيها، أو العكس، وقد ظهر ذلك من خلال عدة مواقف.

ففي عهد الحافظ لدين الله عام ٥٢٨هـ /١١٣٣م، عهد لولده سليمان، وأقامه مقام الوزير يانس، ولكنه مات بعد شهرين؛ فجعل مكانه حيدرة في ولاية العهد، ولكن الأمير حسن بن حافظ لم يعجبه الأمر؛ فأشعل نيران الفتنة الطائفية الجيوشية، والريحانية، وصاح الجند له يا حسن يا منصور "**وانضم إليه أوباش الناس، ودعارهم**"، وسلطهم يفتشون القصر في طلب الخليفة وابنه حيدرة ولم يجد الحافظ إلا أن يكتب سجلاً له بولاية العهد[1]، ولكن كان ابنه حسن شديد الفحص عن أحوال الناس ويريد إقلاب الدولة، وتغييرها، "**ليقدم أوباشه**" فاجتمع عشرة آلاف ما بين فارس وراجل للحافظ يشكونه ابنه حسن لسوء سيرته، وأراد الأمراء قتله، وألحوا عليه فاستدعى طبيبه وهو ابن قرفة الذي أعد سماً له فمات في جماد الآخرة عام ٥٢٩هـ/ مارس ١١٣٤م. وانتهت الأزمة[2]، وعندما توفي حسن قام بهرام الأرمني، وأخذ الوزارة فى نفس السنة، وكان نصرانياً وتضرر المسلمين لذلك وبتولي رضوان بن ولخشي ولاية الغربية جمع الناس لحرب بهرام، فتجمع له ثلاثون ألفاً من المصريين وسار للقاهرة وانضم إليه عسكر بهرام من المسلمين وهزمه، ودخل القاهرة، واستولي على الوزارة في جماد الأولى عام ٥٣١هـ/ يناير ١١٣٦م[3] .

وفي محرم عام ٥٤٩هـ/ مارس ١١٥٤م، بعد اغتيال الخليفة الظافر على يد نصر بن عباس، أحضر الخليفة الفائز وهو ذو خمس سنوات ليتولى الخلافة في حين أن الأمر لم يستقم لابن عباس؛ فأخذ أهل القصر، وكبار رجال الدولة، والقبائل يدبرون مؤامرة للقضاء على العباس وحاشيته[4]، بينما

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢٧،٢٨ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٧٢.
(٢) المقريزي،المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٨،٢٩ ؛ ابن خلدون ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٧٢.
(٣) المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص١٧٢،١٧٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٧٣؛ علي مبارك، الخطط، ج١، ص٢٩، محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص١٦٨،١٦٩؛ حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية في مصر، ص ٦٠،٦٤،٢١٤،٢١٥؛ محمد جمال الدين سرور، أهل الذمة في مصر، ص١٢٢، ١٢٣.
(٤) أسامة بن منقذ، الاعتبار، (دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٢م)، ص ٤١، ٤٢؛ المقريزي ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص١٧٣ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج٢، ص٥٥ .

استغاث نساء القصر بطلائع بن رزيك للأخذ بثأر الظافر، فجمع الناس، وسار يريد القاهرة[١]، فاضطرب عباس لذلك، وكثرت مناكدة أهل القاهرة، ولكنه هرب، واستقر طلائع في وزارة الخليفة الفائز عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م، وقد أحرق عباس ومن معه على باب زويلة بنفس العام[٢]، وظل بالوزارة حتى قتل عام ٥٥٦هـ/١١٦٠م؛ وقام بعده ابنه رزيك، وعزل شاور بن مجير السعدي عن ولاية قوص، ولكنه لم يقبل العزل، وجمع الناس، وسار للقاهرة، وقبض على رزيك واستقر شاور بالوزارة عام ٥٥٨هـ/١١٦٢م حتى ثار عليه ضرغام[٣].

فيتضح من ذلك كيفية دور الأهالي في تأييد أحد الطرفين على الآخر، سواء في ثورة أهالي القاهرة بمقتل الخليفة، أو تحريك كرسي الوزارة بتقلد طلائع الوزارة، وكذلك الخلاف مع رزيك وإثارة شاور عليه بواسطة الأهالي أيضاً[٤]؛ وبسقوط الخلافة الفاطمية في محرم عام ٥٦٧هـ/ سبتمبر ١١٧١م بقطع خطبة العاضد لدين الله وبدء مرحلة جديدة تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي[٥] قام المصريون ضده في القاهرة، ومصر وحتى في الصعيد بثورات عامة، وأول تلك الثورات هي ثورة مؤتمن الخلافة الذي قرر هو وعبيد السودان الإطاحة بصلاح الدين[٦]، وقد انضم إليهم الكثيرون حيث انضم إليهم من الأمراء، والعامة ما ينيف على خمسين ألفاً لقتال صلاح الدين بعد قتله لمؤتمن الخلافة جوهر، والذي كان يتآمر مع الفرنج ضد صلاح الدين الذي استطاع القضاء على الثائرين بعد إخماد ثورتهم، بإشعال النار في محلتهم، حتى طلبوا الأمان في ذوالحجة عام ٥٦٥هـ/أغسطس ١١٦٩م وانتقلوا للجيزة[٧]. ورغم ذلك أشار، أحد الباحثين إلى أن المشاركة الشعبية بسيطة رغم شدة المؤامرة[٨]، فيبدو أن تلك المؤامرة كانت عسكرية بدرجة كبيرة؛ نظراً لرغبة الحرس القديم بالسلطة استعادة نفوذه مرة أخرى وعودة ما كان يتمتع به من امتيازات بالثورة على صلاح الدين ورجاله؛ في حين يجب عدم إنكار المشاركة الشعبية وحتى لو كانت قليلة، وربما ذلك لأن الفائدة معدومة إن جاز التعبير.

(١) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٤٣؛ المقريزي ، الخطط، ج٤، ص٨٢ .
(٢)أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ٤٤؛ المقريزي ، المصدر السابق ،ج٣، ص٩٠ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج٢، ص٥٥.
(٣) المقريزي ، المصدر السابق ،ج٢،ص١٧٣ ؛ ابن الوردي، المصدر السابق ،نفس الجزء، ص٧٦،٧٧ .
(٤) المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص ١٨- ٢٠؛ ابن الوردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٧٦،٧٧ .
(٥) الأصفهاني، الفتى القُسي، ص ٢٩؛ ابن سعيد، النجوم الزاهرة ، ص٩٦،٩٧ ؛ ابن الوردي ، المصدر السابق ، نفس الجزء، ص٧٦،٧٧ .
(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٧؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٢٨٣،٢٨٧،٢٨٩.
(٧) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الجزء ،ص٢٨٣ ؛ علي مبارك، الخطط ،ج١،ص٦٤.
(٨) شلبي جعيدي ، طبقة العامة في مصر ،ص٢٢٦ ، ٢٢٧ .

وفي عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م، ظهر تمسك الحرفيين، وميولهم للفاطميين بعد زوال حكمهم فقد ظهر أحد دعاتهم وهو قديد القفاص، فقال فيه أبو شامة: "**طبقت عقول أهل مصر فتنة وأن أرباب المعايش كانوا يحملون إليه جزءاً من كسبهم وكذلك النساء**"؛ فقد ادعى النسب لأهل القصر، ولكن قد قبض عليه وتلاشت أخباره[١]. ويبدو أن انضمام بعض الحرفيين، وأرباب المعايش لتلك الحركة راجع في المقام الأول لعدم معرفتهم بالعهد الجديد، وخوفهم منه (صلاح الدين) بالإضافة إلى أنه، ربما أخذهم وعود لإصلاح شئون أوضاعهم الاقتصادية، والاجتماعية، وهو حال وعود أية ثورة أو حركة لمسانديها بالإضافة لجهل هؤلاء المساندين، بما تؤول إليه تلك الثورات من نتائج.

وقد كانت الفتنة الأخرى في عهد صلاح الدين في عام ٥٦٩هـ/١١٩٩م عندما تجمع طائفة من أهل القاهرة لإقامة رجل من أولاد العاضد، فكاتبوا الفرنج لأجل ذلك ومن هؤلاء عمارة اليمني، وغيرهم مثل زين الدين بن نجا الذي أخبر السلطان برغبتهم، فقبض عليهم، وشنقوا يوم السبت الثاني من رمضان، أما عمارة فشنق، وصلب فيما بين باب الذهب، وباب البحر[٢]. ورغم شدة العقوبة التي أمر بها صلاح الدين، إلا أنه ربما أراد اظهار قوة سلطته حتى لا يعتقد البعض من الطامعين في دولته أنه لقمة سائغة يسهل مضغها وفي نفس الوقت تحذير شديد اللهجة للفرنج.

وسرعان ما انتهت تلك الفتنة حتى قامت ثورة كنز الدولة والى أسوان في عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م حيث تجمع له كثير من العرب، والسودان، وقصد القاهرة لإعادة الدولة الفاطمية، فانضم إليه كثيرون وقتل عدة من أمراء صلاح الدين، فأنفذ له صلاح الدين أخوه العادل، فانتصر عليه وقتله في ٧ صفر من نفس العام[٣]. وقد قامت بعض الثورات الشعبية المحدودة مثل ثورة ابن عبد القوي في عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م بمدينة قفط لإعادة الخلافة مدعياً أنه داود ابن العاضد؛ وبإعلان الثورة التف حوله بعض الناس ولكن قضى عليهم العادل وصلبهم[٤]؛ فلقد استطاع صلاح الدين بمساعدة مناصرية القضاء على تلك الثورات في مهدها وتثبيت دعائم الحكمة في حين أن الفقراء الذين انضموا لتلك الثورات كان كل هدفهم هو تحسين أوضاعهم.

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ق٢، ص٥٦٦ .
(٢) نفسه، ص٥٦٠،٥٦١؛ تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ٣٥؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق١، ص٥٣،٥٤؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٢٨٧،٢٨٨ .
(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٦، ١٧؛ المقريزى، المصدرالسابق، نفس الجزء، ص١٥٧،١٥٨؛ أبو شامة ، المصدر السابق، نفس الجزء ، ص٦٠٠-٦٠٢ ؛ ابن خلدون ،المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٨٨،٢٨٩ .
(٤) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٣٧٦، ٣٧٧ .

وقد كان لعامة الشعب وفقرائهم دور في الانضمام لبعض الحكام في أثناء صراعهم مثلما حدث في منتصف القرن السابع الهجري، حيث حاول المعز أيبك الاستعانة بعربان الصعيد لمواجهة الناصر الأيوبي صاحب الشام الذي أراد استرداد مصر، واستطاع العربان مساعدة المعز حتى النصر[١] وكان ذلك في عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ولكن الغريب أن المعز عندما دخل القاهرة ومن معه من المماليك الصالحية: "**مالوا على المصريين قتلاً ونهباً**"، وسبب ذلك أنه عند بلوغهم كسرة المعز فرحوا وأسرعوا بالخطبة للملك صلاح الدين يوسف صاحب دمشق[٢]. وفي عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، كانت ثورة الشريف حصن الدين ثعلب الذي كاتب للناصر صاحب دمشق؛ للقدوم لمصر وقد تحالف مع حصن الدين العربان بمشاركة الفلاحين؛ ووصل عدد من تحالفوا معه لاثنى عشر ألف فارس، وتجاوزت الرجالة الاحصاء، فجهز لهم أيبك أقطاي الجمدار الذي بدد شملهم وأخمد ثورتهم بسجن حصن الدين، وشنق أصحابه[٣].

وفي أثناء عودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى العرش ليتولى منصب السلطنة للمرة الثانية (٦٩٨- ٧٠٨هـ/ ١٢٩٨- ١٢٠٨م)؛ استقبل بحماسة من العامة، ولكنه كان في سن الرابعة عشرة من عمره؛ فكانت سلطنته إسمية بسبب تضييق الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير عليه، ومنعه من الناس بل والتصرف في أمواله، وأراد القبض عليه بالقلعة، ومنعه من الهروب، وبعلم العامة بذلك حاصروا الناصر محمد يهتفون: "**ياناصر يا منصور!.... الله يخون من يخون ابن قلاون....!!**" فاضطر الأميران تحت ضغط العامة والغوغاء إعلان الولاء له، ولكن طلب الناصر أداء فريضة الحج في ٢٥ رمضان عام ٧٠٨هـ/٢٧ فبراير ١٣٠٨م: "**وخرج والعامة حوله، وحاذوا بينه وبين الأمراء وهم يتباكون حوله ويتأسفون على فراقه**" وبوصوله للكرك أعلن خلع نفسه[٤]، وكأن بكاء الناس حزناً على فراقه هو إحساسهم بما يفكر فيه من ترك السلطة بالإضافة لخوفهم لما قد ينتظرهم من الأميران سلار وبيبرس بعد رحيل الناصر محمد.

وبعام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، وقعت الوحشة بين المظفر بيبرس وعامة مصر لغلاء الأسعار بسبب النيل فتشاءموا منه فقالوا في ذلك:

يجيبوا لنا الأعرج ∴ يجي الماء ويدحرج[٥]

(١) المقريزي ، السلوك، ج١ ق٢، ص٣٧٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزهراء ،ج٧،ص٦-٩
(٢) ابن تغري بردي،المصدر السابق،نفس الجزء ،ص٩ .
(٣) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص٣٧؛ المقريزي ، المصدر السابق ،نفس الجزء ، ص ٣٨٦-٣٨٨ .
(٤) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج٨ ،ص ١٧٢ ، ١٧٣-١٧٨ ؛ المقريزى،المصدر السابق، ج١ ق٣ ،ص٨٧٢،٨٧٥ .
(٥) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ السيوطي، النيل وجزيرة الروضة، ص ٢٣١؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٤٤.

ولزيادة الاستهزاء به سماه العامة ركين، فقبض على ثلثمائة منهم، وتنوع العقاب ما بين ضرب بالمقارع، وقطع اللسان[1]. وفي تلك الأثناء، سار جماعة من المماليك للكرك، وأعلموا الناصر بطاعة الناس له[2]، فتوجه بهم إلى دمشق، ودعى له على منابرها يوم الجمعة ٢٠ شعبان عام ٧٠٩هـ/ ٢٤ يناير ١٣٠٩م، وحضر بالنواب لمصر فتلقاه الأمراء بغزة وأخبروه أن بيبرس نزل عن الملك[3] أما سلار فخرج لطاعة السلطان في يوم الاثنين ٢٩ رمضان /٢ مارس ليستقر الملك الناصر محمد في مستهل شوال / مارس من نفس العام[4]، بينما اعتقل بيبرس الجاشنكير يوم الخميس ١٤ ذي القعدة /١٦أبريل، وربما ذلك لأخذ أموالاً أثناء هروبه للصعيد[5] وقد كان للعامة والفقراء والغوغاء دور بارز في إعادة الناصر محمد للمرة الثالثة، وفي تخلي بيبرس الجاشنكير عن السلطنة خوفا على حياته ولكره العامة ونفورها منه.

فعندما علم الناس بمجيء الناصر من الكرك "**صاحوا نصر الله الملك الناصر**" وكان ذلك في عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م. وفي تلك الأحداث في رمضان/ فبراير من نفس العام زاد الناس طغياناً على المظفر لضربه لهم لإعلانهم بسبه[6]. وفي أثناء هروب المظفر من قلعة الجبل، وأخذه مال الخزائن صاح عليه العوام بأنواع الكلام، ورماه بعضهم بالحجارة فنثر عليهم المال ليشتغلوا بجمعه فلم يلتفتوا له بل أخذوا في العدو خلفه وهم يصيحون، ويسبونه سباً قبيحاً[7]. فلا نبالغ أن قلنا أن السبب في انتصار الناصر محمد بن قلاوون على مغتصبي عرشه أنه كان محبوباً من الشعب[8]. ورغم تصور الكثيرين من المعاصرين للعامة- والفقراء جزء منهم- على أنهم مجرد جمهور من الأوباش واعتاد المؤرخون وصفهم بالحقارة، والدناءة؛ وذلك نظراً لأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية كالحمالين والخدم والفعلة وغيرهم[9]؛ إلا أن سياسة العصا والجزرة التي استخدمها بيبرس الجاشنكير لم تجدي

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ،ج١،ص١٥٠ .
(٢) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ١٩٤؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج٢، ص٢٥٦ .
(٣) القرماني ، أخبار الدول وآثار الأول، ص٢٠١،٢٠٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٦٧-٢٦٩ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج٤،ص٢٧٨ .
(٤) ابن الوردي ، المصدر السابق ، نفس الجزء، ص٢٥٧ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق ، نفس الجزء ،ص١٥٢ .
(٥) ابن إياس،المصدر السابق،نفس الجزء، ص١٥٢ ؛ ابن الوردي ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٥٨ .
(٦) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ١٩٩؛ ابن تغري بردي ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٦٤،٢٦٥،٢٧٠.
(٧) ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء ،ص٢٧١؛ ابن إياس ، المصدر السابق ، نفس الجزء ،ص١٥٣ ؛ القرماني ، المصدر السابق، ص٢٠٢؛ المقريزي ، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٧٨ ؛ السلوك ،ج٢ ق١، ص٧٠،٧١،٧٧ ؛ ابن تغري بردي ، المصدر السابق ،ج١ ،ص٥٥،٥٦ .
(٨) علي إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص١٣٩،١٤١؛ محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، ص١٧١ ؛ عادل سليمان زيتون ، ملامح من تاريخ الفلاح ، ص٥٦٠ .
(٩) المقريزي ، إغاثة أمة ص٦٦،٦٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصري ، ص ٣٧،٣٨ ؛ العصر المماليكي بمصر والشام ، ص٣٢٤،٣٢٥ ؛ محمد رجب النجار ، الشطار والعياريين ، ص٧،١٣٥،٣٩٠،٤٠٣،٤٠٤ ؛ علاء طه رزق ، عامة القاهرة ، ص٣٥،١٩٠ ، بتصرف

معهم، فقد تعاطفوا مع السلطان الناصر محمد لعودته للحكم دون النظر للمال، بل تحملوا الضرب وقطع الألسن من أجله وربما الظروف لم تساعد بيبرس، لأن في تلك الأثناء عم الغلاء مصر بسبب النيل فتشاءموا منه.

ووقف الفقراء كذلك ضد الناصر محمد عندما أتبع نفس سياسة الظلم مع أحد الأمراء؛ فقد وقف الحرافيش مع الأمير طُشطْ[١] المعروف بحمص أخضر، لإحسانه على الحرافيش، فحين سجنه الناصر محمد عام ٧٢٣هـ/١٣٢٢م، اجتمع آلاف الحرافيش، وثاروا عليه منادين: "**يا أعرج النحس! أخرجه**" فأخرجه من محبسه، وسجنه مرة أخرى، ففعل الأيتام مثل ما فعله الحرافيش من قبل فأطلقه[٢]. ورغم أن هبات العامة وخصوصا الفقراء والبسطاء من المصريين لم تؤت ثمارها بشكل كبير في إحداث تغيرات سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، إلا أن إعلان حالات التمرد، والعصيان هو دليل على سوء الوضع الاجتماعي والاقتصادي لهولاء البسطاء؛ لأن تلك الهبات لم تكن تحدث إلا في أعقاب الأزمات الاقتصادية؛ في حين استغلت السلطة الحاكمة تلك التمردات أحياناً لمناصرتها على القوة المناوئة.

وعموماً فقد كانت تلك المنازعات، والصراعات، ضد السلطة من قبل الفقراء، وغيرهم من الكادحين كفيلة بأن تعكر صفو الحياة اليومية لهم، وأن تضر بالصالح العام للمجتمع، ومن ثم تنتشر مظاهر انعدام الأمن، وتمثل في الخروج على القانون من خلال ثوراتهم التي تنبع من الظلم المتزايد عليهم وقد أوضحنا ذلك خلال القرنين السادس والسابع الهجريين – الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

(١) الأمير طشْط: من خيار الأمراء، وله الصدقات الكثيرة على الأيتام، ابن بطوطه ، رحلة ، ج١، ص٢٤ .
(٢) نفسه، ص٢٤؛ مهذب الرحلة، ج١، ص ٣٣.

ثالثاً: دور السلطة الحاكمة في مساعدة الفقراء:

وكثيراً ما نرى أن السلطة الحاكمة هي أصل الفساد في البلاد على العباد، ويعتبر الحاكم في كثير من الأحيان هو الأب الشرعي لذلك الفساد، وقد أفاضت مصادر المؤرخين بظلم، وفساد السلطة، ورجالها، ولكن مع كل هذا في كل سلطنة، وجد من يعمل لصالح الشعب وخصوصاً الفقراء منهم، ففي خضم هذا الفساد، وفي طيات الظلمات، يخرج حكام يخلدهم التاريخ بأعمالهم، فلا نبالغ إن قلنا: إن هناك حكام ارتبطوا بوجدان الشعب المصري، وعالقة في أذهانه أمثال: الناصر صلاح الدين، والظاهر بيبرس، وغيرهم؛ ولذا فقد كان للسلطة الحاكمة دور أساسي في مساعدة الفقراء، وخصوصاً وقت الأزمات، ولذا سنحاول عرض لأهم تلك الأدوار.

فأول ما يقال عن الحاكم الفاضل: العدل، وهو الذي تُعمر به الأعمال وتستصلح به الرجال[1]؛ فملك الأجساد قد يكون بالعدل، والظلم، إنما القلوب لا تكون إلا بالعدل[2] فعلى الحاكم ردع المعتدين حتى يسعد الرعايا لتحصيل المعايش، وعليه صيانة الأموال، والحقوق من الضياع[3]؛ فقد زعمت الفرس أن فيروز بن بزدجرد ابن بهرام كان ملكاً عادلاً، واتفق أن الناس قحطوا في زمانه سنوات متوالية لدرجة أن الدواب لا تطيق حمولة لشدة القحط؛ فقد "**أمر بإخراج ما في الأهراء ... وساوى في ذلك بين غنيهم، و فقيرهم**" وقيل أنه لم يمت بتلك المجاعة إلا رجل واحد، "**وقد كان يوصى عماله فيقول: سوسو الناس بالعدالة**"، وللحاكم على رعيته حقوق فمنها الطاعة[4] ويقول ابن شاهين أن بالسلطنة تحفظ البلاد، والعباد، ويردع الظلمة، وقمع البغاة، وإقامة مصالح الدين، والدنيا[5]. فعلى مدى قرنين من الزمان وجد حكام ورجال من السلطة الحاكمة أقاموا العدل في رعاياهم بأفعالهم؛ فخلدهم التاريخ في سطوره، والشعب في وجدانه.

ففي عام ٥٠١هـ/١١٠٧م، أراد ابن أبى الليث صاحب الديوان التباهي على الأفضل، وسأله أن يشاهد ما جاء به وكان ٧٠٠ ألف ديناراً خارجاً عن نفقات الرجال، فقال له الأفضل: "**يا شيخ تفرحنى بالمال، وتربة أمير الجيوش إن بلغنى أن بئراً معطلة، وأرضاً بائرة، وبلداً خرابا لأضربن**

(١) ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (دار صادر، بيروت – لبنان، ب.ت) ص١٧، لمزيد من التفاصيل، انظر ابن جماعة الحموي، مستند الأجناد، ص ١٠٥- ١٠٧ .
(٢) الطرطوش، سراج الملوك، (ط أولى، الطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٦هـ)، ص٩٦.
(٣) ابن طلحة القرشى، العقد الفريد للملك السعيد، ص١٤٢، ١٤٣؛ ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص٥٤؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ١، ص١٥٦؛ ابن جماعة الحموي، المصدر السابق، ص ٣٣ .
(٤) ابن طلحة القرشى، المصدر السابق، ص٥٤؛ ابن طباطبا، المصدر السابق، ص٢٨.
(٥) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٢١؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٥٣، الأسدي، التيسير والاعتبار، ص٨٥، ٨٦، ١٥٣.

عنقك" فقال له: حاشا الله أن يكون هذا في عهدك[1]، فبعد أن قتلــه الآمــر فــي ٢٣ رمــضان عــام ٥١٥هــ/نوفمبر ١١٢١م، ظهر الظلم واستغاث جماعة بالآمر وقالوا: "**لعن الله الأفضل لأنــه عــدل**" ففارقنا بلادنا وقصدنا بلده لعدله[2]، بينما الآمر كان قبيح السيرة؛ فظلم الناس، وأخذ أموالهم، وعنــدما ولي الحافظ بعد الآمر، وزرله أبو على أحمد بن الأفضل في ١٥ ذى القعدة ٥٢٤هــ/أكتــوبر ١١٢٩م فأعاد للناس ما صادرهم به الآمر، فأحبه الناس، فاغتاله رجال الدولة لذلك في ١٦ محرم عام ٥٢٦هــ / ديسمبر ١١٣٠م، وقد بلغ ما أعاده للناس خمسين ألف ديناراً؛ فضجوا له بالدعاء[3].

ويعتبر صلاح الدين من الشخصيات النادرة؛ فقد كان حسن العهد فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه، وسلمه إلى من يعتني بتربيته، فكان صبوراً، كثير التغافل عن ذنــوب أصــحابه، وكانت مقاماته في الذب عن حوزة الدين لا تحصى[4]. فعندما تولى سلطنة مصر، أرسل المستــضيء بالله الخليفة العباسى يأمره، ويوصيه بتفقد أحوال الفقراء، فأبطل في كل سنة ما ينوف عن مائة ألــف دينار؛ فضج الناس له بالدعاء[5]، وكان ذلك في عام ٥٦٦هــ / ١١٧٠م، ومثال لتلك الضرائب ما كان يؤدى على شرب ماء النيل، وعلى كل ما يباع، ويشترى[6]. وكان يعمل فوق ما يؤمل الطالب، لدرجة أنه لم يخلف في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً[7]، فكان كما قال:

قد أظهر العدل في الرعايا .: وأبطل الجور، والمظالم

فكان يفكر في رعيته، وهو على فراش الموت لحظه وصيته لابنه الظاهر بتقوى الله، والتحــذير من الدماء، وحفظ قلوب الرعية[8] وعندما توفي بكاه شعبه رجالاً ونساءً[9]، وقــد أجمعــت المــصادر، والمراجع على كرمه، وعطفه، وعدله، وعاش رعاياه في أمان، واتساع أحوال، ومع ذلك عندما فــوض

(١) ابن المأمون، أخبار مصر، ص٩٠.
(٢) ابن سعيد، النجوم الزاهرة، ص٢١٦.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٧٤،١٧٥؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص١٨٠؛ محمد حمدى المناوى، الوزارة والوزراء، ص١٥٢.
(٤)ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص٢٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٤٣٩؛ ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص١٠٨؛ ابن جبير، رحلة، ص١٦.
(٥) ابن واصل، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٧٣، ٤٧٤؛ السيوطى ، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٦، ٢٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص٧٠؛ أبو شامة، الروضتين، جـ١ ق١، ص٤٤٣، ٥٢٢، ٢٢٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٦٧-١٦٩؛ عبد الله الشرقاوى، تحفة الناظرين، ص٩٢.
(٦) عبد الله الشرقاوى، المصدر السابق، ص٩٢؛ ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٩؛ المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٧٥.
(٧) ابن شداد، المصدر السابق، ص٥، ١١؛ ابن الوردى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٠٧؛ ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٧٣ .
(٨) ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٧٠، سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، ص٢٧٧، ص ٢٧٨.
(٩) على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص١٤٠.

الخليفة العاضد الوزارة لصلاح الدين أضعف العاضد وأقطع أصحابه البلاد، وأبعد أهل مصر وأضعفهم، واستبد بالأمور[١] فقد جعلت مصر بمواردها المالية والبشرية قوة صلاح الدين لا حدود لها ليفقد مصر كثيراً من المال والرجال من أثر الحروب الصليبية[٢]. فقد وقعت على أكتافه حماية الأمة العربية من الخطر الصليبي، وقدر لمصر أن تكون هي المورد المالي ومكان الصراع لتلك الحروب، وقدر للشعب المصري أن يتحمل تبعات، ونتائج هذه الحروب بالإضافة للمجاعات والأوبئة ليصبح الفقراء قاسم مشترك لحياة قطاع عريض من الشعب المصري.

وقد مرت أكثر من ثماني قرون على وفاته وظلت شخصية صلاح الدين ملء القلب والعين موضع الإعجاب من جميع معاصريه؛ أعداء كانوا أم حلفاء ولكن الظروف التي أنجبته كقائد للأمة العربية في ظل وجود الصليبيين على أرض عربية أجبرته لحشد قوة وموارد مصر المالية والبشرية لصالح تطهير الأراضي العربية المغتصبة.

وقد سار خلفاؤه على نهجه فبعد تولي ولده العزيز عماد الدين عثمان ملك مصر؛ ضاق ما بيده، ولم يبق في الخزانة درهم ولا دينار، فجاءه رجل يسعى في قضاء الصعيد بمال فقال: "**والله لا بعت دماء المسلمين، وأموالهم بملك الأرض**". وسعى آخر في قضاء الإسكندرية بأربعين ألف دينار فرفض، وكان ذلك في عام ٥٩١هـ / ١١٩٤م، وظل كذلك حتى مات في المحرم عام ٥٩٥هـ / نوفمبر ١١٩٨م[٣]. ولقد كان العادل الأيوبي الذي توفي في عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م ناهياً عن المنكر فطهر جميع بلاده من الخمور والخواطي والقمار والمخنثين والمكوس والمظالم[٤]. وفي عهد الصالح نجم الدين أيوب في ذى الحجة عام ٦٣٧هـ / يونيو ١٢٣٩م بعد نصره على أخيه العادل الثاني، وجد بالخزائن ديناراً واحداً وألف درهم، وقيل له عما أتلفه أخوه؛ فطلب القضاة، والأمراء الذين قبضوا على أخيه فقال لهم: إن لم تحضروا ما أخذتم من المال كانت أرواحكم بدلاً منه، فأحضروا له: ٧٨٥,٠٠٠ ألف دينار، ١,٣٠٠,٠٠٠ درهم[٥]. وفي عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م، بنى لمماليكه قلعة في الروضة لأنهم كانوا يشوشون على الناس وينهبون بضائعهم، وبذلك لا يخالطون الناس بالمدينة[٦].

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٧٥؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص٤٤٣، ٤٤٤.
(٢) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٢٩؛ عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، ص ٢٩ .
(٣) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٢٦، ١٢٧؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق١، ص١٢٦، ١٢٧.
(٤) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١١١.
(٥) المقريزى، المصدر السابق، جـ١ ق٢، ص٢٩٨، القرمانى، أخبار الدول وأثار الأول، ص٢٠٠.
(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص٨٣؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٤١.

ويعتبر الظاهر بيبرس على هذا النمط من الحكام، فقد تملك بأفعاله قلوب الشعب المصري، وتغنوا باسمه في سيرهم الشعبية، وقد أجمع المؤرخون على حب الشعب المصري له لعدله في رعيته.

فعندما صارت مملكة مصر إليه في عام ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م كان أول ما بدأ به هو إبطال ما كان أحدثه المظفر قطز من ضرائب[١]، وفي عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م طاف بالقاهرة متنكراً ليعرف أحوال رعيته، ورأي بعض المقدمين قد عروا امرأة سروالها بيدهم، ولم يستطع أحد فعل شيء وفي الصباح "**قطع أيدي جماعة من نواب الولاة، والمقدمين، والخفراء، وأصحاب الرباع بالقاهرة**"، وقد قل إن وجد حاكم يعاقب رجاله لأجل رعيته. وفي عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م، جمع أهل العاهات، ونقلهم للفيوم، وأجرى لهم ما يحتاجون لكنهم رفضوا، وعادوا للقاهرة، ومصر[٢]. وكان يحصل بمصر من المنكر كل يوم ألف دينار فأبطله[٣]. وفي عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م، أبطل ضمان الحشيشة، وأخرب بيوت المسكرات واستتاب العلوق، واللواطى، ومنع الناس من ذلك[٤] وتكرر الأمر في جماد الآخرة عام ٦٦٦هـ / فبراير ١٢٦٧م، ومنع الخواطى من البغاء، وحبسهن حتى يتزوجن[٥]. وأعاد الكرة على الخمور في شوال عام ٦٦٩هـ / مايو ١٢٧٠م، وافتتح عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م بالتشدد في إزالة المنكرات[٦] وتكرار الأمر في إبطال المنكرات يدل على التأكيد، وعلى أن ذلك الأمر لم يكن ينفذ بالشكل الكامل من قبل، بما يعني عن وجود أماكن كانت تجهر بهذا وقت تنفيذ تلك القرارات، وربما كانت الدولة تتغاضى عن تنفيذ تلك القرارات في وقت الاحتياج للمال.

وقد سار أمراء بيبرس على نهجه، فقد كان الأمير بيليك أحد مماليكه الذي باعه أحد التجار لبيبرس افتقر، وقد صار من جملة الحرافيش، فلما دخل القاهرة بعث لبيليك مضمون قصته، فسأل عن صاحب القصة، وعرفه، ولما رآه أجلسه بجانبه، وأنعم عليه بعشرة آلاف دينار، وخلعه وفرس وقد كان الأمير بدر الدين بيليك كثير البر للفقراء، والمساكين[٧].

(١) القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ص١٩٩؛ على مبارك، الخطط، جـ١، ص٨١.
(٢) المقريزي، السلوك، جـ١ ق٢، ص٥٤٠؛ العينى، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ص٤٠٧، ٤٣٨.
(٣) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٢٢٥.
(٤) عز الدين ابن شداد، تاريخ الظاهر بيبرس، ص ٢٩٩، ٣٠٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص١٠٤.
(٥) عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص ٣٠٠؛ المقريزى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٥٧٨؛ الخطط، جـ١، ص١٧١.
(٦) المقريزى، السلوك، نفس الجزء، ص٥٩٥ – ٥٩٧؛ الخطط، نفس الجزء، ص١٧١؛ ابن الوردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٢٥؛ مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (جـ١، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٩٧٣م)، ص٨٧؛ على مبارك، المرجع السابق، نفس الجزء، ص٨٤.
(٧) ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٩٩، ١١٢.

ويعتبر قلاوون واحداً من أهم حكام القرن السابع الهجري – الثاني عشر الميلادي فبدأ حكمه عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م، وأول عمل بدأ به هو إبطال زكاة الدولية (مال يؤخذ من أصحاب الأموال حتى لو عدم المال، وإن مات عن فقر أخذ من ورثته)، وكان هذا مما أجحفت بالرعية، وأبطل مقرر النصارى (ما يجبى من أهل الذمة وهو دينار بالإضافة لجباية نفقة الأجناد في كل سنة)[١]، والعديد من المكوس الأخرى[٢]، وقد كان يجمع المال لإقامة المنشآت الحيوية التي أفادت العامة، والمحتاجين، وقد وصف عهد قلاوون بأنه: "**خصباً حتى نهايته**"[٣]. وقد توفى في عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م، وكان حليماً قليل لسفك الدماء[٤]. وكان الأشرف خليل على شاكلته (٦٨٩ – ٦٣٩هـ / ١٢٩٠ – ١٢٩٣م)، فكان يقضى بالحق على الأمراء المقدمين للسوقة، ولا يراعى في ذلك أحداً، وإذا ظهر له الحق يكشفه دون تردد؛ في حين أن الناصر محمد بن قلاوون الذي اعتلى عرش السلطنة عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م كان في كل عام يقيم أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد، والماء للمنقطعين، والضعفاء[٥].

وقد كان بكتمر الساقى أتابك[٦] العساكر، ومع ذلك يغلظ القول على السلطان إن رأى الجور منه في حق الرعية، لدرجة أنه في أحداث الحريق والفتن بين النصارى، وعامة المسلمين، أحضر نحو المائتي رجل، وتنوع العقاب فيهم، فصاحوا ياخوند ما يحل لك ما نحن الذين رجمنا، فبكى بكتمر الساقى، والأمراء ولم يعف عنهم إلا بشفاعة كريم الدين الذي رجموه، وسبوه، واتهموه أنه يحامى للنصارى، ومع ذلك كان الناصر محمد أبعد ما يكون عن التعصب الديني، فلا ينتصر لمسلم ضد مسيحى، فقد أمر السلطان بضرب عنق مسلم على باب القلعة لقتلة النصارى بغير حق[٧]. وربما يكون ذلك لخوفه من حكام أوربا والبابا لحسن معاملة المسلمين المقيمين بأوربا.

أما لاجين فقد حكم مصر عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، وكان يحب العدل، وأبطل عدة مكوس، وقال: إن عشت ما تركت مكسا البتة، وكان يجالس الفقراء، والعامة، ويأكل طعامهم، وشدد في منع المحرمات كلها وحتى أولاد الأمراء[٨].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص١٢٠؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٦٦٤؛ الخطط، جـ٣، ص٣٨٧.
(٢) لمزيد من التفاصيل انظر، المقريزي، الخطط، نفس الجزء، ص ٣٨٧ .
(٣)على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص١٦٧؛ الرافعى، سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في العصور الوسطى، ص٤٦٨؛ أندريه ريمون، القاهرة، ص١١١.
(٤) مجير الدين، الأنس الجيل، ص ٧٩.
(٥)ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٢٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٣٢.
(٦) أتابك: أي الأب الأمير، أو إنه الأمير الكبير وأتابك العسكر، هو بمثابة القائد العام للجيش، وهو من ألقاب أمير الجيوش. انظر الأسدي، التيسير والاعتبار، ص ١٨٢.
(٧)ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٦٦، ١٦٧؛ المقريزى، المصدر السابق، جـ٤، ص٢٨٧ – ٢٨٩، ٤٣١، ٤٣٢؛ محمد عبد العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون، ص٢٩٢.
(٨) المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٨٥٩، ٨٦٥.

ويعتبر النظر في المظالم هو نوع آخر من منع الظلم على الرعية، فكانت تؤول تلك المهمة أحياناً للحاكم، وعليه ردع الظلمة، وقمع البغاة، والمتمردين[1] وإغاثة ملهوفهم، وإجابة مستصرخهم، والتسوية في حكمه بين الأبعد منهم، والأقرب[2]. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وحلتهم وفقرهم احتجب الله عز وجل دون حاجته، وخلته وفقره**"[3]. لذا فقد كان هناك مجلس للنظر في المظالم حيث ينادى المنادى في باب الذهب بالقصر فيقول: "**يا أرباب الظلمات فيحضرون**"، ومن جملة القصر الكبير، موضع يسمى السقفية، فإذا ظلم أحد وقف تحت السقفية، وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولى الله؛ فيأمر الخليفة بإحضاره أو يفوض له من يرفع ظلامته[4].

وقد كان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي في أحكامه، ولابد أن يكون جليل القدر نافذ الأمر، وقد قرر أمير الجيوش بدر الجمالى أن الوزير صاحب السيف يجلس للمظالم يومين في الأسبوع[5]، وكان المأمون يفرد يوماً للجلوس للمظالم، وكان يقول: "**لا ندع ضرراً يتوجه إلى أحد من الرعية إلا حسمناه**"، وقد كتب لجميع ولاة الأعمال بمطالعته في مستهل كل شهر بأسماء المسجونين، وسبب اعتقالهم؛ لأن المأمون بلغه أن بعضهم سجن لعدم دفع رشوة لولاه الأعمال، فكان يريد العدالة في رعيته[6].

وقد كان صلاح الدين يجلس للنظر في المظالم يومي الاثنين، والخميس، لإظهار العدل، ولم يرد طالب حاجة[7]. فمن رحمته أن لصوصاً قد سرقوا طفلاً من أمه وله ثلاثة أشهر، وقد ظلت ببابه واقفة وبالنحيب هاتفة فسمع شكواها، فظل البحث عن الطفل حتى جيء به فكان يسمع من المستغيثين، والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع، ويلقى ذلك بالبشر وقد جلس ولده العزيز عثمان بدار العدل عند توليه ديار مصر فقد "**أحسن، وعدل، وقضى، وحكم**"[8]. وعهد السلطان الكامل قل جلوسه بدار العدل لقلة المظالم بفضل صرامة قضاته، ويقظة ولاته وفي شهر ربيع الآخرعام ٦٣٨هـ / أكتوبر ١٢٤٠م رتب الصالح نواباً عنه بدار العدل يجلسون لإزالة المظالم[9].

---

(١) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٥٣؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٦٢.
(٢) ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية، ص٣٥.
(٣) ابن الجوزى، تلبيس إبليس، ص١٦٢.
(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٥، ٢٤٨.
(٥) المقريزى، المصدر السابق، جـ٣، ص٣٣٦، ٣٣٧؛ حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية، ص٣٢٢ .
(٦) ابن المأمون، أخبار مصر، ص٣١؛ المقريزى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٣٨.
(٧) ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ٩؛ محمد حمدى المناوى، الوزارة والوزراء، ص١٦١.
(٨) الأصفهانى، الفتح القسى، ص٢٥٣، ٢٥٤، ٣٢٨؛ ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٨، ٢١، ١١٨، ١١٩.
(٩) المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٣٠٧؛ عباس حلمى، السياسة الداخلية في الدولة الأيوبية، ص٥٨، ٥٩.

وقد مارس حكام الحقب الأخير من القرن السابع الهجري العدل بنشاط لم يعرف من قبل للمحافظة على سمعتهم كطبقة حاكمة عادلة (المماليك) يتقربون بها للشعب، ولتطهير دولتهم من الفساد بين موظفيهم؛ فعندما تسلطن المعز أيبك (٦٤٨ – ٦٥٤هـ / ١٢٥٠ – ١٢٥٦م) أقام الأمير علاء الدين البندقدارى في نيابة السلطنة بمصر، فجلس بالمدارس الصالحية بين القصرين للنظر في المظالم. وتكرر الأمر نفسه بالنسبة للظاهر بيبرس[١]، وذلك بدار العدل التي بناها في عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م كل اثنين وخميس[٢]، فكان أحسن مثل للحاكم العادل بجلوسه للمظالم بنفسه، وبعطفه على الفقراء، والمعوذين فكان يخرج كل عام جملة مستكثرة يستفك بها من حبس القاضى من المفلسين[٣]. ومن عدله أن في أيامه لم تتمكن أكابر الأمراء من التعدي على فقراء العوام بل فقراء اليهود والنصارى، فكان يحميهم من ظلم أعيان ورجال دولته[٤].

وفي عهد المنصور قلاوون، استجد الإيوان عام ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م[٥]، وعندما استقر حسام الدين لاجين بسلطنة مصر في صفر عام ٦٩٦هـ / نوفمبر ١٢٦٩م، طلب أموال الأيتام من الأمراء، وكانت تحت أيديهم، ونقلها لمودع جديد لمال الأيتام استجده، وكتب بأن من مات وله ورثة صغار ينقل ميراثهم لمودع الحكم، ويتحدث فيه قاضى القضاة الشافعى، وقد رد لاجين وقف قراقوش على الفقراء، وكان قد أقطع من سنين، فتسلمه القاضي الشافعي، وبلغ عشرة آلاف درهم، وعوض مقطعية عنه[٦]، وقد أفرج عن المسجونين، ونشر العدل بين قطاعات الشعب المختلفة وإعفاء الكثير من الضرائب[٧]. ويعتبر من أهم الأدوار التي قامت بها السلطة الحاكمة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين – الثاني عشر والثالث الميلاديين – لصالح الفقراء والمحتاجين وغيرهم من الفئات الكادحة: هو التخفيف من حدة أزمة المجاعات، وموجات الغلاء بتقديم مد يد العون – بقدر المستطاع – بتوزيع الأموال والغذاء والكساء لهؤلاء الفقراء والمحتاجين.

ففي وزارة الأفضل التي استمرت حتى آخر رمضان عام ٥١٥هـ / نوفمبر ١١٢١م، وقع الغلاء بالبلاد، وبلغ سعر مائة أردب قمح ١٣٠ دينار، فأمر الآمر وزيره المأمون البطائحى الذي تولى

(١) أبو حامد المقدسي، الفوائد النفيسة، ص ١٨، ١٩؛ المقريزى، الخطط، جـ٣، ص٣٣٨؛ على مبارك، الخطط، ج١، ص٨٣.
(٢) ابن الملقن، نزهة النظار في قضاة الأمصار، (تحقيق مديحة محمد الشرقاوي، الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص ٣٥؛ المقريزى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٣٣.
(٣) عز الدين ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٧، ٣٠٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٩٧؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٧٤،٧٥.
(٤) عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٨١، ٢٨٢ .
(٥) المقريزى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٣٨، ٣٣٩؛ على مبارك، المرجع السابق، نفس الجزء، ص٨٣.
(٦) المقريزى، المصدر السابق، جـ٤، ص٢٣٣، السلوك، جـ١ ق٣، ص٨٦٤، ٨٦٥.
(٧) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٣٩٥ .

في شوال عام ٥١٥هـ / ديسمبر ١١٢١م، بتدبير الأمر فأغلق مخازن الغلال، وخيـر التجـار، أمـا إغلاق مخازنهم حتى وصول الغلال، أو الإفراج عنها وتباع المائة أردب بثلاثين دينـار؛ فانفرجـت الأزمة[١] وتكرر الغلاء في شعبان عام ٥٣٦هـ / مارس ١١٤١م أيام الحافظ لدين الله، ووزارة أبـو على أحمد بن الأفضل الذي أحضر كل ما يذكر من غلة، وأدب جماعة من المحتكرين، ومن يزيد في الأسعار، فكشف عن الناس ذلك البلاء[٢]. وبوزارة الصالح طلائع الذي تولى فـي ربيـع الأول عـام ٥٤٩هـ / مايو ١١٥٤م في عهد الفائز؛ حيث بلغ الأردب خمسة دنانير لقصور ماء النيل عن الوفاء؛ فأخرج ما بالأهراء من الغلات، وفرقها على الطحانين، وأرخص سعرها، ومنع احتكارها حتـى عـم الرخاء[٣]؛ فقد كان الحد من احتكار الحبوبيين للقمح، والغلات من أهم أدوار المساعدة مـن الـسلطة للشعب.

أما في عهد صلاح الدين عندما حدث نقص في ماء النيل؛ أرسل وزيره إلى نصراني، وقـال "**ليست السنة رخاء، والسلطان مشفق على الرعية فأعط ما استطعت من الغلة، إما نقداً، وإما قرضاً**" فقال النصرانى لدى ما يطعم أهل مصر من الخبز ست سنوات[٤]. وفي عهد العزيز عثمان فـي عـام ٥٩١هـ / ١١٩٤م، كانت أيام زيادة النيل، والأسعار مرتفعة، فرفض العزيز بذل الأغنياء الأموال له، وبيع ولايات القضاء[٥]. وفي عام ٥٩٦هـ / ١١٩٩م، كان العادل يخرج ليلاً بنفسه ويفرق الأموال في ذوى البيوتات، والمساكين[٦]. واستمر النيل ثلاث سنوات لم يطلع إلا قليلاً، ففـي عـام ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م، أطلق العادل للفقراء شيئاً من الغلال، وقسم الفقراء على أصحاب الأموال، وأخذ منهم اثنـى عشر ألف نفس، وأفاض عليهم القوت، وانحط سعر القمح حتى صار مرمياً لا يجد من يشتريه[٧].

وقد تكرر نفس الوضع عهد الكامل عام ٦٢٧-٦٢٨هـ / ١٢٣٠-١٢٣١م، ولكن الكامل قـد احتاط بتخزين مقادير كبيرة من الغلال، وسعر القمح، وحظر تصديره، وبتحسن الأحوال أطلق سـعر

(١) المقريزى، إغاثة الأمة، ص٢٢.
(٢) نفسه، ص٢٣.
(٣) نفسه، ص٢٣، ٢٤.
(٤) ابن جبير، رحلة، ص١٢١.
(٥) المقريزى، السلوك، جـ١ ق١، ص١٢٦-١٢٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٢٦، ١٢٧، ١٣١؛ السيوطى، حسن المخاطرة، جـ٢، ص٣١.
(٦) ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٧٠؛ المقريزى، إغاثة الأمة، ص٢٤.
(٧) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ٢٩، ١١١؛ المقريزى،المصدر السابق، ص٢٥، ٢٦؛ البغدادى، رحلة، ص١٣٢ – ١٤٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص٧٦؛ المقريزى، الخطط، جـ٣، ص٣٨٢، ٣٨٣؛ على مبارك، الخطط، جـ٧، ص٧٦، ٤٧.

القمح في ٣ محرم عام ٦٢٨هـ / ١١ نوفمبر ١٢٣٠م؛ فاختفى من الأسواق لتهافت الناس عليه؛ فرجع الغلاء لاحتكار التجار للقمح؛ فأغلق الكامل مخازنهم لحين ظهور المحصول الجديد[١].

وفي عهد بيبرس عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م، كان الغلاء، ففرق الفقراء على الأغنياء، والأمراء، وأمر بجمع الصعاليك الفقراء تحت القلعة، وكانوا نحو ألفي حرفوش ففرقهم على نفسه، وولده، ونائب السلطة بيليك، والأمراء، ورتب للفقراء في كل يوم مائة أردب مخبوزة، وخمسمائة للبيع، وبمعنى أدق لكل واحد منهم يومياً رطل خبز ونصف رطل لحم[٢]، واستمر الوضع حتى دخل المحصول الجديد، وقلت الفقراء ليصبح السعر في يوم واحد أربعين درهماً للأردب[٣]. فلقد كان بيبرس يتميز بإدارة حاكمة ويظهر ذلك في اهتمامه بشعبه، فلم يهدأ له بال حتى خفف من حدة الأزمة بخفض الأسعار؛ لإحساسه أنه المسئول عن رعاية شعبه وبالتالي ينطبق نفس الحال على كل حاكم قوى حازم يفهم معنى مسئولية الحكم والسلطة.

وفي عهد المنصور قلاوون كان الغلاء عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م؛ فتوجه بالعسكر إلى الشام تخفيفاً عن الناس، وأراد فتح المخازن للناس، فحذره الأمير الأيدمرى بقوله: "**قلوب الناس متعلقة بما في الأهراء وكلما نظروا إليها ممتلئة شبعت نفوسهم**"، وأشار عليه بفتح شون الأمراء فأمر بذلك، ووصل سعر الأردب إلى ٢٥ درهماً ثم ١٨ درهماً[٤]. وفي عهد العادل كتبغا عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٤م انخفض النيل ليبلغ أردب القمح مائة درهم، فأخرجت الغلال من شون الأمراء، وفرقت في المخابز[٥]. وبدخول عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م، عظم الجوع حتى أمر السلطان بجمع الفقراء، وذوى الحاجات، وفرقهم على الأمراء: "**فأرسل إلى أمير المائة مائة فقير**" وقد اختلف كل أمير من حيث نوعية الطعام سواء لحم بقر، أو كعك، أو رقاقاً؛ فخفف ما بالناس من الفقر[٦].

---

(١) السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٧٥، ١٧٦.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢١٣، ٢١٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص١٠٣؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص٥٠٦، ٥٠٨؛ الخطط، ج٣، ص٣٣٣،٣٣٤، ج٤، ص٩٦؛ السيوطى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٧٦؛ القرمانى، أخبار الأول، ص١٩٩؛ العينى، عقد الجمان، ص٣٧٦.

(٣) ابن تغري بردي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢١٤؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٥٠٨؛ الخطط، جـ٣، ص٣٣٤.

(٤) المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٧١٧، ٧١٨.

(٥) نفسه، ص٨١٠؛ الخطط، جـ٣، ص٣٨٨؛ السيوطى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٧٧؛ ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤١؛ القرمانى، المصدر السابق، ص٢٠٠، ٢٠١؛ ابن حبيب، تذكرة البنية، جـ١، ص١٧٨؛ المقريزى، إغاثة الأمة، ص٢٧؛ على مبارك، الخطط، جـ٧، ص٤٧ .

(٦) المقريزى، المصدر السابق، ص٢٨-٣٠؛ السلوك، جـ١ ق٣، ص٨١٤-٨١٥؛ ابن حبيب، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٨٤؛ ابن إياس، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٣٣؛ السيوطى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٧٧؛ على مبارك، المرجع السابق، نفس الجزء، ص٤٩ .

أما الناصر محمد، فقد أمر بالتسعير الجبري للقمح ليبلغ ٣٦ درهماً للأردب، ونودى بالقاهرة، ومصر "**من كان عنده غلة، ولا يبعها نُهبت**"(١). فإذا كان الفقراء أول من يشعرون بأي تغيير في أسعار الحبوب بالسوق فقد كان اعتمادهم على مدى استعداد النخبة، والحكام بصفة خاصة بإمدادهم بالطعام مجاناً، أو بسعر مخفض وقت الأزمات، وكما رأينا أن الحكام يضطرون للتدخل عدة مرات لمنع كارثة أثناء حالات نقص الطعام(٢) والملفت للنظر، أنه رغم تعرض المجتمع المصري عامة، والفقراء خاصة لأزمات المجاعات، والأوبئة في عهد بيبرس، وقلاوون، والناصر محمد، إلا أن المجتمع المصري لم يتشاءم منهم، ولم يقم بثورات ضدهم وربما يرجع ذلك لسببين:

أولاً: وقوف هؤلاء الحكام بجانب الشعب المصري وبخاصة الفقراء، والمحتاجين منهم وقت الأزمات.

ثانياً: احترام المجتمع المصري لأعمالهم بالإضافة لقوة شخصيتهم، وسيطرتهم على مقاليد الحكم، ودواوين السلطنة.

وعموماً لقد أيقن حكام ورجال السلطة في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي أنه لا قيمة لسلطة زمنية لا يسندها سند روحي، لذلك حرص الحكام تلك الفترة وبالأخص الظاهر بيبرس على الظهور كبطل شعبي يدافع عن الإسلام من فلول التتار وبقايا الصليبيين فهو قائد وحاكم من طراز خاص، وقد ظل طوال سبعة عشر عاماً وهي فترة حكمه في أن يمحو من أذهان شعبه صورة الغادر الذي لا عهد له بعد قتله سيف الدين قطز واغتصابه عرش مصر، من ناحية أخرى صبغ حكم هؤلاء (حكام- رجال سلطة) أمثال بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون بصبغة دينية يمكن لها بسط نفوذها وتدعيم حكمها وكواجهة دينية أمام الشعب المصري كبناء المؤسسات الدينية وإرساء مبدأ العدل كالنظر في المظالم ومساعدة الفقراء أثناء الأزمات.

أما بالنسبة للدور المعنوي للخروج من الأزمة، فقد تمثل في قيامهم بأداء صلاة الاستسقاء عندما كان يقل ماء النيل؛ فقد كانوا يفسرون الكوارث الطبيعية تفسيراً دينياً، وأخلاقياً، فيرجعون ذلك لغضب الله من جراء فساد الأخلاق، وانتشار الفسق، والفجور، وهنا يلجأ الناس بمختلف طبقاتهم للاستسقاء والصيام أحياناً، أو التجمع بالمساجد وقراءة القرآن، والدعاء حتى يرفع الله الغمة عنهم(٣).

(١) المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص٣٩٤-٣٩٦.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٢٢- ٢٤؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان، ص٢٢٣ لمزيد من التفاصيل انظر السيوطي ، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣١، ١٧٥- ١٧٧؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق ٣، ص ٧١٧، ٧١٨، ٨١٠، ج٢ ق٢، ص ٣٩٤، ٣٩٦.
(٣) النويري، نهاية الأرب، السفر الأول، ص ٣٥٥؛ ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص ٣٠؛ محمد عبد العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون، ص٢٠؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص٦٧-٦٩؛ دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٦٤، ١٦٥؛ عادل سليمان زيتون، ملامح من تاريخ الفلاح، ص٥٣٤.

ومثال ذلك: ما حدث عام ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م ، عندما توقف النيل عن الزيادة؛ فارتفعت الأسعار؛ فخاف الناس، وخرج بهم الخطيب نور الدين على بن محمد بن القسطلانى فاستسقى فزاد النيل ثلاثة أصابع حتى أوفى ففرحت العامة بذلك[١] بينما تقوم الدولة بمهاجمة أوكار الفساد، وبمجرد زوال الأزمة يرجع الأمر كما كان لأن تلك المظالم تدر ربحاً على الدولة كالمكوس، والضرائب ومهن الدعارة، والخمور، وغيرها بينما أخذت وسائل علاج الأزمة بشكل الصدقات، والإحسان لتوزيع الطعام على الفقراء، والمحتاجين، وإجراءات اقتصادية من جانب الدولة: كالتسعير، وإلزام الخبازين، والطحانين بفتح حوانيتهم في حين يظهر المحتسب ومعاونيه لمراقبة ذلك بينما لم تعرف الدولة الإجراءات العلاجية: كالتطعيم، وغيرها[٢].

ونرى دور المحتسب في مراقبة السوق كالنظر في القوت[٣]، فيطوف نوابه على أرباب المعايش، ويختم على قدورهم، وينظر المكاييل، والموازين ويعاقب المطففين، ويتم فحص الخبز فإذا ما ثبت أن وزنه أقل، سحب ووزع على الفقراء؛ وعوقب الخباز[٤] والطحان بعقوبات بدنية في حالة التسبب بأزمة، ويهددهم المحتسب بنهب محلاتهم بالإضافة لمنع احتكار الطعام، وغير ذلك من القيود التي تنشأ لصالح العامة، وفقراء المجتمع المصري[٥]. وعموماً، رغم إعانات السلطة الحاكمة للفقراء، إلا أنها لم تكن بالقدر الكافي لإصلاح أوضاعهم؛ لأن تلك الإعانات كانت غالباً في أوقات المجاعات والأوبئة أما في أوقات الرخاء، ووفاء الفيضان بحد الوفاء لم يكن نصيب الفقراء إلا الفتات كأوقات الأعياد والاحتفالات، في حين كانت موارد الدولة توجه معظمها للنفقات العسكرية، وإسراف رجال الدولة في كثير من الأحيان مثل: المواكب، والمبانى كالجوامع، وغير ذلك.

ولقد لعب العلماء بمصر دور هام في تلك الأزمات؛ فقد كانوا بمثابة جزء من السلطة الحاكمة من جهة، وسلطة معنوية كبرى لدى العامة من جهة أخرى، فوقفوا حائلاً بين العامة وفقرائها من جهة، وبين سطوة الحكام في بعض الأوقات من جهة أخرى، ومنهم من دافع عن مصالح الفقراء بكل

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٥٥.
(٢) قاسم عبده قاسم، النيل، ص٦٨، بتصرف، لمزيد من التفاصيل انظر، المقريزي الخطط، ج١، ص ١٧١، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٥٧٨، ٥٩٥- ٥٩٧؛ مجير الدين، الأنس الجليل، ج١، ص ٨٧ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ١٠٤.
(٣) السبكى، معيد النعم، ص٦٥، ٦٦.
(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٤٢؛ جوزيف بتس، رحلة ص٣٩.
(٥) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٦٢؛ حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية في مصر، ص٣٢٢، ٣٢٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٨١؛ على إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص٣٧٣؛ سهام مصطفى أبو زيد، الحسبة في مصر، ص٢٤١.

ما أوتى من قوة، وتمثل العلماء في هيئة القضاء؛ فاستطاع بعضهم أن يوجه مصائر الأمـور دون أن يسلك سلوكاً معيباً عن طريق المعارضة الساخرة للحكام غير مبالين ما يحيق بهم من عقاب.

فالعدل هو قدس الأقداس في محراب الجماعات الشعبية العربية، فخـلال القـرنين الـسادس، والسابع الهجريين، يمكن أن نتوقع كم كانت حاجة الناس إلى تحقيق حد أدنى من العدالة تـستقيم معـه مصالح العباد[١]. وقد أشار لنا السبكى لبعض مهام القاضى كتفيهم الحاكم الحكم الشرعي فيما ينهى إليه من الوقائع، وأن ذلك هو الدين الذي إن حاد عنه هلك، وإن سار عليه نجا وعليه أن يفعل ما ينجيه من موقف يوم القيامة حتى لو خير بين الحكم، وتركه فالترك مع الشك أفضل من الإقدام مع الشك[٢].

ففي عهد الكامل الأيوبي، صرف القاضي عماد الدين عبد الرحمن بن عبد العلى بن الـسكرى عن ولاية القضاء في محرم عام ٦١٣هـ / أبريل ١٢١٦م، لأنه طلب منه اقراضه جزء مـن مـال الأيتام فامتنع، وقد ولى بعده شرف الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن عين الدولة قضاء القـاهرة، والوجه البحرى؛ ثم اتفقت قضية شهد فيها الكامل عند ابن عين الدولة، وهو في ملكه فقال ابن عين الدولة السلطان يأمر، ولا يشهد، وذلك لأن المغنية عجيبة كانت تحضر له ليلاً؛ فشتمه الكامل بالفارسـية فقـال: اشهدوا أني عزلت نفسي؛ فنهض الكامل للقاضي، وأعاده خوفاً من إشاعة خبر عجيبة ببغداد[٣].

ويعتبر من أهم الشيوخ الذين وقفوا ضد السلطة الحاكمة لصالح الشعب، كان عز الدين بن عبد السلام: ففي عام ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م ، قدم إلى مصر، وقد أخرجه الصالح إسماعيل من دمشق فأكرمه الصالح نجم الدين أيوب، وقلده قضاء مصر، والوجه القبلي[٤]. وفي عـام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م بنـى غلمان بن الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ وزير الصالح بناء على سطح مسجد بمصر، فمـضى عز الدين، وهدم البناء، ثم أشهر قاضى القضاة على نفسه أنه أسقط شهادة الوزير معين الدين، وأنـه عزل نفسه من القضاء وقد وقف ضد أمراء الدولة في عهد الصالح نجم الـدين عنـدما زاد ظلمهـم؛ فتصدى لبيع أمراء الدولة بحكم أن حكم الرق يكون لصالح بيت المال؛ فغضب الأمراء، وصمم الشيخ على ذلك، فقال له النائب: فيم تصرف ثمننا فقال في مصالح المسلمين، وتم ما أراد، وغالى في ثمنهم، وصرف المال في وجوه الخير[٥].

---

(١) محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر، جـ١، ص١٠٨، ٨٢٠.
(٢) السبكى، معيد النعم، ص٥٦، ٥٨-٦٠.
(٣) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٠٨، ١٠٩.
(٤) المقريزي، السلوك، جـ١ ق٢، ص٣٠٨.
(٥) نفسه، ص٣١٢؛ السيوطى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٠٩،١١٠.

وفي عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م أراد قطز أن يأخذ من الناس شيئاً ليستعين به على قتال التتار؛ فعقد مجلساً لهذا، وفيه الأمراء، وبدر الدين السنجارى، والشيخ عز الدين، وكان الاعتماد على ما يقول بشأن ما يأخذ من مال الناس، وخلاصة هذا: إذا هاجم العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم، وجاز أخذ المال من الرعية شرط ألا يبقى في بيت المال شيء، "**وتبيعوا مالكم من الحوائص المذهبة ...، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال، والآلات الفاخرة فلا، وانفض المجلس على ذلك**"(١). لذا يعتبر الشيخ عز الدين بن عبد السلام واحداً من كثيرين ممن نصبوا أنفسهم للدفاع عن مصالح الشعب، والسهر على الأحكام الشرعية؛ ووقف في ذلك مواقف حاسمة إزاء السلطة الحاكمة، ولو أدى الأمر إلى عزلهم.

لدرجة أنه عندما توفى عام ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م قال بيبرس: "**لم يستقر ملكى إلا الساعة**"؛ فابن عبد السلام لو أمر الناس في شأني بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره؛ فقد كان السلطان يهاب من نفوذ هذا الشيخ عند العامة، وتهديده لسلطانه في البلاد فكان "**لا يخاف سطوة ملك ولا سلطان**"(٢).

وفي رمضان عام ٦٥٤هـ / سبتمبر ١٢٥٦م، تولى تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز قضاء مصر فظل يُعزل، ويُعين حتى توفى في رجب عام ٦٦٥هـ / مارس ١٢٦٦م(٣)، فمن ضمن المواقف: تقدم رسول أمير المدينة النبوية للسلطان، وأخبره رفض تاج الدين تسليم مبلغ ريع الوقف الذي تحت يده لصرفه في فقراء المدينة، فقال له السلطان: "**كيف رددت أمرى؟**" فقال: "**لا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق في دينه، وأمانته ...، فقال السلطان لا تدفعه إلا لمن تختاره**"(٤). فكان يقف عندما يره ويرجع إليه في أمور كثيرة(٥). وفي عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م، أراد بيبرس أن يحجر على أملاك بعض الناس، وطلب من ابن عطاء قاضى قضاة الحنيفية الحكم بصحة ذلك شرعاً؛ فثار القاضى وقال: هذه الأملاك بيد أصحابها، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها ،ثم نهض من المجلس، فغضب السلطان، ولكنه أعجب بموقفه، وقال لا تثبتوا كتبا إلا عنه(٦).

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٧٣؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص٤١٦، ٤١٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص٩٤-٩٥؛ العيني، عقد الجمان، ص٢١٨، ٢١٩؛ السبكى، معيد النعم، ص٥١؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ج٣، ص٤٠؛ تاريخ الخلفاء، ص٤٧٥؛ عبد الله الشرقاوى، تحفة الناظرين، ص٩٧، ص٩٨.
(٢) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ٢١٦؛ عز الدين ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٨٣ هامش (٣)؛ حسن أحمد عبد الجليل، المعممون ودورهم في مصر، ص١٣٢.
(٣) عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٣٥؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ج٣، ص١١١.
(٤) المقريزى، المصدر السابق، نفس الجزء ، ص٥٣٩؛ ابن الملقن، نزهة النظار، ص ١٤، ١٥.
(٥) عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٧٤ .
(٦) نفسه، ص ٢٣٦؛ حسن أحمد عبد الجليل، المرجع السابق، ص١٣٦، ١٣٧؛ نظير حسان، صور ومظالم، ص١١٠.

وعندما خرج الظاهر بيبرس لقتال التتار بالشام، أخذ فتاوى العلماء بجواز أخذ مال من الرعية ليستنصر به، فأجاز الكل إلا محيي الدين النووي، فقال له ما سبب امتناعك فقال: علمت أن عندك ألف مملوك ولهم الكثير من الذهب، ولك مائتا جارية "**فإذا أنفقت ذلك كله ... أفتيك بأخذ المال من الرعية**"، فطرده الظاهر من دمشق، ثم أمر برجوعة فقال لا أدخلها، والظاهر بها، فمات بعد شهر(١). ومع ذلك كان إذا وفد عليه المشايخ والعلماء يرفع من أقدارهم مما يدل على دماثة أخلاقه(٢). وربما كان اهتمام بيبرس بالقضاة واحترامه لهم لهذا الحد إنما يرجع لرغبته لإضفاء الشرعية على حكمه من ناحية وإرساء مبدأ العدالة في دولته من ناحية أخرى ومدى علمه بتأثير هؤلاء العلماء والمشايخ على المجتمع المصري بكافة طبقاته وإمكانهم بتقليبهم عليه.

وعندما تولى الوزارة ابن السعلوس، عزل تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز عن القضاء، ثم عاد، وطلب منه تعيين نجم الدين بن عطايا في أحد الوظائف؛ فرفض طلبه. وفي عهد سلطنة الخليل بن قلاوون لمصر، حرض عليه بعض الناس بالشهادة ضده في عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م بالفسوق، والنصرانية وغير ذلك فأمر السلطان أن يركب حماراً ويشهر، فحزن الأمراء، وقالوا للسلطان: "**إما تهبه لنا، وإما تمكنا من ابن السعلوس، وإما أن تنفينا**" فلزم داره وعزل من وظائفه(٣)، وقد أفرج عنه في أول رمضان عام ٦٩٢هـ / أغسطس ١٢٩٢م، وقد ثبت براءته مما رمى به(٤).

ومن أبرز قضاة مصر، كان تقى الدين محمد بن دقيق العيد المولود في ١٥ شعبان عام ٦٢٥هـ / يوليو ١٢٢٧م، وولى القضاء بعد وفاة ابن بنت الأعز عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م وهو مثال للعدل ونصرة الحق، فقد خرج في حاجة لشخص إلى مستوفى نصرانى، فخرج له حافياً لاستقباله، وقال: لما لم ترسل خلفى، وأنا أحضر عندك، فقال الشيخ: هذا الرجل فقير، وعجز في الراتب فقال المستوفى يا سيدى أمحو اسمه الآن(٥). وعندما انهزم المماليك من غازان ملك التتار في عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م حاول السلطان أخذ فتوى من الفقهاء بأخذ مال من الرعية؛ لينفقه على قتال غازان فرفض العلماء، وعلى رأسهم القاضى تقى الدين، فشق هذا على سلار نائب السلطنة، واجتمع معه، وأراد

(١) السيوطى، حسن المحاضرة، ج ٢، ص٧٩، ٨٠، لمزيد من التفاصيل، عز الدين ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٨٦.
(٢) عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٧٥ .
(٣) ابن حجر العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر، (ق١، تحقيق حامد عبد المجيد، محمد مهدي، محمد الصاوي، الطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م)، ص ٢٢٣؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٧٧١، ٧٧٢؛ ابن الملقن، نزهة النظار، ص ١٧، ٢٥، ٢٦ .
(٤) المقريزي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٧٨٥؛ ابن الملقن، المصدر السابق، ص ٢٧.
(٥) على إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص٣٦٣؛ حسن أحمد عبد الجليل، المعممين ودورهم في مصر، ص١٥٣، ١٥٤.

الفتوى منه فامتنع، وكان الاستشهاد بفتوى ابن عبد السلام مع الملك قطز، فطلب ناصر الدين متـولى القاهرة بالنظر في أموال التجار، ومياسير الناس، وأخذ ما تقر عليه كل منهم بحسب حاله[١].

فلم يفرق ابن دقيق في عدله بين الرعية بين مسلم وذمى، وقد امتدت أيدي العامـة إلـى كنـائس اليهود، والنصارى، فهدموها بفتوى الشيخ نجم الدين أحمد بن الرفعة، وقد امتنع تقى الدين من تلك الفتوى بحجة عدم وجود بينه تدل على حدوثها في الإسلام (تهدم الكنائس)، ووافقه القضاة على ذلك فظـل فـي منصب قاضى القضاة يحمى الرعية من ظلم السلطة الحاكمة حتى توفى في عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م[٢]. وفي عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م، استدعى السلطان الوزير شمس الدين سنقر، والشيخى والى القاهرة، وأمـر باستخراج الأموال من الناس، وحمل المال تحت القلعة بدار العدل وبلغت مائة ألف دينار فنـزل بالنـاس ضرر عليهم، وطلب من شهود القاهرة، ومصر الجالسين بالحوانيت ٤٠ ديناراً من كل عقار، و٢٠ من كل شاهد؛ فقام في أمرهم قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف، والمالكى حتى أعفوا منه[٣].

وقد يتسائل البعض كيف كان دور هؤلاء العلماء في مساعدة الفقراء؟

وللإجابة على السؤال: يجب أن نشير إلى أن الشعب المصري بصفة عامة والفقـراء بـصفة خاصة قد عاشوا بمعزل عن السلطة الحاكمة (الحكام ومعاوينهم)، ولا يربطهم بهم سوى مـا يفـرض عليهم من ضرائب، أو أحداث الشغب التي تعقب الأزمات، أو الصراعات الداخليـة بـين الأمـراء، والحاكم، وأكثر من تأثروا بهذا من الشعب المصري هم الفقراء، فقد كان الشعب المـصري بالنـسبة للحاكم مورد اقتصادي هام يملأ الخزانة من خلال الرسوم، والضرائب وقت الرخاء، ووقت ما تكـون الخزانة خاوية، أو وقت الغزوات، والحروب أما الشعب بالنسبة للحاكم وقت الأزمـات: كالمجاعـات والأوبئة كانوا نقمة عليه لما تفرضه الأزمات من متطلبات، وإعانات لتفادى تلك الأزمات، وخوفاً مـن حدوث الثورات، والانتفاضات.

لذا فقد كانت شجاعة هؤلاء القضاة العلماء سبباً في رفع الظلم عن العامة والفقـراء، بطريـق مباشر بوقف مهزلة استخراج الأموال من الناس من أجل الحروب وعندهم ما يكفيهم ويكفي حروبهم، وبطريق غير مباشر بإقامة العدل والحد من فساد السلطة وظلمها، فرغم استبداد السلطة الحاكمة فـي كثير من الأحيان إلا أنهم كانوا يخشون غضب العلماء لعلمهم مدى ارتباطهم بوجدان الشعب، والعامـة وبالأخص الضعفاء، والمحتاجين منهم، ومثل هؤلاء عز بن عبد السلام، ابن بنت الأعز، وغيرهم.

(١) المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٨٤٨، ٨٤٩.
(٢) نفسه، ص٩١٢؛ على إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص٣٦٤؛ حسن أحمد عبد الجليل، المعممون ودورهم، ص١٧٧.
(٣) المقريزى، المصدر السابق، نفس الجزء، ص٩٠٦، ٩٠٧.

الخاتمة

الخاتمة

والآن وبعد هذا العرض السريع والبسيط لفقراء القاهرة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين فقد أوضحت تلك الدراسة عدداً من النتائج نعرض لها بإيجاز.

- ظهور نهر النيل كعامل أساسي في انتشار الفقر من خلال تذبذب مياهه سواء انخفض منسوبه أو ارتفع عن الحد.
- ظهر واضحاً تخاذل السلطة الحاكمة ورجالها في كثير من المواقف خلال تلك الفترة؛ من خلال الفساد المتفشي في كل الإدارات، مما أدى لوقوع المصريين في براثن الفقر.
- كان لشيوع النظام الإقطاعي أن أوجد نوع من استنفار كثير من شرائح المجتمع المصرى؛ وظهر واضحاً مجهودهم هباء لمتخذى القرار وصانعيه، فأفقدهم الرغبة في الحفاظ على مستوى الزراعة؛ لإحساسهم أن مجهودهم لغيرهم.
- اتضح أن أكبر تجمع للفقراء كان أولاً بالفسطاط، ثم أصبحت القاهرة مركزاً لهم بعد إتاحة صلاح الدين السكن بها؛ وظهر هذا فيما بعد ابتلاعها للفسطاط وظهر ذلك واضحاً في الأسواق والأحياء الشعبية كحي الحسينية وباب اللوق وبولاق، وحتى القرافة لم تخلو منهم.
- حاولت الدراسة التوغل في قلوب الفقراء من خلال حياتهم الخاصة، سواء في المأكل أو الملبس أو المسكن وحتى الأجور، وإظهار مدى معاناتهم في الحصول على أبسط سبل الحياة؛ في حين أن غيرهم يعيشون في رغد ورفاهية مستنفرة من الجميع.
- بحثت الدراسة عن مكانة الفقراء الاجتماعية والتي أظهرت انعدامهم بشكل كبير؛ لدرجة نفور بقية الطبقات من التعامل معهم لا سيما في أضيق الحدود ليتضح أنهم أدنى شرائح المجتمع؛ فإن أجيز قول أن طبقة العامة هي أقل فئات المجتمع المصري فالفقراء هم أقل شريحة بتلك الطبقة.
- هجرة العديد من فقراء أهل الفسطاط للقاهرة أثناء عهد صلاح الدين لسماحه لهم بذلك، وكذلك هجرة كثير من فلاحي القرى كملجأ لهم من سطوة السلطة الحاكمة عليهم، وظهر أن انضمامهم في كثير من الأحيان للطبقات الصوفية أفضل بكثير من العيش في ظل ظلم الفئة الإدارية؛ حيث فضل البعض منهم حرية مقيدة مع توفير سبل الحياة أفضل من حرية زائفة بمظاهر خادعة وفساد قاتل.
- أظهرت الدراسة مهن وحرف الفقراء المتعددة مثل قيام النشاط الاقتصادي، والتجاري على أكتاف هؤلاء البسطاء بمهنهم البسيطة والتي سماها البعض الدنيئة.

الخاتمة

والآن وبعد هذا العرض السريع والبسيط لفقراء القاهرة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين فقد أوضحت تلك الدراسة عدداً من النتائج نعرض لها بإيجاز.

- ظهور نهر النيل كعامل أساسي في انتشار الفقر من خلال تذبذب مياهه سواء انخفض منسوبه أو ارتفع عن الحد.
- ظهر واضحاً تخاذل السلطة الحاكمة ورجالها في كثير من المواقف خلال تلك الفترة؛ من خلال الفساد المتفشي في كل الإدارات، مما أدى لوقوع المصريين في براثن الفقر.
- كان لشيوع النظام الإقطاعي أن أوجد نوع من استنفار كثير من شرائح المجتمع المصرى؛ وظهر واضحاً مجهودهم هباء لمتخذى القرار وصانعيه، فأفقدهم الرغبة في الحفاظ على مستوى الزراعة؛ لإحساسهم أن مجهودهم لغيرهم.
- اتضح أن أكبر تجمع للفقراء كان أولاً بالفسطاط، ثم أصبحت القاهرة مركزاً لهم بعد إتاحة صلاح الدين السكن بها؛ وظهر هذا فيما بعد ابتلاعها للفسطاط وظهر ذلك واضحاً في الأسواق والأحياء الشعبية كحي الحسينية وباب اللوق وبولاق، وحتى القرافة لم تخلو منهم.
- حاولت الدراسة التوغل في قلوب الفقراء من خلال حياتهم الخاصة، سواء في المأكل أو الملبس أو المسكن وحتى الأجور، وإظهار مدى معاناتهم في الحصول على أبسط سبل الحياة؛ في حين أن غيرهم يعيشون في رغد ورفاهية مستنفرة من الجميع.
- بحثت الدراسة عن مكانة الفقراء الاجتماعية والتي أظهرت انعدامهم بشكل كبير؛ لدرجة نفور بقية الطبقات من التعامل معهم لا سيما في أضيق الحدود ليتضح أنهم أدنى شرائح المجتمع؛ فإن أجيز قول أن طبقة العامة هي أقل فئات المجتمع المصري فالفقراء هم أقل شريحة بتلك الطبقة.
- هجرة العديد من فقراء أهل الفسطاط للقاهرة أثناء عهد صلاح الدين لسماحه لهم بذلك، وكذلك هجرة كثير من فلاحي القرى كملجأ لهم من سطوة السلطة الحاكمة عليهم، وظهر أن انضمامهم في كثير من الأحيان للطبقات الصوفية أفضل بكثير من العيش في ظل ظلم الفئة الإدارية؛ حيث فضل البعض منهم حرية مقيدة مع توفير سبل الحياة أفضل من حرية زائفة بمظاهر خادعة وفساد قاتل.
- أظهرت الدراسة مهن وحرف الفقراء المتعددة مثل قيام النشاط الاقتصادي، والتجاري على أكتاف هؤلاء البسطاء بمهنهم البسيطة والتي سماها البعض الدنيئة.

- تأثرهم (الفقراء) بالمجاعات والأوبئة لدرجة جعلت البعض منهم يأكل لحوم القطط والكلاب وغيرها؛ مما أثار نفور الرحالة والمؤرخين المعاصرين، وبالرغم من رائحة المبالغة التي تفوح من تلك الروايات إلا أنها دليل على مدى تأثر الشعب بتلك المجاعات والأوبئة.
- ولا نغفل دور الوقف في حياة الفقراء حيث كان بمثابة المنقذ لهم في كثير من الحالات مما هم فيه، بالإضافة لإعانات وصدقات النخبة من رجال الدولة والأثرياء فكانت ظروف الفقراء موضع عطف لهم.
- أوضحت الدراسة من خلال الفصل الأخير دور الفقراء في التعبير عن سخطهم أثناء الأزمات؛ فكانوا يقومون بالثورات واعتراض طريق الحكام، وعندما يعجزوا عن العبور بالأزمة كانوا يلجأون للتخريب بل وخطف الخبز من الأفران. بالإضافة إلى الاعتراض السلبي عن طريق الثورات الكلامية بالأمثال العامية والشعر وغيرها؛ فزادت بذلك كراهية الفقراء لبعض الحكام، ومع ذلك كان لهم دور آخر مع بعض الحكام ومساندتهم بشكل واضح حيث بيّن مدى تأثرهم بالمجتمع وتأثيرهم فيه، مما يعني أنهم جزء لا يمكن إغفاله وعلى أكتافهم يخلد حكام أو يصبحوا مجرد حكام .
- على جانب آخر اتخذت السلطة الحاكمة مواقف شتى لمساعدة الفقراء أثناء الأزمات وكان ذلك في اتجاهين، الاتجاه الأول: هو مساعدة الحكام والنخبة العسكرية أثناء الأزمات الاقتصادية كالمجاعات والأوبئة فى تلك الفترة، وظهر ذلك من خلال بعضهم مثل صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس، والناصر محمد بن قلاوون؛ أما الاتجاه الآخر فكان وقوف رجال القضاء أمام سطوة وظلم رجال السلطة الحاكمة مثل وقوف عز الدين بن عبد السلام أما المظفر قطز أثناء رغبته في جمع المال لمحاربة التتار وقد سار على نهجه كثيرون في مواقف عدة.
- ظهر واضحاً أن هدوء الشعب المصري وخصوصا الفقراء في كثير من فترات الظلم الذي مارسه حكامهم ومعاونوهم ليس ضعفا بقدر ما هو تجميع لقواهم حتى تكون ثورتهم طاغية على كل فاسد وظالم.
- وأخيراً يرجو الباحث بعد هذا العرض السريع أن يكون قد وفق في رسم لوحة متكاملة الأبعاد واضحة المعالم ومتناسقة الألوان لكثير من الموضوعات ذات الأثر الهام عن وضع الفقراء في العصور الوسطى في تلك الحقبة الثرية من تاريخها.

فأسأل الله أن أكون قد وفقت في إيضاح ما لم يكن واضحاً وزيادة ما كان واضحاً

قائمة المصادر والمراجع

❖ ابن إياس: (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري، ت ٩٣٠هـ)، كتاب تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، الطبعة الأولى، بولاق، (القاهرة)، ١٣١١هـ.
❖ ابن بطوطة: (عبد الله بن محمد بن عبد الله اللواتي، ت ٧٧٩هـ)، رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزءان، ط الثانية، طبعة مصر، (القاهرة) ١٣٢٢هـ.
  ○ مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تهذيب أحمد العوامي ومحمد أحمد جاد المولى، جزءان، المطبعة الأميرية، (القاهرة)، ١٩٣٣م.
❖ البغدادي: (عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، ت ٦٢٩هـ)، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، الطبعة الثانية، الألف كتاب الثاني، ع ٣١٤، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٨م.
❖ بكبريت: (محمد بن عبد الله الشهير بكبريت)، رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد طنطاوي، الطبعة الأولى، ١٩٢٣م.
❖ البلازي: (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، ت ٢٨٩هـ)، فتوح البلدان، الجزء الأول، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٥٦م.
❖ بيبرس المنصوري: (ركن الدين بيبرس بن عبد الله، ت ٧٢٥هـ)، (نائب السلطنة في مصر)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، الجزء التاسع، (القاهرة)، بدون.
  ○ التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.
❖ ابن تيمية: (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، ت ٨٢٨هـ)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، الطبعة الثانية، المطبعة السلفية، (القاهرة)، ١٣٩٩هـ.
❖ ابن تغري بردي: (جمال الدين ابي المحاسن، يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، الأجزاء ٦، ٧، ٨، ١٥، دار الكتب المصرية، (القاهرة)، ١٩٣٨م.
❖ بنيامين، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزراحداد، دراسة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المجتمع الثقافي، دار العلوم، (الإمارات)، ٢٠٠٢م.
❖ ابن جبير: (أبي الحسن محمد بن أحمد الكناني)، (١١٤٥– ١٢١٧م)، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ: رحلة ابن جبير، ضبطه محمد زينهم محمد

عزب، ذخائر العرب، ع ٧٧، دار المعارف، (القاهرة)، ٢٠٠٠م، الطبعة الثانية، دار الهلال، بيروت- (لبنان)، ١٩٨٦م.

- الجزيرى: (عبد القادر محمد الجزيري الأنصاري،ت ٩٧٧هـ/١٥٧٠م)، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، المطبعة السلفية، (القاهرة)، ١٣٨٤هـ.
- ابن جماعة الحموي: (بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي، ت ٧٣٣هـ)، مستند الأجناد في آلات الجهاد ومختصر في فضل الجهاد، تحقيق أسامة ناصر النقشبندي، منشورات وزارة الثقافة، دار الحرية، بغداد (العراق)، ١٩٨٣م.
- ابن الجوزي: (الحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، ت ٥٩٧هـ)، تلبيس إبليس، دراسة السيد الجميلي، دار المعارف، (القاهرة)، ١٩٨٨م.
  - مختصر منهاج القاصدين، ب. ت.
- جوزيف بتس: (رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة ١٦٨٠م)، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، سلسلة الألف كتاب الثاني، ع ١٨٩، الهيئة العامة للكتاب ، (القاهرة)، ١٩٩٥م.
- الجوهري: (إسماعيل بن حماد) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (الجزء الثاني، تحقيق أحمد عبد الغفور، نشره السيد حسن شربتلي)، الكتاب العربي، (القاهرة)، بدون.
- ابن الجيعان: (شرف الدين يحيى، معاصر للسلطان قايتباي)، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، تحقيق مورتز، (القاهرة)، ١٩٧٤م.
- ابن الحاج: (أبو عبد الله بن محمد بن محمد العبدري الفاس المالكي، ت ٧٣٧هـ)، المدخل إلى الشرع الشريف، الطبعة الأولى، جزآن، المطبعة المصرية بالأزهر، (القاهرة)، ١٩٢٩م.
- ابن حبيب: (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر، ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، تذكرة، البنية في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، راجعه سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء الأول، حوادث وتراجم (٦٧٨- ٧٠٨هـ/ ١٢٧٩- ١٣٠٨م)، دار الكتب، (القاهرة)، ١٩٧٦م.
- ابن حجر: (شهاب الدين أبو العباس أحمد العسقلاني، ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تصحيح سالم الكونكوي، الجزء الأول، الجيل، بيروت- (لبنان)، ١٩٩٣م.
  - رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، محمد المهدي أبو سنة، محمد إسماعيل الصاوي، مراجعة إبراهيم الإبياري، الطبعة الأميرية، (القاهرة)، ١٩٥٧م.
- الحموي: (محمد بن أبي بكر بن داود بن عبد الرحمن بن عبد الخالق بن عبد الخالق بن عبد الرحمن العلواني الحموي الدمشقي، ت ١٠١٦هـ)، رحلة حادي الأظعان النجدية إلى الديار

المصرية، تحقيق محمد عدنان البخيت، الطبعة الأولى، منشورات جامعة مؤتة، (الأردن)، ١٩٩٣م.

- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ت ٨٠٨هـ)، مقدمة ابن خلدون، اختيار رضوان إبراهيم، مراجعة أحمد زكي، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب، (القاهرة)، ١٩٦٠م.
  - التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، تقديم عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر، ع ١٠٠، هيئة قصور الثقافة، (القاهرة)، ٢٠٠٣م.
  - .تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، قدمها عبادة كحيلة، سبع أجزاء،ع ١٥٣-١٥٩، الذخائر، هيئة قصور الثقافة، (القاهرة)، ٢٠٠٧.
- ابن دانيال، خيال الظل، تحقيق إبراهيم حمادة، الطبعة الثانية، الدراسات الشعبية، ع ٣٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (القاهرة)، ١٩٩٨م.
- الزبيدي: (محمد مرتضى)، تاج العروس من جواهر القاموس، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، دار مكتبة الحياة، بيروت- (لبنان)، ١٣٠٦هـ.
- ابن زولاق، فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق علي محمد عمر، الطبعة الثانية، الخانجي، (القاهرة)، ٢٠٠٠م.
- الرازي: (زين الدين محمد بن أبي بكر ابن عبد القادر، ت بعد ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، الطبعة الأولى، دار السلام، (القاهرة)، ٢٠٠٧م.
- السبكي: (تاج الدين عبد الوهاب، ت ٧٧١هـ)، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، الطبعة الثالثة، الخانكي، (القاهرة)، ١٩٩٦م.
- ابن سعيد: (أبو الحسن علي الأندلسي، ت ٦٨٥هـ/ ١٢٧٤م)، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة، تحقيق حسين نصار، دار الكتب، (القاهرة)، ١٩٧٠م.
  - المغرب في حلى المغرب، القسم خاص بمصر، الجزء الأول، تحقيق زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيدة كاشف، سلسلة الذخائر، ع ٨٩، هيئة قصورالثقافة، (القاهرة)، ٢٠٠٣.
- ابن السيدة: (أبو الحسن علي بن اسماعيل، ت ٤٥٨هـ)، المخصص، الجزء، ١٣، بولاق، (القاهرة)، ١٣٢١هـ.
- السيوطي: (الإمام الحافظ جلال الدين بن أبي سعيد سيدي عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت٩١١هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان، طبعة الموسوعات، (القاهرة)، ١٣٢١هـ

- o كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة، تحقيق محمد الشتاوي، دار الآفاق العربية، (القاهرة)، ٢٠٠٢م.
- o تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، الفجالة، (القاهرة)، ١٩٦٩م.

❖ السهرودي: (أبو حفص السهرودي، ت ٦٣٢هـ)، عوارف المعارف،الدارالقومية، (القاهرة)، ١٩٧٣م.

❖ أبو شامة: (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول- القسم الثاني، س تراثنا، ع ٢٣٢، ضمن الموسوعة المصرية العامة، (القاهرة) ١٩٦٢.

- o تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين والمعروف بالذيل على الروضتين، صححه محمد زاهد الكوثري، السيد عزت العطار، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت، (لبنان)، ١٩٧٤م.

❖ ابن شاهين: (غرس الدين بن شاهين الظاهري، ت٨٢٧هـ)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق محمة بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م.

❖ الشربينى: (يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر)، هز القحوف في شرح قصيدة أبى شادوف، طبعة بولاق، (القاهرة)، ١٢٧٤هـ.

❖ الشرقاوي: (عبد الله الشرقاوي، ت ١٧٩٨م)، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق رحاب عبد الحميد، صفحات من تاريخ مصر، ع ٣٣، مدبولي، (القاهرة)، ١٩٩٦م.

❖ ابن شداد: (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م)، سيرة صلاح الدين أو النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، س ذخائر، ع ٨٢، هيئة قصور الثقافة، (القاهرة)، ١٩٦٤م.

❖ ابن شداد: (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، ت ٦٨٤هـ)، كتاب تاريخ الملك الظاهر بيبرس، تحقيق أحمد حطيط، الذخائر، ع ١٩٠، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (القاهرة).

❖ الشيرزي: (عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله بن محمد الشيرزي الشافعي، ت ٥٨٩هـ)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره السيد الباز العريني، إشراف محمد مصطفى زيادة، (القاهرة)، ١٩٤٦م.

❖ أبي الصلت: (أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي، ت ٥٢٨هـ)، الرسالة المصرية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ضمن نوادر المخطوطات، الجزء الأول، الطبعة الثانية، (القاهرة)، ١٩٨٢م.

❖ الصيرفي: (الخطيب الجوهري علي بن داود، ت ٩٠٠هـ)، أبناء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، (القاهرة)، ٢٠٠٢.

❖ طافور: (بيروطافور)، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة: حسن حبشي، المعارف، (القاهرة)، ١٩٦٨م.

❖ ابن طباطبا: (محمد بن علي طباطبا المعروف بابن الطقاطقا)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت- (لبنان)، بدون.

❖ الطرطوشي: (أبي بكر محمد بن محمد ابن الوليد القهري الطرطوشي المالكي، ت ٥٢٠هـ)، سراج الملوك، الطبعة الأولى، (القاهرة)، ١٣٠٦هـ.

❖ ابن طلحة القرشي: (أبو سالم محمد، ت٦٥٢هـ) ، العقد الفريد للملك السعيد تحقيق عبد الهادي موسى، (القاهرة)، ١٣١٠هـ.

❖ الطوسي: (أبي نصر السراج)، اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب، (القاهرة)، ١٩٦٠م.

❖ ابن ظهيرة:(غيرمعروف بالتحديد)،الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، دار الكتب، (القاهرة)، ١٩٦٩م.

❖ العبدري: (أبي عبد الله محمد بن سعود، ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم الكردي، الطبعة الأولى، (دمشق)، ١٩٩٩م.

❖ ابن عبد الحكم:(عبدالرحمن بن عبدالله، ت٢٥٧هـ)، فتوح مصر وأخبارها، طبعة (لندن)، ١٩٢٠م.

❖ ابن عبد ربه: (أبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى)، العقد الفريد، جـ الثاني، طبعة لجنة التأليف والنشر، (القاهرة)، ١٩٤٠م.

❖ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخوطير، الطبعة الأولى، (الرياض)، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

❖ عمارة اليمنى: (نجم الدين أبي محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي، ت٥٦٩هـ) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، نشره هرتويغ درنبرغ، مطبعة مرسو،(شالون)، ١٨٩٧م.

- العمري: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلي القرشي المصري العمري، ت ٧٤٩هـ)، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في الحيوان والنبات والمعادن، الطبعة الثانية، مدبولي، (القاهرة)، ١٩٩٦م.
  - التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي، الطبعة الأولى، منشورات جامعة مؤتة، (الأردن)، ١٩٩٢م.
- العيني: (بدر الدين محمود، ت ٨٥٥هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الجزء الأول ،الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٨٧م.
- الغزالي: (أبي حامد محمد بن محمد، ت ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، خمسة أجزاء، دار الصابونى،(القاهرة)، بدون.
- فتح الله: (ابن مولانا أبي بكر بناني)، عقد الدر واللآل في بيان فضل الفقير والفقراء وفضيلة السؤال، الطبعة الأولى، (القاهرة)، ٢٠٠٤م.
- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت- (لبنان)، ١٩٩٧م.
- القرماني: (أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي، ت ٩٢٩هـ ١٠١٩هـ)، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، نشرة محمد أمين، دار السداد، (بغداد)، ١٢٨٢هـ.
- القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود،ت٦٨٢هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، الجزء الأول، الطبعة، الأولى، هيئة قصور الثقافة، (القاهرة)، ٢٠٠٣م.
- القشيري: (الإمام أبي القاسم عبد الكريم ابن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري النيابوري الشافعي، ت ٤٦٥هـ)، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحكيم محمود ومحمود بن الشريف، الجزء الثاني، دار الكتب، (القاهرة)، بدون.
- القلقشندي: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، (القاهرة)، ١٩١٣م.
- ابن كثير: (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، الجزء ١٣، الطبعة السادسة، بيروت- (لبنان)، ٢٠٠١م.
- ابن الكندي، فضائل مصر المحروسة، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الأسرة، (القاهرة)، ١٩٩٧م.
- ابن المأمون: (الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي، ت ٥٨٨هـ)، نصوص من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي، (القاهرة)، ١٩٨٣م.
- الماوردي: (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، ت ٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (القاهرة)، ١٩٧٣.

- ❖ مجير الدين: (أبو اليمن مجير الدين الحنبلي)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول والثاني، المحتسب، عمان- الأردن، دار الجيل، بيروت- (لبنان)، ١٩٧٣م.
- ❖ محيي الدين بن عربي: (أبو بكر محي الدين بن محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاكمي، ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٣م)، شرح معجم اصطلاحات الصوفية، شرح سعيد هارون عاشور، الطبعة الأولى، الآداب (القاهرة)، ٢٠٠٤م.
- ❖ المسعودي:(أبوالحسن على الحسين، ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، المطبعة الأزهرية، (القاهرة)، ١٣٠٣هـ.
- ❖ المقدسي: (أبو حامد المقدسي الشافعي)، الفوائد النفيسة الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة، تحقيق آمال العمري، مشروع المائة كتاب، ع ١٠، طبعة هيئة الآثار، (القاهرة)، ١٩٨٨م.
- ❖ المقدسي: (أبو عبد الله بن محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثالثة، مدبولي، (القاهرة)، ١٩٩١م.
- ❖ المقدسي: (أبي زيد أحمد بن سهل البلخي بن طاهر المقدسي، ت ٥٠٧ هـ)، البدء والتاريخ، المجلد الثاني، الثقافة الدينية، (القاهرة)، بدون.
- ❖ المقدسي: (عز الدين المقدسي، ت ٨٢٠هـ)، المفاخرة الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، تحقيق محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، (القاهرة)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- ❖ المقريزي: (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق ياسر سيد صالحين، الآداب، (القاهرة)، ١٩٩٩م.
  - ○ السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول والثاني، دار الكتب، (القاهرة)، ١٩٤٣م.
  - ○ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،الجزء الثالث، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث، (القاهرة)، ١٩٦٧م، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (القاهرة)، ١٩٧٣م.
  - ○ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، جزئين، مكتبة الآداب، (القاهرة)، ١٩٩٦م.
- ❖ ابن الملقن: (عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله سراج أبو حفص الأندلسي المصري ابن الملقن، ت ٨٠٤هـ)، نزهة النظار في قضاة الأمصار، تحقيق مديحة محمد الشرقاوي، الثقافة الدينية، (القاهرة)، ١٩٩٦م.
- ❖ مؤلف مجهول:(كتب عام ٣٧٢هـ)،حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق يوسف الهادي، الطبعة الأولى،الدارالثقافية للنشر، (القاهرة)، ١٩٩٩م.

- ابن مماتي: (الأسعد بن المهذب بن أبي مليح، ت ٦٠٦هـ)، قوانين الدواوين، ترجمة عزيز سوريال عطية، مدبولي، (القاهرة)، ١٩٩١م.
- ابن منظور: (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ٦٣٠- ٧١١هـ)، لسان العرب، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت- (لبنان)، ١٩٩٢م.
  - لسان العرب، الجزء ١٢، تراثنا، بولاق، (القاهرة)، بدون.
  - تهذيب لسان العرب، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- (لبنان)، ١٩٩٣م.
- النابلسي: (أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي، ت ٦٦٠هـ)، تاريخ الفيوم وبلاده، دار الجيل، بيروت- (لبنان)، ١٩٧٤م.
- ناصر خسرو علوي، رحلة سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، تقديم عبد الوهاب عزام، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٣م.
- النويري: (شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب، ت ٦٧٧، ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول، دار الكتب، (القاهرة)، ١٩٧٦م.
- الهجويري، كشف المحجوب، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، ج٢، الكتاب ٢١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (القاهرة) ، ١٩٧٥م.
- ابن واصل: (جمال الدين محمد بن سالم ابن واصل، ت ٦٩٧ هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، الجزء الثاني، عصر صلاح الدين، الطبعة الأميرية، (القاهرة)، ١٩٥٧م.
- ابن الوردي: (زين الدين عمر بن مصطفى بن عمر بن الوردي، ت ٧٥٠هـ)، تاريخ بن الوردي، الجزء الثاني، (القاهرة)، ١٢٨٥هـ.
- ابن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان الزياتي، ت١٥٥٢م) المشهور بـ/ جان ليون الأفريقي، وصف إفريقيا ترجمة عبد الرحمن حميدة، راجعه علي عبد الواحد، مكتبة الأسرة، (القاهرة)، ٢٠٠٥م.
- ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبي عبد الله، ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- (لبنان)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٣) قائمة المراجع:

- ❖ إبراهيم أحمد شعلان: الشعب المصري في أمثاله العامية، الدراسات الشعبية، ع٧٨- ٨٨، هيئة قصور الثقافة ، (القاهرة)، ٢٠٠٤م.
- ❖ إبراهيم على طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢- ١٥١٧م)، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٦٠م.
- ❖ أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية (مشروحة ومرتبة حسب الحرف الأول من المثال مع كشاف موضوعي)، الطبعة الرابعة، (القاهرة)، ١٩٨٦م.
- ❖ أحمد رشدى صالح: الأدب الشعبى، ط الثانية، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٥٥م.
- ❖ أحمد عبد الجواد الرومي: صلاح الدين الأيوبي (الناصر لدين الله)، الطبعة الثانية، المكتبة العصرية، صيدا-(بيروت)، بدون.
- ❖ أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي، الطبعة الثانية، دار المعارف، (القاهرة)، ١٩٩٢م.
- ❖ أحمد عبد الرازق أحمد: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٧٩م.
- ❖ تاريخ وآثار مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، (القاهرة)، ١٩٩٩م.
  - o المرأة في مصر المملوكية، س تاريخ المصريين، ع ١٤٦، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٩م.
- ❖ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون.
  - o في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة،(الإسكندرية)، ١٩٩٢م.
- ❖ أحمد محمد عوف: مدينة الفسطاط وعبقرية المكان، س العلم والحياة، ع ١٤٤، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ٢٠٠٣م.
- ❖ أحمد بن يوسف الدريوشي: أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، (الرياض)، ١٩٨٩م.
- ❖ آدم صبرة: الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠- ١٥١٧م)، ترجمة قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، ع ٥٠٩، (القاهرة)، ٢٠٠٣م.
- ❖ آدم منز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبوريدة، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت- (لبنان)، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
  - o المجلد الثاني، مكتبة الخانكي، (القاهرة).

- ألبرت حوراني: تاريخ الشعوب العربية، تعريب أسعد صقر، الطبعة الأولى، دار طلاس، (دمشق)، ١٩٩٧م.
- البيير جبريل، علي بهجت بك: حفريات الفسطاط، ترجمة علي بهجت، الطبعة الأولى، دار الكتب، (القاهرة) ، ١٩٨٢م.
- إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، س تاريخ المصريين، ع ٥٢، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٢م.
- أمينة أحمد إمام الشوربجي: رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٩- ١١٧١م)؛ س تاريخ المصريين، ع ٧٢، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٤م.
- أندريه ريمون: القاهرة، تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات، (القاهرة)، ١٩٩٣م.
- أولج فولكف: القاهرة (مدينة ألف ليلة وليلة ٩٦٩- ١٩٦٩م)، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٨٦م.
- أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، الطبعة الأولى،الدارالمصرية اللبنانية، (القاهرة)، ١٩٩٢م، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة، (القاهرة)، ٢٠٠٧م.
  - التطور العمراني لمدينة القاهرة، الدار المصرية اللبنانية،(القاهرة)، ١٩٩٦م.
- بولياك (أ.ن. بولياك): الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، نقله عاطف كرم، الطبعة الثانية، بيروت- (لبنان)، ١٩٤٨م.
- بولو كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة (القاهرة)، ترجمة أحمد دراج، مراجعة جمال محرز، المكتبة العربية، ع ١٤٤، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٧٤م.
- ليفي بروفنسال: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد العاشر، طبعة الشعب، (القاهرة)، بدون.
- البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك)، جزآن، تاريخ المصريين، ع ١١٠، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٧م.
- جمال الدين الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى، (بورسعيد)، ٢٠٠٠م.
  - تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، المكتبة التاريخية، المعارف، (القاهرة)، ١٩٦٧م.
- جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد سيد، الطبعة الأولى، الخانكي، (القاهرة)، ١٩٨٨م.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسورية، وبلاد العرب، الطبعة الرابعة، النهضة، (القاهرة)، ١٩٨١م.

- حسين نصار: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، الطبعة الثانية، مكتبة التراث، ع ٧٠، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ٢٠٠٢م.
- خالد عزب: الفسطاط (النشأة، الازدهار، الانحسار)، الطبعة الأولى، س مدن تراثية، ع١، دارالآفاق العربية ،(القاهرة)، ١٩٩٨م.
- راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، الطبعة الأولى، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٤٨م.
- زبيدة محمد عطا، اليهود في العالم العربي،الجزءالأول،الطبعة الاولى، عين، (القاهرة)، ٢٠٠٣م
- سلام شافعي محمود سلام ، اهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الايوبي، المعارف ، (القاهرة) ،١٩٨٢م.
- سعاد ماهر، القاهرة القديمة وأحياؤها، دار القلم، (القاهرة)، ١٩٦٢م.
- سعد الخادم، الصناعات الشعبية في مصر، المعارف، (القاهرة)، ١٩٥٧م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الثانية، النهضة العربية، (القاهرة)، ١٩٧٦م.
  - الظاهر بيبرس، تاريخ المصريين، ع ٢٠٧، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ٢٠٠١م.
  - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، النهضة العربية، (القاهرة)، ١٩٦٢م.
  - مصر في عصر دولة المماليك البحرية، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٥٩م.
  - الناصر صلاح الدين، أعلام العرب، ع ٤١، المؤسسة المصرية العامة، (القاهرة)، ١٩٦٥.
  - الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، النهضة العربية، (القاهرة)، ١٩٩٢م.
- سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٨٦م.
- السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، (القاهرة)، ١٩٦٠م.
- السيد طه أبو سديرة: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي (٢٠- ٥٦٧هـ/ ٦٤١- ١١٧١م)، الهيئة العامة للكتاب،(القاهرة)، ١٩٩١م.
- سيمينوفا (ل. أ. سيمينوفا): صلاح الدين والمماليك في مصر، ترجمة حسن بيومي، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٨م.
- شحاته عيسى إبراهيم: (القاهرة) تاريخها ونشأتها، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ٢٠٠١م.

❖شلبي إبراهيم جعيدي: طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي (٥٦٧- ٦٤٨هـ/ ١١٧١- ١٢٥٠م)، تاريخ المصريين، ع ٢١٢، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ٢٠٠٣م.

❖صلاح أحمد هريدي: الحرف والصناعات في عهد محمد علي، المعارف، (القاهرة)، ١٩٩٥م.

❖عادل سليمان زيتون: ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري (العصر الأيوبي والمملوكي)، المجلد الثاني، دار البعث، (سوريا)، ب. ت.

❖عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصر الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، الطبعة الأولى، النهضة العربية، (القاهرة)، ١٩٧٠م.

❖عبد العزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب، بيروت- (لبنان)، ١٩٦١م.

❖عبد العزيز كامل: المجتمع العربي، الأنجلو المصرية، (القاهرة)، ١٩٦٠م.

❖عبد المنعم سلطان: الأسواق في العصر الفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية)، ١٩٩٧م.

- المجتمع المصري في العصر الفاطمي (دراسة تاريخية وثائقية)، المعارف، (القاهرة)، ١٩٨٥م.

❖ عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، (القاهرة)، ١٩٩٧م.

- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الجامعة العربية، بيروت- (لبنان)، ١٩٦٦م.
- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (دراسة شاملة للنظم السياسية)، الأنجلو المصرية، (القاهرة)، ١٩٦٤م.

❖ عبد الرحمن فهمي: النقود العربية ماضيها وحاضرها، س المكتبة الثقافية، ع ١٠٣، (القاهرة)، ١٩٦٤م.

❖ عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، (القاهرة) ١٩٤٧م.

❖ عثمان علي محمد عطا: الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي (٦٤٨هـ- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م)، تاريخ المصريين، ع ٢١٣، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ٢٠٠٢م.

❖ عدنان فايز الحارثي: عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤- ٥٨٩هـ/ ١١٦٨- ١١١٩م)، (القاهرة)، ١٩٩٩م.

- ❖ عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، (القاهرة)، ب. ت.
- ❖ عصمت محمد حسن: جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي، مكتبة الأسرة، (القاهرة)، ٢٠٠٣م.
- ❖ علاء طه رزق: عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، عين، (القاهرة)، ٢٠٠٣م.
- ❖ علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصربوجه خاص، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٤٤م.
  - ○ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٤٧م.
- ❖ علي حسين الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، الأنجلو، (القاهرة)، ١٩٦٣م.
- ❖ علي السيد علي: العلاقات بين المصريين والصليبيين، الطبعة الأولى، (القاهرة)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- ❖ علي السيد علي، قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك (التاريخ السياسي والعسكري)، عين، (القاهرة)، ١٩٩٥م.
- ❖ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ثمانية أجزاء، طبعة بولاق، ١٣٠٥هـ، الهيئة، (القاهرة)، ١٩٨٧م.
- ❖ عمر طوسون: مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، الطبعة الثانية، مدبولي، (القاهرة)، ٢٠٠٠م.
- ❖ قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، عين مس، (القاهرة)، ١٩٧٨م.
  - ○ بين الأدب والتاريخ، دار الفكر، (القاهرة)، ١٩٨٦م.
  - ○ بين التاريخ والفولكلور، الطبعة الثانية، عين، (القاهرة)، ٢٠٠١م.
  - ○ دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، الطبعة الثانية، المعارف، (القاهرة)، ١٩٧٣م.
  - ○ النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، المعارف، (القاهرة)، ١٩٧٨م.
  - ○ اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر، (القاهرة)، ١٩٨٧م.
- ❖ كمال أبو مصطفى: الأحباس في الأندلس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة، دار الثقافة (القاهرة) ،١٩٨٩م.

❖ كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٨٣م.
❖ كلوت بك (أ. ب كلوت بك): لمحة عامة إلى مصر، ترجمة: محمود مسعود، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار الموقف العربي، (القاهرة)، ١٩٨٢م.
❖ لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٩٣م.
❖ مجدي عبد الرشيد بحر: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م)، تاريخ المصريين، ع ١٧٠، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٩م.
❖ محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م)، تاريخ المصريين، ع ١٥٢، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٩م.
❖ محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر (الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص، دار الفكر العربي، (القاهرة)، ١٩٤٧م.
  o الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، الفكر العربي، (القاهرة)، ١٩٧٠م.
❖ محمد الجهيني: أحياء القاهرة القديمة وآثارها الإسلامية "حي باب البحر"، الطبعة الأولى، نهضة الشرق- دار الوفاء، (المنصورة)، ٢٠٠٠م.
❖ محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في مصر فى العصر الفاطمي، المعارف ، (القاهرة) ، ب.ت
❖ محمد حمزة إسماعيل الحداد : السطان المنصور قلاوون (تاريخ- أحوال مصر في عهده)، الطبعة الثانية، صفحات من تاريخ مصر ،ع٢٢، مدبولي ، (القاهرة) ،١٩٩٨م
❖ محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعياريين، الطبعة الثانية، ذاكرة الكتاب، ع ٣٧، هيئة قصور الثقافة، (القاهرة)، ٢٠٠٢م.
❖ محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، الجزء الأول، منشأة المعارف، (الإسكندرية)، ١٩٩٧م.
❖ محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، الطبعة الثالثة، الخانكي، (القاهرة)، ١٩٨٣م.
  o مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، الطبعة الثانية، الخانكي- طبعة لجنة التأليف والنشر، (القاهرة) ١٩٦٩م.
❖ محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، (الكويت)، ١٩٨٨م.
❖ محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، أعلام العرب ، ع٢٨ ، المؤسسة المصرية العامة ، (القاهرة) ، ١٩٦٤م

- ❖ محمد عبد الغني الأشقر : سلار الأمير التتر المسلم نائب السلطنة المملوكية في مصر (٦٦٠-٧١٠هـ /١٢٦٠- ١٣١٠م)، ط اولي، صفحات في تاريخ مصر ،ع٤٢، (القاهرة) ،٢٠٠٠م.
- ❖ محمد عمارة: عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجد الإسلام، الطبعة الثانية، دار الشرق، (القاهرة)، ١٩٨٨م.
- ❖ محمد محمد الكحلاوي: آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة) ، ١٩٩٤م.
- ❖ محمد محمود أبو زيد: الريف المصري في العصر الإسلامي (دراسة اقتصادية اجتماعية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)، الطبعة الأولى، (المنصورة)، ١٩٩٨م.
- ❖ محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، (القاهرة)، ٢٠٠٧م.
- ❖ المعجم الوجيز: تصدير إبراهيم مدكور و شوقي ضيف، الهيئة العامة للكتاب ، (القاهرة)، ١٩٩٠م.
- ❖ المعجم الوسيط: (مجمع اللغة العربية)، تصدير إبراهيم مدكور، مراجعة عبد الوهاب السيد عوض الله ومحمد عبد العزيز القلماوي، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، (القاهرة)، ١٩٨٥م.
- ❖ نظير حسان سعداوي: صور ومظالم من عصور المماليك، النهضة المصرية، (القاهرة)، ١٩٦٦م.
- ❖ نيللي حنا: ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية (ق ١٦م/ ١٨م)، ترجمة رؤوف عباس، مكتبة الأسرة، (القاهرة)، ٢٠٠٤م.
- ❖ هاملتون جب، وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغربي، جزئين، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، المعارف، (القاهرة)، ١٩٧١م.
- ❖ هيردوت: هيردوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، دار القلم، (القاهرة)، ١٩٦٦م.
- ❖ هنري بيرين: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، ترجمة عطية القومية، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ١٩٩٦م.

وليم موير: دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، ع ٢٥، مدبولي، (القاهرة)، ١٩٩٥م.

- ❖ يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس)، ترجمة عبد الحافظ عبد الخالق، الطبعة الأولى، عين، (القاهرة)، ٢٠٠١م.

(٤) رسائل جامعية غير منشورة:

أ) رسائل الدكتوراة:

❖ الحسين مصطفى: طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في مصر الإسلامية، رسالة دكتوراة، غير منشورة، آثار، (القاهرة)، ١٩٨٧م.

❖ حلمي محمد سالم: حرف وصناعات الأطعمة والأشربة في عصر المماليك، رسالة دكتوراة، غير منشورة، آداب (إسكندرية)، ١٩٧٠م.

❖ سعاد محمد حسن: الحمامات في مصر الإسلامية، دراسة أثرية معمارية، رسالة دكتوراة، غير منشورة، آثار (القاهرة)، ١٩٨٣م.

❖ عباس حلمي إسماعيل: السياسة الداخلية في الدولة الأيوبية في مصر بعد السلطان العادل، رسالة دكتوراة، غير منشورة، آداب، (القاهرة)، ١٩٥٥م.

❖ محمد أحمد محمد أحمد: مظاهر الحضارة من الوجه القبلي منذ قيام الدولة الأيوبية حتى نهاية العصر المملوكي، رسالة دكتوراة، غير منشورة، آداب، أسيوط- سوهاج، ١٩٨٣م.

❖ محمد محمود علي أبو زيد: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الريف المصري من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، رسالة دكتوراة، غير منشورة، كلية البنات- (عين شمس)، ١٩٨٥م.

❖ لبيبة إبراهيم مصطفى أحمد: الفتن والقلاقل الداخلية في دولة سلاطين المماليك وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م)، رسالة دكتوراة، غير منشورة، آداب، (القاهرة)، ٢٠٠٠م.

❖ هبة الله محمد فتحي حسن: الأربع والمنازل الشعبية في القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، دراسة أثرية معمارية، رسالة دكتوراة، غير منشورة، آثار (القاهرة)، ١٩٩٥م.

ب) رسائل الماجستير:

❖ جمعة جمال عبد العال: الثورات الشعبية في الدولة الأيوبية، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب (الزقازيق)، ١٩٩٦م.

❖ حسن أحمد عبد الجليل البطاوي: المعممون ودورهم في مصر عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب، (القاهرة)، ١٩٩٥م.

❖ حنفي محمود خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة (فؤاد الأول)، ١٩٤٩م.

❖ رضا إسماعيل أحمد محمد: جغرافية القاهرة زمن المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة (القاهرة)، ١٩٩٩م.

- سحر السيد إبراهيم: الهجرات وتطور مدينة القاهرة عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب، (الزقازيق)، ٢٠٠١م.
- صفي علي محمد عبد الله: مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الفاطمي، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية البنات– (عين شمس)، ١٩٨٥م.
- عمرو عبد العزيز منير: العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين "دراسة مقارنة في كتابات الرحالة"، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب، (الزقازيق)، ٢٠٠٤م.
- محاسن محمد الوقاد: الطبقات الدنيا في القاهرة في عصر المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، الآداب– (عين شمس)، ١٩٩١م.
- محمد حسن محمد حسن: الأسرة المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨– ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠– ١٥١٧م)، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب، (الزقازيق)، ١٩٨٩م.
- محمد حمزة إسماعيل: قرافة القاهرة، في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، آثار (القاهرة)، ١٩٨٧م.

(٥) الدوريات:

- أحمد مختار العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، ع الأول، المجلد ١١، عالم الفكر، (الكويت) أبريل، مايو– يونيو ١٩٨٠م.
- أنيس المقدسي: الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير، مجلة مجمع اللغة العربية "البحوث والمحاضرات"، مؤتمر ١٩٦١– ١٩٦٢، الهيئة، (القاهرة)، ١٩٦٢م.
- حسين مؤنس: الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ط الثانية مجلة عالم المعرفة ع ٢٣٧ (الكويت) ١٩٩٨م.
- صبحي لبيب: التجارة الكاريمية تجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، (القاهرة) ١٩٥٢.
  - تاريخ تجارة الإسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي، مجلة غرفة الإسكندرية التجارية، ع ١٧٣؛ (القاهرة)، لسنة ١٩٥٢م.
- عبد الرحمن زكي: نشأة (القاهرة) وامتدادها في أيام الأيوبيين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن، ١٩٧١م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، ع الأول، المجلد ١١، (القاهرة)، ١٩٨٠م.
- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، مجلة عالم المعرفة، ع ١٤٩، (الكويت)، ١٩٩٠م.

❖ محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، ج أول، مجلد ١٣، مجلة عالم الفكر، ع ٣٤، (الكويت)، ١٩٨٢م.

(٦) المراجع الأجنبية:

❖ Ashtor: Le cout de la vie dans l'Egypte medlevale journal of the economic and social history of the orient, (JESHO) Vol. 111 Part 1, (Leiden), 1960.

❖ Doyzy: Suplement aux dictionnaires arabes vol., (leyden) 1881.

- Dictionnaire detaille des noms des vetements chezles arabes, Amsterdam, 1845.

❖ Goitein: Amediterranenn society of the high middle ages, (New York), 1967.

❖ Lane Poole: Social life in Egypt, (London), 1882.

❖ Palerne: Le Voyage en Egypt 1581, (Le Caira), 1970.

❖ Piloti, E.: L'Egypte au commencement du Quinziemé Siècle d'après le trait d'emmannel piloti crète, ed. By P.H. Dopp., Le Caire, 1950.

❖ P.H. Dopp: Le Caire Vu par les voyageurs occident aux du moyen ages, B.S.G.E. 1951.